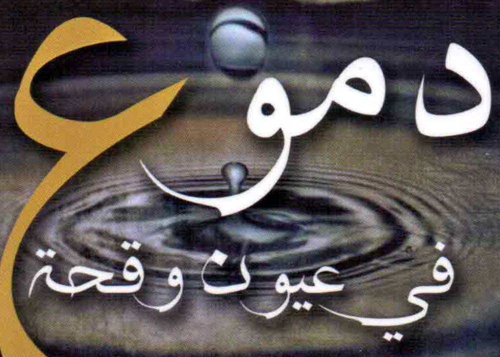
الطبعة الثانية



دموع في عيون وقحة

رِوايَةُ

صالح مرسي



رِوايَةُ

دموع في عيون وقحة

ستظل أحداث تلك الواقعة التي سطرتها ملفات المخابرات المصرية في صراعها مع العدو الصهيوني. كامنة في بؤر الشعور لدى المصريين والعرب، لتؤكد لنا أن الآخر لن يبتعد عنا ولن يرضى العيش في سلام.

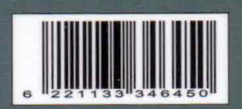
وستظل تلك الأحداث، رغم رحيل بطلها الحقيقي عن الحياة، تدق لنا جرس الإنذار بين الحين والآخر لندرك أن سلاحنا الحقيقي في تلك المواجهة المحتومة مع العيون الوقحة، هو الإيمان المدعوم بالعلم والحكمة.

وهكذا يقدم لنا الأديب صالح مرسي تلك السطور لنتذكر أن من بيننا من سيرضى ببيع أي شيء وكل شيء، وآخرون لا يعرفون لتلك الكلمة مكانًا في حياتهم، فيؤمنون بفطرتهم أن الوطن باق وجميعنا ذاهبون.

الناشر






6 221133 346450

دموع في عيون وقحة

تأليف

صالح مرسي



العنـــوان:

دمــوع فــي عيــون وقحـــة

تأليـــف:

صالـــح مرســـي

إشــراف عــام:

داليـــــا محمـــــد إبراهيـــــم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظــر طبـــع أو نشــر أو تصويــر أو تخزيــن
أي جـزء مـن هـذا الكتـاب بأيـة وسيلـة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصويـر أو خـلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريـح من الناشـر.



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

الترقيم الدولي: 978-977-14-4358-5
رقـم الإيـــداع: 10731 / 2013
الطبعـــة الثانيـة: أكتوبــــر 2013

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفـــون: 33466434 - 33472864 02
فاكـــس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

دموع
في عيون وقحة

إلى شباب مصر..

إلى الرجال الذين عانوا كما لم يعانِ أحد عندما وقعت هزيمة ١٩٦٧ قاصمة الظهر، ولم يكونوا قد قصروا في واجب!... وإليهم - نفس الرجال - الذين تحملوا العبء صابرين، واستمروا في حماية الوطن والدأب على العمل واقتحام الخطر حتى تحقق نصر ١٩٧٣.

صالح مرسي

المقدمة عن الكتاب... و... المسلسل

سوف يكتشف القارئ - إن كان قد شاهد المسلسل التلفزيوني «دموع في عيون وقحة» - من السطر الأول في هذا الكتاب، أن هناك فرقًا كبيرًا بين تناول القصة في الكتاب وبين تناولها في المسلسل التلفزيوني... وأن هناك الكثير من التفاصيل التي جاءت في المسلسل ليس لها وجود في الكتاب، وكثيرًا ما سئلت عن الفرق بين الكتابة للتلفزيون أو السينما وكتابة القصة أو الرواية... وفي حقيقة الأمر أن الفرق - من وجهة نظر خاصة -لا بد أن يختلف في الشكل، لا في المضمون، وخاصة في مثل هذا النوع من القصص، وأعني بها قصص التجسس أو قصص المخابرات!

ذلك أن العلاج الدرامي لحدث ما يخضع بالضرورة للمجال الذي يعرض فيه، فإذا أردنا أن نكتب حدثًا ما في قصة أو رواية مقروءة، فقد يتطلب الأمر منا بضعة أسطر نشرح فيها ما نريد، وبأكبر قدر من التركيز، حتى لا نقع في شباك الإسهاب والإطناب... أما إذا ما انتقلنا إلى العلاج التلفزيوني أو السينمائي، فإن الأمر يتطلب نوعًا آخر من العلاج، نوعًا تتداخل فيه - بالضرورة - الصورة المعروضة على الشاشة، والحوار المتبادل بين الأبطال، زيادة على متطلبات أخرى كإمكانيات الإخراج

والإضاءة والديكور وما إلى ذلك من روافد هي من ضرورات العمل الفني في هذا الحقل!.

وهناك مثل واضح ورد في «رأفت الهجان».

فعندما تعرضت - في الكتاب - للعملية التي عرفت تاريخيًا باسم «فضيحة لافون»، وهي تلك العملية التي قام بها بعض الشباب اليهود لتفجير مكاتب الاستعلامات في القاهرة والإسكندرية حتى يوقعوا ما بين الثورة المصرية التي كانت وليدة حينذاك، وبين الولايات المتحدة الأمريكية... لم يستدع الأمر أكثر من بضعة أسطر لا تزيد على العشر، كي يفهم القارئ أصل الحكاية والموضوع... ولكني عندما تعرضت لنفس العملية في المسلسل التلفزيوني، كان من المستحيل أن أذكرها على لسان أحد أبطال المسلسل، لسبب بسيط، هو... أن هذا لن يفي بالغرض، ولن يعرف المشاهد - خاصة الأجيال الجديدة - بداية هذه العملية وتطورها وطبيعة مكانها من تسلسل الأحداث... إذن فلقد كان من الضروري أن نتعرض لفضيحة لافون في حلقة كاملة، هي الحلقة الرابعة من الجزء الأول... وأن تتحول هذه القضية السياسية إلى دراما تلفزيونية تحوي المشاهد والشخصيات والتدابير والاتفاق والتآمر حتى تكتمل الصورة... وخاصة أن هذه العملية بالذات، كان لها تأثير عضوي - إن صح التعبير - في البحث عن شخص يستطيع أن يقوم في إسرائيل بما كان يقوم به شباب اليهود في الدول العربية!!

هذا من ناحية التناول الفني للحدث الواحد، سواء أكان الأمر يختص بقصص التجسس أم بغيرها من الروايات التي تعد للسينما أو التلفزيون!.

وكان هناك، على الوجه الآخر، إشكال ما زلت حتى اليوم أتعرض له كلما واجهت قارئًا، أو صديقًا، أو حتى ناقدًا، فيما يخص قصص التجسس بالتحديد!.

وفي حوار بيني وبين أستاذ من أساتذة النقد في مصر، أكن له احترامًا كبيرًا وخاصًّا، حول هذا النوع من القصص، وجه إليَّ هذا الأستاذ سؤالًا أربكني وأدهشني في نفس الوقت... فلقد سألني هذا الأستاذ:

«هل هناك خيال في مثل هذه القصص؟!».

بدا لي السؤال غريبًا، كما بدا لي في نفس الوقت باعثًا على الأسى الشديد!.

ذلك أن البعض يظن أن كل ما يفعله الكاتب في مثل هذا النوع من القصص، أنه يستمع لما يملى عليه، أو يقرؤه في الملفات الخاصة بهذه القضية أو تلك، ثم ينكب على الورق كي «ينقل» ما سمعه أو قرأه إلى الورق!!.

وهذا في واقع الأمر بعيد عن الحقيقة بعد السماء عن الأرض!... ولهذا البعد الذي أزعمه أسباب عديدة:

أول هذه الأسباب، أن أي جهاز مخابرات في العالم، حتى تلك الأجهزة التي تصرح بكتابة تسجيلية، تسجل الحدث أو القضية أو

العملية كما حدثت ووقفت دون بناء درامي أو خيال من أي نوع، من المستحيل أن تبوح بكل شيء، فهناك دائمًا تلك الأسرار التي مهما مضى عليها من زمن، ومهما تنوعت النظرة إلى الموضوع، لا يمكن التصريح بنشرها بأية وسيلة من وسائل النشر!... ذلك أن لكل جهاز أسلوبه في التعامل مع القضايا، ووسائله في عمله... هذا الأسلوب هو سر الأسرار وقدس الأقداس بالنسبة إليه... ومهما تطورت الأساليب مع الفرق ومع التطور التكنولوجي فإنها في النهاية تحمل نفس السمات التي قد تشير أو تكشف ما لا يجب أن تشير إليه أو تكشفه!.

بمعنى... أن أي جهاز مخابرات عندما يعلن عن إحدى عملياته، أو يصرح بنشرها، فهو يعلن عن الخطوط الرئيسة فقط، أو... أو يبوح بما يمكن أن نطلق عليه «الهيكل العظمي» للعملية كلها، ويصبح على الكاتب في العمل الدرامي بالذات، أن يملأ تلك الفراغات أو يكسو هذا الهيكل العظمي بدم ولحم نابعين من الأصل وملتحمين به حتى يصبح نسيجًا واحدًا لا نشاز فيه ولا انكسار في تدفقه!.

هذا من ناحية...

أما المسألة الثانية، فهي أن هناك أمورًا حتى ولو اطلع الكاتب عليها، يصبح من المطلوب منه أن يسدل عليها ستارًا من السرية وحماية للهيكل، أو إخفاء لمعلومة لا ينبغي الإفصاح عنها... هنا يصبح على الكاتب أن يجد البديل الذي يحل محل هذا الأمر أو ذاك، وهذا البديل يكون في الواقع خيالًا صرفًا ولكنه خيال نابع من الواقع، متصل به اتصالًا وثيقًا،

يسير في نفس المسار، ويرتدي الثياب نفسها التي ترتديها الأحداث السابقة واللاحقة معًا!.

فما هو القول الفصل في مثل هذا الأمر؟!

إن الإجابة عن هذا السؤال تبدو لي من الصعوبة بمكان... لكن الصعوبة الحقيقية من وجهة نظري تكمن في تحويل كل هذا إلى بناء فني متكامل، بحيث تختفي الخطوط الفاصلة بين الواقع الذي حدث، والخيال المضاف إليه ليصبح الكل بناء واحدًا متكاملًا أمام القارئ أو المشاهد، وبحيث يذوب الخيال تمامًا!

وعلى ذلك، فإن السؤال كثيرًا ما يطرحه البعض عن نسبة الحقيقة إلى الخيال الذي يصبح بدونه أي عمل من الأعمال غير ذي موضوع.

لأن الخيال مهما كانت نسبته فهو مستمد من الواقع ونابع منه!.

ثم... ثم هناك أمر آخر يجب علينا ألَّا نغفله... هو أن العمل في هذا الحقل محفوف بمخاطر لا شك فيها، مخاطر لا تقتصر على حياة الأفراد فقط ولكنها تنسحب على أمن الأمة بأسرها... وعلى هذا فإن خطوات العمل فيه تبدو من الجفاف والصرامة بما يضمن الأمن كاملًا، وبناءً عليه، فإن تصرفات الأفراد تتسم بقدر هائل من الجفاف مما يجعل نقلها فنيًّا كما حدثت أمرًا بعيدًا عما يمكن أن نسميه «جاذبية الفن»، والتي تجعل من القراءة أو المشاهدة نوعًا من المتعة المطلوبة!.

أذكر أني شاهدت فيلمًا يتناول قضية من قضايا التجسس بين الشرق والغرب، ولعله كان فيلم «توباز» - وهو اسم العملية التي كان الفيلم يعرض قصتها - وكانت الأحداث تبدو ملتزمة بما وقع التزامًا كبيرًا،

ولقد كان الفيلم عملًا فنيًا متكاملًا، لكني اضطررت إلى مشاهدته أكثر من مرة كي أستوعب حقيقة العلاقات البالغة التشابك داخل القصة!.

وهناك مثل آخر نعطيه على فيلم عرض في التلفزيون المصري مرتين... هو فيلم «الرجل الذي لم يكن»!... كانت العملية التي تناولها هذا الفيلم تعتمد على إلقاء جثة رجل توفي قرب الشواطئ الإسبانية. وقد ألبست هذه الجثة ملابس ضابط في الجيش البريطاني، أعطي اسمًا وعنوانًا ووضعت في حافظته صورة لفتاة تطوعت أن تكون خطيبته، ثم... ثم وضعت مستندات على جانب كبير من الأهمية في حقيبة هذا الضابط عن عملية إنزال جيوش الحلفاء في مكان آخر غير المكان الذي كانت الخطط قد حددته كي تنزل فيه هذه الجيوش... وكان المطلوب أن تصل هذه المستندات - بشكل أو بآخر - إلى السفير الألماني في مدريد... وقد نجحت الخطة تمامًا، وألقت الأمواج بالجثة إلى الشاطئ، ونشط القنصل الألماني في تلك المدينة حتى حصل على المستندات وصورها، في الوقت الذي كان القنصل البريطاني في نفس المدينة يرغي ويزبد ويطالب بالحقيبة... وابتلع الألمان الطعم تمامًا، واستعدوا للخطة المزيفة، ونجحت الخطة الأصلية وتمت العملية بنجاح.

إن هذه العملية لو أنها أنتجت فيلمًا سينمائيًا كما هي، لما كانت لها نفس الجاذبية التي حظي بها الفيلم الذي أضيفت إليه أحداث جديدة... ذلك أن الفيلم جاء فيه أن النازيين لم يقتنعوا تمامًا بما كان في المستندات - وهذا عكس ما حدث - وأنهم كي يتيقنوا من الأمر أرسلوا واحدًا من جواسيسهم إلى لندن كي يستوثق من الأمر... ولقد كان هذا الجزء

المختلف من أكثر أجزاء الفيلم إثارة، كما كان – على المستوى الفني – من أجمل أجزاء الفيلم أيضًا. فلقد ذهب هذا الجاسوس كي يلتقي بالفتاة التي وضعت صورتها في حافظة الجثة على أنها خطيبة الضابط الغريق، والتقى بها، وكاد الأمر برمته أن يكتشف، لولا يقظة المخابرات البريطانية من ناحية، ولولا مصادفة غريبة وقعت وهي: أن خطيب الفتاة الحقيقي – وكان طيارًا – كان قد قتل قبل أيام قليلة... ووجدها الجاسوس حزينة تنعي حظها وتبكي خطيبها، فظن بطبيعة الحال أنها تبكي الجثة التي عثر عليها عند الشواطئ الإسبانية!.

فهل نستطيع هنا أن نقول: إن هذه الإضافة لم تكن ذات علاقة وثيقة بالعملية كلها؟!

إن العلاج الدرامي لمثل هذه القصص يبدو ضروريًّا، ما دمنا نحولها من عملية مخابرات إلى عمل فني متكامل!.

■ ■ ■

ثم...

لعلي أشعر وأنا أقدم لك – عزيزي القارئ – قصة جمعة الشوان، أو «دموع في عيون وقحة»... أن أقدم لك واحدًا من تلك الأعمال التي آليت على نفسي أن أقدمها للإنسان العربي، وقد بذلت فيها كل ما استطعت من جهد، كي أكشف الستار عن أبطال من أمتنا، يعيشون بيننا دون أن يعلنوا عن أنفسهم، يضحون بحيواتهم من أجل حماية هذا الوطن وهذه الأمة...

وكل ما أرجوه، أن أكون قد قمت بواجبي حيال هؤلاء الرجال، وحيال الوطن.

صالح مرسي

الفصل الأول

«يانك أوتيل فوكس تروت... يانك أوتيل فوكس تروت».

ظل النداء يتردد من الجهاز الموضوع أمامه، جاء النداء السري هذه المرة كما جاء مئات المرات من قبل في الموعد تمامًا... التفت إلى الريس زكريا واختطف منه نظرة سريعة، ثم أمسك بالقلم استعدادًا...

وما إن بدأت الرسالة الآتية من تل أبيب في صفارات متقطعة حتى راح يكتب مجموعة من الأرقام والحروف والرموز... وما إن اكتملت البرقية التي تلقاها، حتى كان عليه أن يأتي بكتاب الشفرة ليعرف محتواها... كان لا بد للأرقام والرموز أن تتحول إلى جملة مفيدة... أمر صادر إليه من هناك... من «البيت» كما يطلقون على إسرائيل، وكان من الممكن أن يكون الاحتياج معلومة عن وحدة من وحدات الجيش، أو عن تعليقات الناس في الأتوبيسات والمقاهي، أو عن مطار سري في مكان ما في أقصى الجمهورية، أو عن نقص السكر والزيت في الجمعيات الاستهلاكية... غير أن الأمر جاء هذه المرة مختصرًا: «تعال»...

كانوا يطلبون منه كثيرًا أن يسافر إلى أوربا... وكم من مرات سافر إليهم طوال السنوات الخمس التي مضت. سافر إلى روما وباريس،

سافر إلى سويسرا وألمانيا... ولقد تعدى سفره أوربا فطار عبر البحر إلى إسرائيل نفسها، وفي كل مرة كان ينتابه القلق والخوف... لكنه هذه المرة - وبعد كل ما حدث - أحس وكأن أحدًا قد وضع الهرم الأكبر فوق كتفيه، وطلب منه أن يصعد درجات برج الجزيرة حتى القمة.

هذه المرة ارتجف من الداخل رغم أنه لم يتردد لحظة... كانت الحرب قد توقفت منذ ثلاثة أشهر، وكان الإسرائيليون قد هزموا هزيمة لم يتوقعها أحد في الدنيا... وكان هو قد اكتشف أنه أسهم في هذه الهزيمة، فطوال الشهور التي سبقت الحرب كان يرسل إليهم معلومات عن الجيش... سيلًا من المعلومات عن الأسلحة والمعدات والاستعدادات، وكلها تقول: لا حرب... ولكن الحرب قامت، ولا بد أنهم اكتشفوا أنه كان يخدعهم، ولا بد أنهم يستدرجونه الآن ليذيقوه العذاب ألوانًا... ورغم هذا قال له الريس زكريا: سافر...

دقت الساعة الحادية عشرة مساء وأعلنت إذاعة القاهرة عن نشرتها المسائية الأخيرة... كان الجو في تلك الليلة باردًا لم تفلح المدفأة الكهربائية الحديثة في التغلب على برودته، وكانت الريح تصفر في الخارج... أما هو فكان قد انتهى من تجهيز حقيبته، قال له الريس زكريا: «ما تخافش!!».

على العين والرأس كل ما يقوله «الريس زكريا» لكنه خائف حقًّا، إلى جواره كانت تقف فاطمة، وهي تعلم أنه سيسافر في صباح اليوم التالي، وقد استبد بها القلق أكثر من أية مرة سافر فيها من قبل ثم يعود إليها محملًا بالهدايا... وهو... هو لم يكن في تلك الليلة مرحًا مثلما تعودت منه، لم تكن تدري - بطبيعة الحال - أنه - منذ التقى بجوجو

قد كتب عليه أن يعيش في الظلام، كتب عليه أن يكون «مزدوجًا» - !!- كتب عليه أن يكتم ولا يبوح بمخاوفه حتى لأقرب الناس إليه.

انتهى الآن من تجهيز كل شيء...

ولم يبق أمامه سوى مشوار واحد، مشوار كان عليه أن يؤديه لنفسه ومع نفسه ودون نداء... فغادر البيت.

جلس في سيارته، وانطلق في شوارع القاهرة... ومنذ خمس سنوات وهو ينطلق ويطير إلى كل عاصمة يطلبون منه أن يطير إليها ولو أنه توقف لحظة واحدة ونظر خلفه لأصابه الرعب.

أن تكون جاسوسًا فهذا أمر هين... أنت تعرف طريقك الذي اخترته لنفسك وتعلم أنه طريق يؤدي - مهما طال الأجل - إلى حبل المشنقة، أما هو، فجاسوس وليس جاسوسًا. وهو، هو... هو كبهلوان السيرك يطلي وجهه بالأصباغ ويخفي حقيقته فلا يرى الناس وجهه الحقيقي. يسير على حبل مشدود فوق بحر من الجحيم... عن يمينه نار سيقع فيها إن هو مال يمينًا... وعن يساره نار سيقع فيها إن هو مال يسارًا... وكان عليه أن يصل إلى آخر الحبل مهما كلفه الأمر من ثمن، ولقد كان من الممكن أن يهون كل هذا لو أنه عرف فقط متى يصل إلى النهاية... إنه يسير... يسير... منذ خمس سنوات، منذ أن قَبِل خوض اللعبة - إن صح التعبير - منذ أن أحس أنه يريد أن يصنع شيئًا لهذا الوطن... وكلما خطا خطوة أصبح من المستحيل عليه أن يتراجع... فمتى - هذا هو العذاب بعينه - متى يعرف للطريق نهاية؟

■ ■ ■

توقفت به السيارة في ميدان الحسين المغمور في الضوء...

ما زالت الإضاءة محددة منذ أن اندلعت الحرب في «الكنال» ورغم مضي ثلاثة أشهر على توقفها، لكنه يرى ميدان الحسين دائمًا يشع بالأضواء الخفية!!.

قبل اندلاع الحرب بثلاثة أيام وصل إلى القاهرة وكان قادمًا يومها من إسرائيل، وكان قد أمدهم بكل ما ساعد على هزيمتهم. قصة هي... قصة طويلة وأين كان هو من كل هذا؟... ولماذا؟!... وما المكتوب في اللوح المحفوظ؟ وسواء قال «الريس زكريا» أو لم يقل، كان يشعر هذه المرة بأنه ذاهب ليموت.

ولهذا جاء إلى ميدان الحسين... لم يغادر السيارة، بل راح يملأ عينيه من المكان الذي كان يتلألأ بالأضواء رغم خفوتها، ويعج بالناس هنا وهناك... أحس كأنه يريد أن يملأ عينيه بالقاهرة قبل أن تغيب عن عينيه إلى الأبد... أكثر ما كان يضنيه ذلك الطفل الذي كانت فاطمة تحمله في أحشائها ولم ير النور بعد... فهل قدر لولده أن يأتي إلى الدنيا بعد أن يرحل هو عنها؟!

أشعل سيجارة واستغرق فيما أمامه وحوله، امتدت يده إلى راديو السيارة كمن يبحث عمن يؤنس وحدته، ما زالت الإذاعة تبث نفس الأغنيات الوطنية التي لا يسمعها الناس إلا وقت الحرب، نفس الأغنيات التي سمعها وهو صبي في حرب 1956، وهي هي نفس الأغنيات التي سمعها في حرب 1967 التي قذفت به من السويس إلى القاهرة... وها هو يسمعها بعد حرب 1973 التي كان له نصيب المشاركة فيها، هي

هي نفس الأغنيات بنفس الأصوات والألحان... وغدًا إذا ما كان في أي مكان في الدنيا، وسمع أغنية من هذا النوع، فسيعرف أن ثمة حربًا قد اندلعت في مصر!!

أدار موتور السيارة وانطلق، لم يكن يدري إلى أين، لكن قلبه دفعه إلى ميدان السيدة زينب... كان كلما سافر إلى الخارج، شعر بحنين طاغ إلى هذه الأحياء الشعبية... في الخارج، مع الإسرائيليين، كان يشعر بقيمة مصر وشعب مصر الذي هو فرد منه!

انحرفت السيارة يسارًا إلى شارع بورسعيد، كان الطريق خاليًا، والمارة قليلين، مضت بضع دقائق قبل أن تهل عليه أضواء الميدان الخافتة، هبت من نافذة السيارة نسمة ارتجف لها، كان البرد يشتد كلما أوغل الليل... ومثلما فعل في ميدان الحسين، توقف بالسيارة في ميدان السيدة زينب، جاءت وقفته أمام ذلك المحل الذي اشتهر بالكباب والكفتة والفتة ذات المذاق الخاص، لم يكن المحل مزدحمًا كالعادة، لكن رائحة الشواء تسللت إليه من الداخل، تمنى لو أنه كان راغبًا في الطعام، فكر في أن يعود إلى البيت ويأتي بفاطمة ثم يتناول معها العشاء الأخير، ولكن... لكن فكرة طرأت على باله مثل ومضة، مثل شرارة كهربية أصابته فدفعت يده إلى مفتاح الموتور فأداره، انطلق بالسيارة في الشوارع الخالية، ضغط بقدمه على مفتاح الوقود فاندفعت تطوي الطريق طيًا... وكانت بغيته أن يرى الأهرام، وأن يقف عند سفحها!!

كان موتور السيارة يزأر وهو يصعد إلى هضبة الأهرام، ما إن وصل إلى السفح حتى قاد السيارة إلى تلك الحافة التي عندها يستطيع الواقف

أن يشاهد القاهرة من أعلى... كان ثمة سيارتان أو ثلاث متناثرة في المكان، كما كان الظلام دامسًا، وأضواء القاهرة رغم الانتصار كانت لا تزال خافتة... غادر السيارة وتنفس عن صدره، سوف يشتاق إلى هذا العبير الخاص الذي يضمخ المكان عند سفح الأهرام، رفع عينيه إلى البناء الهائل وتعجب كيف استطاع الأجداد أن يقيموا هذا الصرح الذي يقاوم منذ آلاف السنين عوائد الزمن... داخلته سكينة غريبة، هم بأن يشعل سيجارة لكن نفسه عافت التدخين، استند إلى السيارة ورفع رأسه نحو السماء، فجأة، امتلأت عيناه بالدموع، وخرجت الكلمات من فمه خافتة مرتجفة:

«يا رب... أنا ماليش غير طلب واحد بس، لو رحت تل أبيب، مش حاروح علشان أتفسح ولا علشان أكسب قرشين وأنت أعلم بي مني... أنا رايح علشان بلدي... كل اللي أنا عاوزه، إني هناك أبقى زي الهرم ده، صامد وثابت، لا أهتز ولا أخاف!».

سقطت من عينه دمعة، وكانت حقيقية، ليست مثل دموع التماسيح تلك التي كان يذرفها أمام الإسرائيليين فيخدعهم!

عندما أدار المفتاح في باب مسكنه كانت فاطمة هناك تجلس أمام المدفأة في انتظاره، وكانت الساعة تدق الثالثة من صباح يوم السبت 2 من فبراير عام 1974.

رفعت رأسها إليه، لم تسأله أين كان فلقد تعودت منذ سنوات ألا تسأل لأنه لن يجيب، لكنه ما إن خطا إلى الداخل خطوة حتى هتفت وهي تتطلع إليه:

«مالك يا جمعة؟!».

مد يده إليها فسلمته يدها، قادها إلى غرفة النوم، أغلق الباب وأجلسها على حافة الفراش أمامه، قبل أن يفتح فمه بكلمة، عادت تهتف وقد انتابها القلق:

«إيه اللي بيك يا جمعة!».

مد يده إلى جيب سترته الداخلي وتحسس المظروف الذي كان قد أعده والذي لا يعلم بأمره سواه... هذه هي المرة الأولى التي يخفي فيها عن «الريس زكريا» شيئًا، منذ أن التقيا في القاهرة وهو يحكي له كل شيء، كل شيء، حتى أخص خصوصياته كان يحكيها بإسهاب، ولقد تعود أن يحكي، كما تعود أن يتلقى من الريس زكريا - قبل قيامه بأية رحلة من رحلاته تلك - وصاياه وتعليماته، والتي لولاها لما استطاع أن يستمر لخمس سنوات مضت، ولا يعلم إلا الله، كم عدد السنوات القادمة.

أخرج المظروف من جيبه وقدمه إلى فاطمة:

«شوفي يا بنت الناس، الظرف ده تاخديه ولا تفتحيهوش، وتخبيه في حتة ما يوصلهاش الجن الأزرق!».

«إيه الحكاية يا جمعة؟!».

«اسمعيني كويس من غير سؤال!».

«جمعة!».

«قدامك شهرين، إذا ما رجعتش بعد شهرين باليوم، افتحي الظرف حاتلاقي فيه كل حاجة عني، المهم إنك تنفذي اللي أنا كاتبه بالحرف الواحد!».

«أنت ناوي تغيب شهرين يا جمعة؟!».

«يمكن أهاجر كندا».

كان يراقب وجهها وهو يحكي لها قصة من تلك القصص التي تعود طوال خمس سنوات توليفها وحبكها وإقناع الغير بها... من تكون فاطمة في الذين صدقوا رواياته؟... حملق فيها وهو يتساءل بينه وبين نفسه، ما الذي ستفعله فاطمة لو عرفت من يكون؟

«أصل الشركة قالت لي إذا ما جبتش المرة دي ألفين سايح قدم استقالتك، وأنتي عارفة إن الحرب مخوفة السياح من البلد... فإذا ما قدرتش أجيب الألفين سايح حارجع البلد أعمل فيها إيه؟!».

كان لا بد أن تصدقه فهكذا تعودت منذ أن تزوجته، ومنذ حرب 1967 وهو يسافر إلى بلاد كثيرة لجلب السائحين لشركة أبو سمبل التي أنشأها... نظرت إليه طويلًا، وتاهت في ملامحه عيناها الضعيفتان... فخفق قلبه بالحنين... ولم يدر ماذا يقول أكثر مما قال. في هذا الخطاب كل شيء عنه، كل ما يملك من حطام الدنيا، وكل ما عليه من ديون، كل ما له، وكل ما عليه، كل شيء عدا الحقيقة... الحقيقة الوحيدة في حياته... أنه عميل مزدوج لجهازين من أعتى أجهزة المخابرات. جهازين تحتدم المباراة بينهما بلا هوادة... لم يكن في الخطاب وصية، ولكن كان فيه

ما هو أهم لزوجته وأمه ووليده القادم في الطريق... نهض إلى المسجل الموضوع بجوار الفراش وهو يقول:

«أنا مش عايز حد يعرف بالجواب ده أبدًا غيرك!».

راح يقلب في الأشرطة ولم يأته ردها فلقد كان يعرفه.

«اعملي لنا كباية شاي!!».

كان يتجنب النظر إليها، وكان يريد أن يتلهى عن أفكاره بشيء، باقٍ من الزمن ساعتان فلقد كان عليه أن يغادر البيت في الخامسة لكي يلحق بالطائرة، فتحت فاطمة دولاب الملابس ودست المظروف بينها، غادرت الغرفة وكان – لا يزال – يقلب في أشرطة الأغاني التي وضعت إلى جوار المسجل... اختار شريطًا وضعه في الجهاز فانبعث صوت عبد الحليم حافظ في إحدى أغنياته العاطفية، استلقى فوق الفراش وترك نفسه للصوت الرخيم، صاحبه صوت عبد الحليم في صباه وشبابه وحتى اليوم، كانت أغنياته رسائل غرام يبثها لفاطمة إذا ما اجتمعت العائلة وتعذر اللقاء، تتعلق عيناه بعينيها كلما بثت الإذاعة إحدى أغنياته وكأنها كتبت خصيصًا لهما... عادت فاطمة وكانت تحمل الصينية وفوقها كوبان من الشاي... وضعت الصينية جانبًا وجلست إلى جواره، همست في حنان:

«مش حاتاكل لك لقمة؟!».

«عاوز أقعد معاكي!».

تعودت منه إذا ما قال شيئًا ألا تراجعه فيه، امتدت يدها إلى يده، تدفق الحنان من قلبه مدرارًا فنهض جالسًا، نظر في عينيها مبتسمًا ثم قال:

«لو خلفتي ولد عاوزه يطلع ضابط!».

ردت على ابتسامته بابتسامة، وداعبته:

«أنا قلت لك حاخلف بنت!».

لم يعارض كما كان يفعل مداعبًا منذ أن عرف بخبر حملها، بل قال:

«لو جت بنت، عاوزها تطلع دكتورة!».

وكانت هذه هي وصيته، قالها لفاطمة ولم يكتبها، احتسى كوب الشاي، ثم احتسى فنجانًا من القهوة ودخن كثيرًا، مر الوقت كما يمر الريح، حانت الساعة فنهض، ضم فاطمة إليه، ضمها كما لم يضمها من قبل، وعندما قبلها بللت دموعها شفتيه!

الفصل الثاني

كان الطريق إلى المطار طويلًا وكانت برودة الجو تشتد لحظة بعد أخرى... وعندما اخترق التاكسي ضاحية مصر الجديدة واندفع في طريق صلاح سالم كانت البرودة تنفذ عبر المعطف الغالي الثمن الذي كان يرتديه إلى نخاع عظامه. وتذكر السويس، هناك نشأ وهناك ولد وهناك عاش... وعلى سطح مياه الخليج تقلب على القوارب واللنشات حتى أصبح مالكًا لقارب، وامتلأ القارب بالبضائع... باع للسفن واشترى منها، تاجر وبادل، وتحدث بأكثر من لغة... خليج السويس له رائحة لم يجدها في أي بحر في الدنيا، ولون مياهه لم يره في أية بقعة في العالم... البحر هو كل حياته، انطبعت به وتشكلت حسبما أراد لها موج الخليج، وأمواج الرزق... أصبح يسير على اليابسة كما يسير فوق القوارب، يتماوج في مشيته حتى اليوم كالسائر فوق سطح سفينة تتلاعب بها الأمواج، أما رأسه فكبير وشعره خشن، وعيناه شديدتا الضيق والضعف ككل أبناء السواحل... تعجبه من الألوان الزاهية والملعلعة، يعشق الطعام والشراب والنساء... لكنه يعشق المال أكثر.

ببساطة... المال هو سلاحه الوحيد في دنيا جاءها مجردًا من كل سلاح وأي سلاح.

وجاء يونيو 1967 بجحيم لم يعهده من قبل... تحولت سماء المدينة إلى لهيب، وأرضها إلى قرار بلا نهاية، سقطت قنبلة دمرت القارب وحولته إلى كتلة من الرماد والخشب المحترق. فر البعض من وجه الحرب ولكن إلى أين المفر وهو لا يعرف لحياته معنى إلا تقليب الرزق مع السفن والبحارة والقباطنة وحراس المواني وخفر السواحل... غير أن الحرب هذه المرة كانت تختلف عن سابقتها... ففي يوم 10 يونيو أعلنت الحكومة المصرية جميع سكان مدن القناة بالتهجير، ولم يكن هناك مفر... شد الرحال مغادرًا السويس إلى القاهرة، حمل معه كل ما ادخره من كد العمر وكدحه، ولم يجد سوى شقة في حي شعبي. استأجرها وكان تقديره أنه سيقيم في القاهرة شهرًا أو شهرين وربما طالت المدة إلى ثلاثة أشهر. لكن إقامته امتدت عامًا كاملًا. وكان المال قد بدأ ينفد فماذا يفعل؟

انتقل من مسكنه إلى مسكن أرخص... كان كل ما يحيط به يوحي بأن البعد عن السويس سيمتد لسنوات، بدأ عقله يعمل بحثًا عن لقمة العيش، ابتكر شركة سياحية سماها «أبو سمبل»، غير أن حركة السياحة في مصر بعد النكسة لم تكن تبشر بخير ولا مكسب، الأيام تمضي ولم يعد أمامه إلا أن يفعل ما يفعله اليهودي إذا ما أصابه الكساد... لكنه لم يقلب طويلًا في دفاتره القديمة... إن الخواجة «بناجاكوس» صاحب شركة بواخر «سفن سيز» - البحار السبعة - مدين له بسبعمائة جنيه إسترليني. كانت الشركة تمتلك سفينتين تعملان فيما بين السويس وجدة، وكان هو قد تعهد بتوريد الطعام والخضراوات واللحوم إلى

السفينتين، ولما قامت الحرب توقف كل شيء. فلم لا يطير إلى اليونان بحثًا عن ماله؟... وربما استطاع أن يجد لنفسه عملًا!

ما الذي كان يفعله طوال ذلك العام كي يكسب رزقه؟!

هو ليس من النوع الخامل الذي يجلس واضعًا كفه على خده في انتظار الفرج، بل كان من هذا النوع من الشباب الذي يلتقط الرزق أينما وجده، ولقد كان دائمًا ما يفخر بنفسه قائلًا: إنه يستطيع أن يحلب الهواء كي يدر عليه شهدًا ومالًا... تقلب جمعة الشوان في أكثر من عمل، وكان يكسب، نعم... لكن مكسبه - وفي مثل تلك الظروف التي كانت تمر بها البلاد بعد النكسة - كان ضئيلًا فتململ، لكنه تذرع بالصبر، صبر طويلًا، لكنْ للصبر حدود لم يكن يستطيع أن يتعداها، وكان لا بد له من البحث عن مصدر أوفر للرزق، وإذا كان الخواجة «بناجاكوس» مدينًا له بمثل هذا المبلغ من المال، وإذا استطاع أن يحصل عليه أو حتى على جزء منه، فإنه يستطيع ببساطة - أن يقلب القرشين في السوق، أن يفتح محلًا للبقالة، أو حتى كشكًا لبيع الدخان والجرائد، وأن يجد لنفسه منفذًا إلى ربح أوفر!

عندما عرض الأمر على فاطمة، سألته:

«وإذا الخواجة ما إداكش الفلوس؟!».

كان هذا احتمالًا ورد على ذهنه وإن كان قد استبعده، رد قائلًا وهو يزفر:

«يبقى أشتغل في البحر؟!».

نعم... لماذا لا يعمل في البحر وهو من أبنائه، إن للعمل في البحر مخارج ودهاليز وطرقات يعرفها جيدًا، بل يتقن السير فيها... فالسويس مثل مارسيليا، ومارسيليا مثل جنوا، وجنوا مثل ليفربول، فالموانئ واحدة في كل بقاع الأرض، وسبل العيش عديدة.

غير أنه عندما قرر السفر، كان لا بد أن يناقش الأمر، لا مع فاطمة وحدها، وإنما مع أمه أيضًا، ثم... وهذا هو الأهم، مع شقيقه الأصغر مصطفى!

«أسافر يا مصطفى؟!».

«سافر يا جمعة!».

نظر إلى مصطفى نظرة أدرك هذا معناها فهتف:

«جرى إيه يا جدع، اتوكل على الله دول في رقبتي!!».

وتوكل جمعة بالفعل على الله... وسافر إلى أثينا!!

عندما وصل إلى أثينا لم يكن الخواجة بناجاكوس هناك، سأل عنه في شركة «سفن سيز» فقالوا له إنه الآن في ألمانيا، ولما استفسر عن موعد عودته، جاءه الرد بأن الموعد غير معروف... ولم يكن أمامه سوى التسكع، والفرجة و... والانتظار!

في تلك الأيام، كان الشباب من أهل مصر قد وجدوا خلاصهم من الهزيمة في السفر، كأنها روح جماعية تلك التي دفعتهم إلى محاولة التعرف على ذلك العالم خارج الحدود، سافر الشباب إلى أغلب بلدان

أوربا، سافروا إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وإنجلترا وإسبانيا و... وإلى اليونان أيضًا!

وفي أثينا، التقى جمعة بعشرات من الشباب الذين كانوا يعملون في كل الأعمال وبأرخص الأسعار... كما التقى في ذلك المقهى القائم في ميدان «أمونيا» - وهو الميدان الشعبي في أثينا - بعشرات منهم كانوا يجلسون في انتظار الفرج دون أن يأتي الفرج، حتى إذا ما خطر للشاب من هؤلاء أن يعود إلى الوطن، اكتشف أنه لا يملك ثمن تذكرة العودة، وهكذا... تفننوا في الهرب من الشرطة اليونانية التي كانت - في تلك الأيام السوداء - تطارد هؤلاء الذين انتهت مدة إقامتهم... رأى جمعة في ذلك المقهى ما لم يخطر له على بال... غير أنه التقى في ذلك المقهى أيضًا بالريس زكريا!

كانت الأيام تفر فرارًا وهو في انتظار الخواجة بناجاكوس، اكتمل أسبوع وأسبوعان وثلاثة أسابيع ونفد ماله، لكن الأمل في عودة الخواجة لم تنطفئ جذوته في صدره... حتى جاء عليه يوم لم يكن يملك فيه ثمن وجبة طعام، فبات ليلته تلك، وكان ينام عند مجموعة من الشباب المصري استأجروا غرفة في إحدى البنايات، على الطوى... حتى إذا ما طلع النهار، سعى إلى شركة «سفن سيز» كي يسأل عن الخواجة بناجاكوس، وجاءه الرد هذه المرة، مثل كل مرة، لم يعد الخواجة بعد!!

كان الجوع يعتصر أمعاءه، سار في شوارع أثينا على غير هدى، حملته قدماه - بطبيعة الحال إلى ميدان أمونيا... دلف إلى المقهى وكان ثمة مجموعة من الشباب يلعبون الطاولة، كان الرأي قد استقر به أن يبيع

ساعته لكي يأكل بثمنها، ولكن من من هؤلاء يملك ثمن الساعة... حانت منه نظرة إلى ركن المقهى فتسمرت عيناه على الريس زكريا... كان يجلس وحده وهو يلتهم طعام إفطاره في شهية، وقد أمسك في يده جريدة مصرية استغرق في قراءتها، سال لعاب جمعة واقترب منه.

«صباح الخير يا ريس زكريا!».

كان قد تعرف عليه بعد وصوله إلى أثينا بأيام في نفس المقهى، وكان قد جلس إليه وقص عليه قصته، فسخر منه الريس زكريا وسأله ضاحكًا:

«حتى لو رجع الخواجة بناجاكوس، تفتكر أنه حايديك فلوسك؟!».

«ليه لأ؟!».

«معاك إيصال بالمبلغ؟!».

«البحر مافيهوش إيصالات يا ريس زكريا!».

«ابقى تعالى قابلني!».

كم تضايق جمعة يومها، وكم ضاق بالريس زكريا، فسأله:

«إلا قول لي يا ريس زكريا، أنت عاوزك تكسر مجاديفي ليه؟!».

«بالعكس يا جمعة، أنا عاوزك تجدف بيها في السكة الصح!».

يومها تركه جمعة ومضى إلى حاله، ولقد كان الريس زكريا من هذا النوع من الشباب الواثق من نفسه ثقة بلا حدود، كان يرتدي ملابس عادية ككل شاب في مثل عمره، لكنه كان يعرف كيف يقتنص الأعمال والوظائف، فلم يسمعه أحد مرة يشكو من بطالة... وكان جمعة كلما

جلس إليه، سمع منه، بأسلوب أو بآخر، نفس الحديث الذي يطالبه بألا يعول على بناجاكوس كثيرًا، وأن يفكر في العودة إلى الوطن!

ذات مرة سأله:

«طب أنت ما بترجعش مصر ليه؟!».

«أنا مش قاعد مستني خواجة ليه عنده قرشين».

هم جمعة بالرد فأضاف زكريا في حنان:

«أنا باشتغل يا جمعة، وفوق كده وكده، أنا مطلوب في السوق!».

وها هو يجلس إليه تتلوى أمعاؤه من الجوع بينما زكريا يلتهم إفطاره التهامًا، مال عليه في لحظة وسأله:

«إلا الجرنان ده مصري؟!».

لم يرد زكريا عليه، فقط، رفع رأسه إليه وقد كف عن مضغ الطعام... أدرك جمعة أن سؤاله كان بلا معنى فالجريدة تصرخ بمصريتها حتى للذين لا يجيدون القراءة والكتابة... أصابه الحرج وهم بالانصراف غير أن زكريا فاجأه بسؤال:

«أنت فطرت يا جمعة؟!».

غص حلق جمعة، لكنه لم يجد بدًّا من الإجابة:

«ولا اتعشيت!».

ألقى زكريا بالجريدة جانبًا، ووضع ما تبقى من طعامه فوق المائدة، ونهض قائلًا:

«اطلب لنا اثنين شاي على ما أرجع لك!».

لكن جمعة لم يطلب الشاي، كان الريس زكريا قد تركه وغادر المقهى واختفى، فما الذي سوف يحدث لو أنه خرج ولم يعد، من أين له بثمن كوبي الشاي وهو لا يملك ثمن لقمة يتبلغ بها!!

لم يغب زكريا طويلًا وإن بدت الدقائق التي غابها مثل دهور بلا نهاية، عاد يحمل في يده لفافة كبيرة مليئة بالسندوتشات، قدمها إلى جمعة متسائلًا:

«طلبت الشاي؟!!».

«لأ!».

قالها جمعة وفمه مليء بالطعام.

«ليه؟!».

«خفت تخرج ولا ترجعش».

انفجر زكريا ضاحكًا وهو يصفق مناديًا الجرسون طالبًا كوبين من الشاي!

أكل جمعة حتى امتلأ، جاء الشاي فلم يجد حرجًا في أن يطلب من الريس زكريا سيجارة، راحا يدردشان معًا وكان أمرًا طبيعيًّا أن يتحدثا عن بناجاكوس... هتف جمعة متشبثًا بموقفه:

«يا ريس زكريا إحنا في البحر بنتعامل بكلمة شرف!».

«طب مانا عارف!».

«ليه الراجل بقى ما يدينيش حقي!!».

اعتدل الريس زكريا قائلًا:

«زمان، قبل ما يحصل اللي حصل وتتقفل القناة، كان بيديك حقك لأنه كان محتاج لك، المراكب بتاعته رايحة جاية عليك... إنما دلوقت، هو محتاج لك في إيه؟!».

«انت برضه عاوز تكسر مجاديفي!».

أطلت من عيني زكريا نظرة عتاب فهتف به جمعة:

«ما هو أنا مش ماشي من أثينا إلا لما الراجل ده يوصل!».

ظلت نظرة العتاب تطل من عيني زكريا، خلع جمعة ساعة يده وقدمها له.

«إيه يا جمعة؟!».

«أنا عاوز تشتري دي مني!».

«حاتبيع ساعتك؟!».

«النهارده أنا لقيتك وفطرتني، تقدر تقول لي مين حايغديني؟!».

مد زكريا يده في جيبه وقد بدا عليه الضيق:

«عاوز كام يا جمعة!».

«شوفها تساوي كام؟!»

«أنا مش باتكلم عن الساعة، أنت محتاج كام؟!».

هتف جمعة معترضًا:

«لا يا ريس زكريا!».

«إيه مالك؟!».

«يا تشتري الساعة يا أدور على حد غيرك يشتريها!».

في حنان غريب سأله زكريا:

«برضه مش عاوز تسمع كلامي يا جمعة؟!».

هتف جمعة في ضيق:

«يا ريس زكريا...... ... ».

رفع زكريا يده أمام وجه جمعة فلزم هذا الصمت، تناول منه الساعة ونقده ثمنها ثم نهض تاركًا إياه في حيرة من أمره... مضت الأيام وتلاشى ثمن الساعة رغم تقتير جمعة على نفسه، كان شبح الجوع يطارد جمعة في كل يوم وهو يقطع الشوارع على قدميه إلى حيث شركة «سفن سيز» سائلًا عن الخواجة بناجاكوس لكي يأتيه الرد في كل مرة ككل مرة... حتى إذا كان صباح دخل الشركة ورأته السكرتيرة فهتفت به:

«مستر شوان، صباح الخير!».

دخل جمعة وراح يتلفت حوله غير مصدق أنها - بهذا الترحاب - تلقاه.

«هل عاد المستر بناجاكوس؟!».

نهضت مثل غزال يتأود ودلفت إلى غرفة بناجاكوس، كان قوامها رائعًا فتذكر أيامًا كان يملك فيها ما يغذي ثقته بنفسه فيغازل ويداعب...

ما هي إلا ثوانٍ حتى عادت السكرتيرة طالبة منه الدخول... دخل جمعة وكان بناجاكوس يقف في منتصف مكتبه مرحبًا به!

كان الخواجة بناجاكوس طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجثة غليظ الصوت، كما كان صريحًا كل الصراحة، واضحًا كل الوضوح... استقبل جمعة بترحاب لا شك فيه. طلب له فنجانًا من القهوة وراح يدير معه الحديث بالعربية التي كان يتقنها، تذاكرا معًا تلك الأيام التي تعاملا فيها في السويس، حتى إذا ما عرج جمعة على موضوع الدين هتف بناجاكوس بلا تردد:

«جمعة خبيبي... إنت تعرف كويس أن مركب بتاع أنا غرق في كنال السويس، مضبوط؟!... ».

«مضبوط يا خواجة!».

«وطبعًا أنت عارف أن دي ملايين!».

«يا خواجة...... ».

قاطعه بناجاكوس:

«بلاش تتكلم في موضوع ده علشان أنا موس عاوز أزعل من إنت!».

«وبعدين يا خواجة، أنا محتاج لفلوس!».

«وبعدين جمعة؟!».

أدرك جمعة بسرعة أن لا أمل فلقد كشر الرجل عن أنيابه، وهو لا يملك ما يثبت مثل هذا الدين، فتعلق بقشة لعلها تعينه على السباحة، قال:

«طب شوف لو شغلانة عندك!».

انفرجت أسارير بناجاكوس فتنفس جمعة الصعداء:

«إذا كان كده على العين بتاع أنا والراس كمان!».

«في أتينا؟!».

ولم يكن العمل الذي عرضه بناجاكوس على جمعة في أثينا، بل كان على سفينة يملكها الرجل، ولم تكن السفينة في المياه اليونانية، بل كانت ترسو - في ذلك الوقت - في شمال أوربا، في «قناة كيل»... ولقد قال له بناجاكوس إنه يستطيع أن يلحق بها في الغد قبل أن ترحل إلى بريطانيا، وافق جمعة فطلب منه بناجاكوس جواز سفره، وفي صباح اليوم التالي استقل جمعة الطائرة إلى ألمانيا، بدا له الأمر مثل حلم غريب، في المساء كان يصعد سلم السفينة لكي يقدم نفسه للربان وكانت برقية من بناجاكوس قد سبقته... وبعد ساعات من وصول جمعة، كانت السفينة تمخر عباب البحر نحو بريطانيا، التي كانت في يوم من الأيام، عظمى!!

توقف التاكسي في مطار القاهرة الدولي فغادره. كانت الساعة قد جاوزت الخامسة والنصف بقليل وكان ضوء النهار قد بدأ يغزو امتداد الصحراء عندما لاحظ واحد من رجال المطار ذلك الشاب الذي يتماوج في مشيته وهو يتجه بحقيبته نحو شركة «أليتاليا». كان يرتدي هذه المرة بذلة كحلية وقبعة زرقاء غالية الثمن، وكان يحمل في يمناه حقيبة سمسونايت ومظلة أنيقة، وعلى يسراه، يرقد المعطف الأزرق الثمين، أما رباط العنق فكان صارخ اللون، أبيض لامعًا، تتموج فوقه خطوط حمراء قانية.

قلب رجل المطار شفتيه ضيقًا وحيرة، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها الشوان مسافرًا أو قادمًا من سفر، جواز سفره يقول إنه مدير شركة سياحية وهي وظيفة بالقطع وهمية. لكنه لم يكن مهربًا، فلقد أسفر التفتيش الدقيق في كل مرة سافر فيها أو عاد أنه لا يحمل شيئًا ممنوعًا على الإطلاق، وهو لم يكن كذلك تاجر شنطة... فمن يكون؟!!

انتهت إجراءات الشوان مع شركة الطيران فتقدم من الطابور الواقف أمام ضابط الجوازات واتخذ لنفسه مكانًا... كان أمامه بضعة أشخاص فسرح ببصره في المكان لكنه لم يلحظ أحدًا... سبقه الريس زكريا إلى روما وربما طار إليها بالأمس أو أول أمس لا يدري، غير أن الذي يدريه عن يقين أنه سيجده هناك، دائمًا يجده هناك حيثما حل. وأينما هبط... ترى... هل تكون هذه المرة الأخيرة؟ هل اكتشف الإسرائيليون أمره؟!

وإن كان الإسرائيليون قد اكتشفوا أمره فما الذي سيفعلونه معه؟ قال له الريس زكريا:

«مش حاتلقى ولا واحد من الطقم اللي اشتغل معاك قبل كده»...

معنى هذا أنه لن يجد بالفعل أحدًا من ضباط المخابرات الإسرائيلية الذين عرفهم طوال السنوات الخمس الماضية... إن الريس زكريا إذا ما تنبأ بشيء فدائمًا ما تتحقق تلك التنبؤات خاصة إذا ما دارت حول الإسرائيليين... غير أن معنى هذا أن عليه أن يتغير وألا يتغير، أن يظل كما كان وألا يصبح كما كان... حسبة وتضريبة لا يعرفها سواه، سر الأسرار وقدس الأقداس الذي ينجيه من حقل الألغام هذا الذي يرقص فيه منذ خمس سنوات.

«الباسبور يا سيد!!».

أفاق على نداء ضابط الجوازات المصري فأرتج عليه. كان يقدم الباسبور بيسراه التي تحمل المعطف فيمناه تحمل الحقيبة والشمسية «بتقولي أنا يا بيه؟».

لكن ضابط الجوازات حسم الأمر. حجز الجواز وقال:

«استنى أنت شوية».

تنحى عن مكانه ووقف ينتظر مطيعًا. هكذا قدر عليه أن يقف منذ أن التقى بجوجو... وحده. دائمًا وحده!

حديثه مع نفسه حوار دائم لا يكف... معارك واشتباك ومصالحة وخصام!

فهو وهو ولا ثالث معه... وعندما أبحرت به السفينة «أرتا» من قناة كيل إلى بريستول لانكشاير فى غرب إنجلترا لم يكن جمعة الشوان يملك سوى عشرة دولارات... وكان يرتدي حذاء من الكاوتشوك بعد أن اضطر في أثينا أن يبيع حذاءه بعد أن باع ساعة يده... قطعت السفينة الطريق من بحر الشمال إلى المانش، ثم صعدت شمالًا بحذاء الشاطئ الغربي لإنجلترا حتى وصلت إلى بريستول... قطعت الطريق في ثلاثة أيام وبعض يوم... وعندما رست أراد مغادرة السفينة إلى الشاطئ... فإذا كان رجل البحر يعشق البحر فهو يعشق لذات الشاطئ أكثر... لكن القبطان رفض أن يقرضه من مرتبه. وهنا... تقدم ديموس كي يقرضه ما يحتاج إليه!!

كان ديموس بحارًا يونانيًّا، وكان – منذ أن صعد جمعة إلى سطح السفينة – يتقرب منه ويتودد إليه، قال له إنه ولد في الإسكندرية وعاش فيها سنوات، وكان طبيعيًّا أن يجد جمعة في ديموس أنيسًا لوحدته التي كانت وطأتها تشتد عليه يومًا بعد آخر!

في بريستول لانكشير أقرضه ديموس خمسة جنيهات، وكان طبيعيًّا أن يغادرا السفينة معًا، وأن يجوبا أنحاء المدينة معًا!

كان أول ما فعله الشوان عندما نزل إلى الميناء أن ركب أتوبيسًا، لا لشيء إلا لكي يصعد إلى الدور الثاني منه، وأن يتمتع برحلة في الأتوبيس «أبو دورين» الذي لا يراه الناس إلا في بلاد الإنجليز أو الهند... وفي كل موانئ الدنيا، ومهما ذرعت الميناء من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، فلسوف تجد في كل شارع، وكل حارة، وربما كل زقاق حانة، وكانت الحانة التي وقع عليها اختيار جمعة الشوان وديموس، تحمل اسم «كافيه ستار»... وهي حانة من تلك الحانات شديدة التواضع... حانة من ذلك النوع المشبع برطوبة البحر ورائحة التبغ والخبز والخمر القوية، لم يكن الجو باردًا عندما دلف الصديقان إلى داخل الحانة وجلسا إلى مائدة وطلبا مشروبين!!

رشف الشوان من كأسه ولعق شفتيه وراح يتطلع إلى البنش الممتد بطول المكان والرجال الذين جلسوا إليه أو وقفوا حوله وهم يشربون ويثرثرون... وكان البارمان يروح ويجيء وينظف الكئوس ويلبي الطلبات ولا يكف عن الحركة حتى ولو لم يكن هناك ما يفعله... الموائد، والبحارة وبنات الليل، والأصباغ، وعلى مستوى أعلى تجلس

الفرقة الموسيقية التي كانت تعزف أي كلام لمغن مسلوخ الصوت كان يصرصع في المكان... وفي مثل هذه الأماكن من الدنيا، تعود البحارة أن يتركوا ذواتهم خارج الباب، إنهم يدخلون إلى هنا مشبعين بالرغبة في الخلاص والغوص إلى أعماق اللذة أينما كانت أيًا ما كان شكلها ومذاقها... في مثل هذه الأماكن من الدنيا، يختلط الحابل بالنابل. والموسيقى بغناء السكارى بشجار المشاغبين بضحكات بائعات الهوى بهمهمة الذين لم يجدوا من يتحدثون إليه فانفردوا يتحدثون إلى أنفسهم. في مثل هذه الأماكن من الدنيا قد يلتقي بك صديق لم تره في حياتك كلها سوى مرة واحدة منذ سنوات طويلة في حانة ما... في ميناء ما... في إحدى قارات الدنيا الخمس، فإذا أنتما تتصافحان بحرارة، وإذا أنتما تشربان نخب الصداقة التي لا تفتر وإذا أنتما تقضيان ليلة هادئة أو ليلة صاخبة ثم تفترقان بعد ذلك على لقاء قد يكون في اليوم التالي، وقد يكون بعد عشر سنوات... وقد لا يكون أبدًا.

في مثل هذه الأماكن من الدنيا قد يجلس إلى مائدتك بحار لا يعرف لغتك ولا تعرف لغته ولا تعرفان لغة مشتركة. وبلا مقدمات سوف تتجاذبان أطراف الحديث، سوف يحكي لك عن زوجته وطفله، وسوف تحكي له عن أمك وحبيبتك... وقد تحكي له عن مدينتك القابعة عند رأس خليج صاخب المياه وقد هجرها أهلها وخلت بيوتها وشوارعها وتوقفت الحركة في مينائها... ولسوف يمتد الحديث وتتوالى الكئوس وينفتح القلب فلا زمان ولا مكان ولا جنسية ولا لغة... هذا بالضبط ما خيل لجمعة الشوان أنه قد حدث عندما جلس إليه ذلك الزنجي الخفيف الحركة ذو الوجه الباهت والعينين الذكيتين.

«هاي يا صديقي!».

«أهلًا».

«من أين؟!».

«من مصر!!».

نظر الزنجي إلى «ديموس» وقال:

«وأنت؟!».

رد ديموس:

«يوناني».

جلس الزنجي على مقعد ومد ساقيه على مقعد آخر وسكب في حلقه ما تبقى من كأس كانت في يده... راح جمعة يتطلع إليه من خلف عدسات نظارته الشديدة السمك التي كان يرتديها في تلك الأيام قبل أن يشتري عدسات لاصقة لعينيه... كان الرجل زنجيًا لكنه لم يكن أسود، وهو لم يكن أسمر اللون أيضًا... كان لونه باهتًا وشعره قصيرًا وفي الجلد صفرة لا تبين للعين لكنها تخترق الإحساس فتؤذيه.

كان الشوان قد اتفق مع «ديموس» ألا يشربا سوى مشروب واحد... وعندما طلب لهما الزنجي كأسين أخريين صاح فيه جمعة:

«لقد شربنا كأسًا وهذا يكفي!».

لوح الزنجي بذراعه في استهانة وهو يقول:

«لا عليك يا رجل... فأنا أدعوك!!».

وهكذا بدأت الليلة... وهكذا بدأ جمعة يحكي قصته:

من السويس هو. مهاجر أو مُهَجّر... هائم على وجهه يبحث عن عمل، مدير شركة سياحية ومتعهد توريد أطعمة ولوازم السفن. تاجر وفهلوي وذكي وبحار وها هو الكارت الذي يحمل اسمه وعنوانه ورقم تليفونه ورقم صندوق بريده... كلها. كلها في السويس.

لم يلحظ جمعة الشوان أي شيء غريب في الزنجي الذي طرقع بأصابعه طالبًا مشروبين آخرين، بل انطلق يقص ويحكي فلقد أبدى الرجل اهتمامًا بالغًا به... ولقد رسم الخطة في رأسه منذ زمن، فلو رست السفينة في إحدى موانئ السويد أو أمريكا فلسوف يغادرها إلى الشاطئ، ففي هذين البلدين يستطيع أن يقلب عيشه وأن يشق طريقه... اعتدل الزنجي ومال فوق المائدة وصاح:

«وما رأيك لو أنني وجدت لك عملًا في إنجلترا أيها الفتى؟».

«أين؟».

«في ليفربول».

وافق جمعة الشوان على الفور شريطة أن يكون العمل مناسبًا... نهض الزنجي مودعًا وكان على موعد معه في اليوم التالي في السادسة مساءً. لكن الزنجي لم يأت في الموعد... التي جاءت كانت جوجو!!

■ ■ ■

انتهى الطابور وناداه ضابط الجوازات في مطار القاهرة الدولي... تناول جواز سفره ونظر فيه ثم نظر إلى جمعة وقال:

«الباسبور دا مش بتاعك!!».

من حق ضابط الجوازات أن يفعل به الآن ما يشاء. ولقد كانت صورته في الجواز بتلك النظارة السميكة. لم يكن قد وضع العدسات اللاصقة التي تجعل منظر العين طبيعيًا... ابتسم وأخرج بطاقته الشخصية وقال لضابط الجوازات إنه يضع الآن عدسات لاصقة بدلًا من تلك النظارة التي تحملها صورته في جواز السفر!

وعندما تسلم الجواز مختومًا تنفس الصعداء وأحس بسعادة غامرة فتساءل:

«هل يسعده أنه ذاهب ليموت؟»

كانت الساعة قد بلغت السادسة والنصف صباحًا وما زال أمامه متسع من الوقت فراح يتسكع في السوق الحرة... اشترى ما يحتاج إليه من السجائر، هو يعلم أن أسعار السوق الحرة في مطار القاهرة الدولي أرخص منها في أي مطار في الدنيا... إن الإسرائيليين ينفقون عليه بسخاء حقًا. ومنذ أن يضع قدمه في أوربا حتى يعود لا يدفع قرشًا ثمنًا لشيء. في أفخر الفنادق وأغلاها كان ينزل، أفخر الطعام وأرقاه كان يأكل، أفخر أنواع الخمور كان يشرب، لكنه هذه المرة يريد أن يبتاع سجائره بنفسه... يريد أن... يريد أن... يريد أن...

الغريب في الأمر. وبعد أن عرف اللعبة كلها. أنه ما زال يشعر بالشفقة على جوجو!!!

ومنذ اللحظة الأولى التي رآها فيها كان يتساءل: هل بلغ به الجمال هذا الحد الذي يجعل فتاة مثل «جوجو» ابنة لرجل يملك الملايين كما

تملك هي السلطة في حانات المدينة ونواديها السرية والعلنية وعند تجار المخدرات والمهربات... هل بلغ به الجمال رغم «الجزمة الكاوتش» في عز الشتاء والبرد... رغم الملابس المتواضعة... هل بلغ به الجمال حدًّا يجعل «جوجو» تقع في غرامه؟!!

المسألة منذ البداية كانت تبدو له غريبة ولكن: «يوضع سره في أضعف خلقه»... فكم من عجائب الدنيا والقصص والحكايات سمع.

دقت ساعة «بج بن» على شاطئ التيمس في لندن السادسة مساءً، وكان جمعة على بعد مئات الأميال يجلس في الحانة ومعه «ديموس» في انتظار وأمل. ولو تحقق له ما يريد فلسوف تكون هذه ضربة العمر... طلبا مشروبين وراحت عقارب الساعة تتحرك سابحة فوق الدقائق... السادسة والربع، والنصف، السابعة... وكلما مضت دقيقة أحس أن أحلامه تتبدد، لم يأت الزنجي، ولكن جاء الجرسون ليضع أمامهما كأسين!!

فزع جمعة... أزاح الكأسين وهتف بالرجل:

«نحن لم نطلب شيئًا».

قال الرجل وهو يومئ برأسه نحو مائدة في ركن المكان:

والتفت جمعة كي يجد فتاتين «جوجو وماري»، وكانت هذه الإنجليزية القصيرة الشعر المتوثبة بالحيوية... هي البداية.

الفصل الثالث

مضى نصف ساعة وهو يتسكع في صالة الترانزيت بمطار القاهرة الدولي... ذهب إلى الكافيتريا فقذفت العاملة النحيلة بكوب الشاي أمامه في قرف... كاد يدفع الثمن ويمضي دون أن يشرب الشاي ولكنه آثر أن يرشف رشفة أو رشفتين... كان الشاي دافئًا والجو باردًا... وكان في حاجة إلى وقفة طبيعية يستطيع خلالها أن يرقب ما حوله جيدًا.

هكذا تعود منذ زمان طويل. المكان المتسع والمقاعد المتراصة والسوق الحرة والركاب ولحظات الانتظار قبل ركوب الطائرة... ولقد تعود - بينه وبين نفسه - أن يراقب كل المحيطين به... كان يشعر دائمًا أن ثمة عيونًا ترقبه من طرف خفي... حتى لو كان في غرفة مغلقة الباب والنوافذ مسدلة الستائر كان يشعر بوقع العيون على جسده، عيون خفية لا يعرف من أين تنبعث وإلى أين ترسل نظراتها!!

راح يستغرق النظر إلى الرجل البدين الجالس في الاستراحة كتمثال لقسيس في أحد شوارع روما... ولقد تعود أن يرى القسيس في أوربا واحدًا من اثنين، إما سمينًا مكتنزًا، وإما نحيلًا شاحبًا... وهذا الرجل لا ينظر إليه أبدًا. وهو لم يضبطه متلبسًا بنظرة. ولكنه، بيقين لا يقبل الشك كان يعرف أنه هنا في هذا المكان وفي هذه الساعة... لكي يراقبه

ولكي يحميه كما يقول المصريون والإسرائيليون على السواء... هؤلاء يحبونه من أجل مصر، وأولئك يراقبونه من أجل العدوان على مصر... هذا الرجل البدين قد يركب معه الطائرة فيشعر على الفور أنه سيحمله فوق كتفيه من القاهرة إلى روما... وقد لا يركب وسيصبح عليه ساعتها أن يبحث بين الركاب والمضيفات والطيارين عمن سيحمله على كتفيه طوال الطريق... ورغم هذا فلم تكن هذه بالنسبة إليه هي المشكلة.

لم يكن يعنيه أن يراقبه أحد. فلقد تعود على هذا الإحساس لدرجة أنه عندما شعر ذات يوم أنه غير مراقب أحس بالبرد. أحس أنه يقف عاريًا. المشكلة الآن هي أنه إذا ما قالت له قرون استشعاره إن هناك من يراقبه كان عليه أن يعرف من هم الذين يراقبونه، لحساب من يعمل هذا الرجل أو هذه الفتاة أو حتى هذا المقعد...

لحساب هؤلاء أم لحساب أولئك؟

راهن نفسه ثم عدل عن الرهان... المصريون يعرفون بالقطع أنه مسافر اليوم... سبقه «الريس زكريا» إلى روما وسيلتقي به هناك، تحت أعين المخابرات الإسرائيلية كان يلتقي بالريس زكريا في أية مدينة أوربية. كما كان يتلذذ عندما يتلذذ باللعبة ويشعر بالسعادة كلما أتقنها... فمَنْ مِنْ هؤلاء من أعوان «الريس زكريا»؟!!

الإسرائيليون ينتظرونه الآن... لقد أرسل لهم برقية بالتاريخ وموعد الطائرة وساعة الوصول، ومن يدريه أنهم أرسلوا له من يضعه تحت مجهرهم حتى يصل إلى أيديهم.

أراد فنجانًا من القهوة وكان عليه أن ينتظر عاملة الكافتيريا النحيلة حتى تنتهي من وصلة عراك حاد مع زميل لها. كانت تتهم زميلها بالسرقة وتهدده بأنها لن تترك حقها أبدًا... مشهد لا تراه العين في أي مطار في العالم إلا في مطار القاهرة... وفي كل المطارات التي دخلها كان يرى الحسان قد انتقين بعناية فائقة... الواحدة منهن تبدو كأنها ولدت كي تبتسم...

ولقد تغير طعم المرأة لديه منذ أن التقى بجوجو...

جوجو كانت حلمًا تبدد قبل أن يكتمل... كانت... كانت مثل مطرقة دقت رأسه... فأفاق أو... أو أغمي عليه...

■ ■ ■

كانت جوجو صغيرة السن في العشرين من عمرها، لها وجه إنجليزي فيه مسحة من جمال... قصيرة الشعر كصبي، تتراقص دائمًا بالحيوية والرغبة... لها عينان صغيرتان، تلمعان أحيانًا فتبدوان في مثل زرقة مياه المحيط العميقة... وتخبوان غالبًا فإذا هما قطعتان من زجاج رخيص... مضت خمس سنوات منذ رآها ومنذ افترق عنها في تلك الليلة في الحانة في ميناء بريستول لانكشير... كانت تجلس مع ماري كما كان هو يجلس مع «ديموس» اليوناني في انتظار الزنجي الذي يئس من حضوره... كانت جوجو في تلك الليلة ترتدي ميكروجيب بني اللون يكشف عن ساقين أبدع الخالق في تكوينهما وعلى كتفيها كانت تضع جاكيت من نفس لون الجيب، أما ماري فكانت بدينة، خفيفة الظل، لا تكف عن الضحك، لها وجه مستدير ومعدة لا تعرف الشبع!!.

رغم «ملابسه الرثة» والمظهر المتواضع والمشروب اليتيم الذي لم يطلب غيره... رفعت جوجو كأسها تحييه... فابتسم الشوان مشيرًا إلى نفسه غير مصدق وهمس بالإنجليزية:

«أنا؟!».

هزت الفتاة رأسها فقبل الكأس التي وضعها الجرسون أمامه، ورفعها تحية كما رفع «ديموس» كأسه بلا تردد وشرب الأربعة على البعد «نخبًا مجهولًا»...

وعندما اقترض من «ديموس» الجنيهات الخمسة قبل أن يغادر السفينة اتفقا على أن يكونا صديقي بحر، يخرجان للخير والشر معًا، لم يتحدثا في الموضوع وإن كان الاتفاق قد أبرم بينهما باقتضاب شديد... وبعد الكأس تبادل الأربعة الإشارات وانتقل جمعة الشوان مع صديقه اليوناني إلى مائدة الفتاتين... وحتى هذه اللحظة كان الشوان موقنًا أن الإعجاب أصلًا كان موجهًا إلى ديموس غير أن المفاجأة جاءت عندما قالت البدينة:

«أتعرف أن جوجو معجبة بك أيها الفتى؟!».

هتف مشيرًا بسبابته إلى صدره فلقد كان من الأهمية بمكان، أن يقطع الشك باليقين، وعندما أصبح كل شيء واضحًا وضوح الشمس في يوم قائظ، تبادل مع ديموس نظرة كانت بمثابة طلقة السباق... لقد أذهلته المفاجأة حقًّا، لكنها أسعدته سعادة بالغة... وغمرت ملامحه ابتسامة راضية وبرقت عيناه بالرغبة، وزغردت كل غرائزه دفعة واحدة...

ولقد كان من الممكن أن يصدق أن جوجو قد وقعت في غرامه، لكنه لم يكن على استعداد لأن ينفق الجنيهات الخمسة التي اقترضها... ولذلك فعندما أمرت جوجو بأربع كئوس جديدة، طرد النشوة عن نفسه طردًا... كان لا بد أن يضع النقاط تمامًا فوق الحروف فقال:

«قبل أن تطلبي شيئًا يا فتاتي أحب أن أخبرك أننا لا نملك سوى ثمن المشروب الذي احتسيناه!».

وصاحت البدينة بشفتين ككرتين من الزبد:

«أتعرف من تكون جوجو أيها الفتى؟».

التفت جمعة إلى ماري وابتسم:

«من تكون؟».

«إنها ابنة مستر ديفز!!».

هز رأسه كالعارف وهو لا يعرف وأوضحت ماري:

«إن أباها مليونير!».

«يا سلام!».

قالها بالعربية فلم تعره ماري التفاتًا وأكملت في حماس:

«إنه يملك مصانع ضخمة!!».

«مصانع؟».

«إنه أغنى رجل في مانشيستر!!».

«طيب وأنتِ تبقي مين؟».

قالها بالعربية أيضًا فلقد اختلطت عليه الأمور، غير أنه كان يشير نحو صدر البدينة الهائل. فقالت وقد فهمت إشارته:

«إنني أملك أربعة محلات للملابس في هذه المدينة!!».

رفع حاجبيه دهشة وأطلت من خلف نظارته السميكة نظرة شك.

فأردفت ماري:

«سوف أريك إياها!!».

وعندما شرب الكأس الثانية كان على استعداد لأن يصدق أشياء كثيرة... مع الكئوس سرى الدفء في الأوصال وانتعشت النفس، النظرات واللمسات ثم قبلات خاطفة... ثم أصبحت المقاعد متلاصقة، وكان للقبلات طعم الجنة. ولقد كان - وحتى اليوم - لقبلات جوجو طعم خاص وهو... هو يحب النساء فليس هذا عيبًا، إنه يحبهن حبًّا جمًّا، ويرى في كل واحدة منهن مذاقًا خاصًّا لا يتكرر... لكن جوجو كانت ذات طعم متميز وليس مختلفًا، وإذا ما ذاب الجليد استشعر المرء الدفء والأمان ففتح صدره وراح يحكي.

في «الوورتايم» - زمن الحرب - يضطر الرجال إلى الكثير من التنازلات لكي يعيشوا مرفوعي الرأس... قد تسوء الأمور سنوات لكنها بالقطع سوف تتحسن ذات يوم، هو مدير لشركة سياحية لكن السياح لا يأتون هذه الأيام إلى مصر ولا يخفى السبب... وهو متعهد سفن ومندوب شركات ملاحية، وهذا هو الكارت الذي يحمل اسمه وعنوانه ومهنته ورقم صندوق بريده، وتليفونه في السويس.

ويبدو أن جمعة الشوان في تلك الليلة كان مؤثرًا ومقنعًا لدرجة أن جوجو أعلنت وهي تضع الكارت في حقيبة يدها أنها تدعوه مع صديقه ديموس لقضاء سهرة وتناول العشاء في مكان آخر.

فهل كان يستطيع أن يرفض؟!!

■ ■ ■

انتهى من فنجان القهوة في كافتيريا الترانزيت وسمع النداء التقليدي، ذلك النداء الذي يتم دائمًا بثلاث لغات، بنفس الكلمات ونفس الصيغة التي حفظها عن ظهر قلب.

كان النداء لركاب الطائرة أليتاليا المتجهة إلى روما فأوقفت العاملة النحيلة استرسالها معه وقالت:

«طيارتك يا بيه».

كانت تحكي له قصة زميلها الذي حاول أن يأكل حقها، وكان يستمع إليها بكل جوارحه ما عدا النظر، فلقد كانت عيناه تنزلقان في كل اتجاه ليرى كل ما يدور حوله في الصالة، كان البدين قد وقف وحمل حقيبة صغيرة وتدحرج نحو البوابة التي تؤدي إلى أرض المطار، أيقن أنه سيحمله فوق كتفيه حتى روما، دفع ثمن القهوة وأجزل لها العطاء وطيب خاطرها بكلمتين ثم وضع المعطف فوق كتفيه وأمسك بالمظلة وحمل الحقيبة السمسونايت وخطا عبر البوابة إلى أرض المطار، فغسل وجهه بندى مصر وهواء الصباح المنعش فيها!!

نفس الإحساس الذي غمره يوم أن غادر مع جوجو ذلك المشرب لأول مرة. عندما قبل دعوتها للعشاء استأذن منها لدقيقة يذهب فيها إلى الحمام... وكان رأسه يدور ليس فقط مما شرب ولكن مما كان يحدث حوله ومعه... ولم يكن يريد دخول الحمام لقضاء حاجة. وإنما لغرض آخر.

أمام المرآة وقف... مال إلى الأمام وكاد وجهه يلتصق بها وراح يحملق في وجهه!!

ما الذي تغير فيه؟

الغريب أنه وجد نفسه في المرآة كما تعود أن يراها دائمًا... هو هو «جمعة الشوان» بنظارته السميكة، بوجهه الأسمر، وأسنانه التي نبتت متباعدة وكأن كلًّا منها تريد أن تستقل بفم خاص!!!

ملابسه المتواضعة و«هيئته الرثة»... فما الذي جد فيه؟

ما الذي صرع جوجو؟

عندما عاد إليهم كان قد تأكد تمامًا أن الأمر ليس حلمًا وأنه واقع، كما تأكد أن رأسه قد ازداد دوارًا... فتحت جوجو حقيبة يدها فبرزت أحشاؤها مكتظة بالبنكنوت!

الورق الإسترليني الملون الذي يستطيع أن يميز ألوانه وحجمه وسط مئات الأوراق المالية، الورق الذي يسيل له لعاب الدنيا كلها!!

دفعت جوجو الحساب، وتركت فوق المائدة بقشيشًا دفع الجرسون إلى الانحناء بأدب جم!!!

الفصل الرابع

غسل هواء الطريق البارد وجهه فارتد إليه وعيه، كانت ماري تطلق ضحكات مرحة وكان ديموس قد احتواها بين ذراعيه وراح يلتهم شفتيها، بينما تعلقت جوجو بذراعه والتصقت به، وكان هو يبحث في المكان بعينيه فسألته جوجو:

«أتبحث عن شيء يا حبيبي؟».

ابتلع كلمة يا حبيبي، فبالرغم من كل شيء، بدت له رخيصة كل الرخص، لكنه قال:

«تاكسي».

«لماذا؟».

قبل أن ينطق كانت ماري تصيح من بين شفتي ديموس:

«إن معنا سيارة!!».

وعلى كل فلقد كان جمعة الشوان في تلك الليلة على استعداد لأن يصدق كل شيء... وأن تقول له ماري إنها تملك عشرة محلات للملابس، لا أربعة فقط، وأن تقول له جوجو إن أباها هو مستر فلان البليونير لا المليونير فقط، كل هذا كان قابلًا للتصديق... أما أن يراه، أن

يتحقق منه ويلمسه بيديه ويصبح أمام عينيه حقيقة واقعة، فهذا ما لم يكن يحلم به على الإطلاق.

كان ثمة طابور من السيارات الأوستن الصغيرة تقف أمام البار، ولا بد أن إحداها هي سيارة جوجو... وما إن خطا نحو هذا الطابور حتى قبلت جوجو يده وهمست:

«إلى أين؟».

«أليست سيارتك واحدة من هذه!».

هزت جوجو رأسها نفيًا وسارت به إلى حيث الحلم ذاته...

وقف بجوارها أمام سيارة جاجوار موديل 68، نفس العام، سيارة جاجوار إنجليزية الصنع من هذا النوع الذي تراه فتحسب أن السيارة ليست سوى سيدة من الطبقة الأرستقراطية الإنجليزية، سيارة جاجوار سوداء ذات مقاعد من الجلد الأبيض الفاخر. التفتت جوجو نحوه قائلة وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة أدارت رأسه:

«هذه سيارتي!!».

وكانت ماري تفر من ديموس ضاحكة وهي تفتح باب السيارة الأمامي وتجلس خلف عجلة القيادة... أما هو فجلس في المقعد الخلفي واندفعت جوجو إلى جواره... وعندما انسابت السيارة في شوارع المدينة لم يكن يدري إلى أين لكنه كان سعيدًا وكأنه في حلم، ولقد حاول أن يسترد وعيه وأن يطرد الحلم لكنه أبى إلا الاستغراق فيه، كانت السيارة الآن تخترق شوارع المدينة فبدت له الأضواء وكأنها

نجوم تتلألأ حيثما ينظر، همست جوجو وكان صوتها يتسلل الآن إلى نخاعه:

«ما رأيك في شوب من البيرة؟».

«رائع!».

قالها بلا وعي فلم يكن لديه أي مانع لأي شيء في هذا الكون... ضغطت جوجو زرًّا فانفتح ظهر المقعد الأمامي عن بار انبعثت منه أضواء حالمة، كان البار ثلاجة تضم صناديق من البيرة وزجاجات لأنواع شتى من الخمور، صاحت ماري تطلب لنفسها علبة بيرة، ألقت جوجو إلى ديموس بواحدة ففتحها وهو يصيح، ويفور المشروب ويغرق الملابس وتتعالى الضحكات صاخبة فأي حلم هذا وأية ضجة تلك؟!... ما إن انتهوا من البيرة حتى وقفت السيارة أمام مبنى كان يتلألأ بالأضواء الملونة وصوت الموسيقى الصاخبة ينساب من الداخل إلى الطريق.

تساءل جمعة عن المبنى فسألته جوجو:

«هل تحب الرقص؟».

«ومن في الدنيا لا يحب أن يرقص معك؟!!».

في الدور الثالث من هذا المبني كان المرقص... الفتيات والشبان والأضواء في الآذان والموسيقى في العيون والصخب يغمر الدنيا والفرح يدفع الأجساد إلى التمايل في عنف وحيوية... كانت جوجو تشرب وكانت تدفع بالمشروب إلى شفتيه فراح يعب منه دون وعي... حلم هذا أم حقيقة؟!... دفء الأجساد وهدير الموسيقى وإذا هو وسط

الجميع يتمايل بالنشوة... وجوجو تتمايل أمامه كأن بها مسًّا أو كأنها جسد بلا عظام، ارتمى عليها فذابت بين ذراعيه، ورقص فرقصت، تمايل فتمايلت، أخذته النشوة، فاصطدم بإحدى الفتيات فتوقف، كان يلهث وهو يبحث عن كلمة اعتذار لكنه اصطدم بوجه شديد الغضب، أمامه مباشرة كانت فتاة زنجية ترسل عيناها شواظًا من نار، من قلب اللهاث قال:

«آسف!!».

لكنه قبل أن يكمل كلمته كانت فوهة بركان تصب على رأسه حممًا من السباب... توقفت الموسيقى وتوقف الراقصون، وساد الصمت وأحاطته كل العيون فتندى جبينه بالعرق... كانت الزنجية تصرخ في وجهه، وكان هو يحاول - عبثًا - أن يعتذر، غير أنه - لحظة أن احتواه اليأس والخجل والضياع وكما يحدث في أفلام السينما - فوجئ بجوجو تتقدم من الزنجية صارخة:

«هل لك أن تغلقي فمك القذر هذا لكي أقول لك شيئًا!!».

وأصبحت جوجو والزنجية وحدهما وسط الحلبة، والتف حولهما كل الراقصين والراقصات وكانت وصلة رائعة من الردح الإنجليزي الصاخب... كان جمعة الشوان في تلك اللحظات سعيدًا، ولم يكن هذا الذي يحدث هو سبب سعادته، كان ما أسعده حقًّا أن جوجو صرخت في الفتاة الزنجية أن عليها أن تلزم حدودًا لا تتعداها، وأنه ليس من حقها أن تهين ضيفًا لها خاصة أن هذا الضيف قد اعتذر عما بدر منه عن غير قصد، حاولت الفتاة أن تتحدث لكن المفاجأة كانت في يد جوجو وهي

تشير نحو باب المكان طالبة من الفتاة أن تغادره... سرت الهمهمات وكلمات الاحتجاج وتوقفت الموسيقى وجاء المدير فبدا عليه الخوف من غضب جوجو التي أصرت على موقفها فلم يجد الرجل بدًّا من الطاعة، وما هي إلا دقائق حتى غادرت الزنجية، لا حلبة الرقص فقط، بل المكان كله!!!.

فيما بعد عرف جمعة الشوان أن ما حدث كان تمثيلية متفقًا عليها بين الزنجية والمدير وجوجو وجزء من الذين حضروا الواقعة، لكنه ليلتها كان منتفخًا بمئات المشاعر والأحاسيس، كان حاضرًا في المكان تائهًا بعقله... تائهًا في الموسيقى الحالمة التي انسابت بعد انصراف الزنجية، تائهًا في جوجو التي تعلقت بعنقه وراحت تمطره بالقبلات، وكان هو يضم جسدها بين ذراعيه وقد أخذته النشوة كل مأخذ، وعندما سألته جوجو إن كان يحب المخدرات قال:

«إني أحب كل شيء معك، كل شيء وأي شيء!!».

■ ■ ■

صعد إلى أتوبيس المطار وكان ذهنه غائبًا وعيناه صاحيتين... كانت الشمس في ذلك الصباح واهنة، طوال رحلة الأتوبيس الذي حمله مع الركاب إلى سلم الطائرة وهو يمتص كل شيء بعينيه، وعند السلم استقبلته المضيفة بابتسامة من يرحب بضيف تعود أن يراه، اتخذ هو مقعده في الطائرة في نفس المكان الذي تعود أن يجلس فيه على اليمين بجوار النافذة... ربط الحزام قبل أن يطلبوا منه ذلك، وأسند رأسه إلى مسند المقعد، وداخله ذلك الإحساس الغامر بالاسترخاء، وشعر برغبة

طاغية في النوم... قد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي يغادر فيها مطار القاهرة، قد يكون اليوم واحدًا من أواخر أيامه... فكيف ينام دون أن يلقي على بلده وأرضه نظرة أخيرة؟!!

قال له «الريس زكريا» بصوته الواثق:

«حط في اعتبارك أنهم محتاجين لك قوي دلوقت يا جمعة!».

رغم حبه الشديد لهذا الرجل الذي كان يحدثه عن المخاطر وكأنه يحدثه عن نزهة:

«حايطلبوا منك المرة دي أنك تسافر تل أبيب!!»...

فهل يعرف هذا الرجل ما معنى وجوده في تل أبيب؟... ليست هذه المرة الأولى حقًّا، فلقد سافر ثلاث مرات وتلقى الصدمة وذهبت الرهبة ولكن: «وهناك حايدوك جهاز إرسال، الجهاز ده ثمين جدًّا يا شوان واحنا عاوزينه ومحتاجين له!!»".

«الله أكبر... !!».

كان معنى هذا أنه لا بد أن يأتي بالجهاز، كان معناه أنه إن لم يحصل عليه في هذه المرة فلا بد أن يحصل عليه في مرة قادمة!!... كان معنى هذا أنه «لسه بدري»!!.

في المرة الأخيرة التي التقى فيها بالريس زكريا برقت عيناه السوداوان وهو يصافحه في حرارة:

«ما تنساش إن ربنا معاك».

ذات مرة راح يصرخ فيه سائلًا إياه إن كان يعرف مدى ما يعانيه من عذابات؟!... كان الريس زكريا كمن يضع القيود في يديه وقدميه ويربت على كتفه في حنان قائلًا: اذهب فأنت طليق... «طليق؟!»، كان يطلب منه أن يفعل ما يشاء في حدود ما يتفقان عليه... وكان ما اتفقا عليه بسيطًا كل البساطة، ألا يفعل شيئًا دون أن يخبره به أولًا، وأن يخبره بكل ما حدث، بكل كبيرة وصغيرة... إن هذا شرط أساسي لحمايته، وفي البداية لم يكن أمامه سوى أن يطيع، ثم تعود أن يطيع... وفوق هذا كان للإسرائيليين أيضًا قيودهم التي كانوا يضعونها في عنقه، لحمايته!!!

وكما كان للريس زكريا مطالبه، كان للإسرائيليين أيضًا مطالبهم... ولقد تركوا له حرية التصرف في حدود ما تسمح به هذه القيود والمطالب.

حبل السلك المشدود فوق بحر من الجحيم... فإذا مال يمينًا هلك وإذا مال يسارًا قد يهلك... وكان لا بد له في النهاية أن يصل إلى الهدف حتى ولو كان الثمن عنقه.

عندما سحبته جوجو خارج المرقص في تلك الليلة انقاد لها... لم ينتظرا المصعد، بل راحا يهبطان الدرج معًا... في منتصف الطريق إلى الشارع توقفت، رفعت إليه عينيها فاضطرب. سألته:

«هل أنت في حاجة إلى مال؟!».

نظر إليها ولم يرد، كان هذا فوق احتماله...

فتحت جوجو حقيبة يدها وأخرجت منها خمس ورقات من فئة العشرين جنيهًا إسترلينيًا قدمتها له فعجزت يده عن الحركة، دستها في جيبه وهي تقول:

«لو احتجت لشيء فعليك أن تخبرني».

راحت تقفز الدرج هابطة فتبعها وهو لا يعرف لنفسه رأسًا من قدمين... في الطابق الأول انثنت جوجو إلى ممر يفضي إلى كافتيريا، على باب الكافتيريا توقف جمعة ذاهلًا... كان الزنجي الذي التقى به بالأمس هناك، ابتسم له الزنجي فصاح جمعة:

«لماذا لم تأت في موعدك أيها الرجل؟».

مد له الزنجي يده وصافحه بحرارة معتذرًا عن التأخير لأن عملًا عطله... لم يفاتحه في أمر العمل فقد انشغل على الفور مع جوجو التي كانت الآن - وبوضوح وصوت طبيعي - تطلب منه شيئًا من المخدرات... مد الزنجي يده في جيبه وأخرج قطعة من الحشيش أخذتها جوجو ودفعت الثمن ثم سحبت جمعة من يده مغادرة المبنى كله... كانت تتصرف وكأنها صبية لكن جسدها عندما ارتمت بين ذراعيه أنبأه بأن هاهنا أنثى لا تقاوم... خلف المرقص أرض فضاء. كان البرد قارسًا لكن دفء شفتيها أنساه كل شيء. همست:

«ألم تقل إنك تحبني؟!».

كان جسدها ينتفض بين ذراعيه حبًا ونشوة وكان هو معقود اللسان... فجأة قفزت مبتعدة عنه كأنها «ياي» ارتد بعيدًا. انثنت إلى الجدار وجلست إلى جواره فوق الأرض فجلس جمعة ملتصقًا بها... في براعة.

أذهلته راحت تعد لفافات المخدرات... كانت أصابعها محنكة وعندما تساقط المطر فوقها لم تتوقف، صنعت من معطفها مظلة وكانت تشعل السيجارة ثم تدسها بين شفتيه لتعد سيجارة أخرى.

لا... ليست هذه هي الدنيا التي عرفها حتى في الأحلام... في تلك الليلة كان جمعة الشوان على استعداد لأن يقاتل الدنيا لولا ذلك الشيء الغريب الذي كان يحدث... كانت الأرض الفضاء تمتد أمامه مبللة بالمطر لكنها تصعد من هناك إلى أعلى، يرفع عينيه مع صعود الأرض فيميل جسده ويشتد به الميل حتى يسقط إلى حيث لا قرار... من بعيد جاءه صوتها كأنه يصدر من بئر سحيقة:

«جمعة... ماذا بك؟».

أراد أن يلتفت نحوها فضاع منه رأسه، أراد أن ينهض فانفلت منه جسده، مالت السماء وهوت لتصبح الآن أمامه وليست فوقه، غسل المطر وجهه فترك نفسه لذلك المخدر الذي كان يسري في كل أوصاله... سحابة من ضياع تطويه فيستسلم دون مقاومة... و يغيب فيها عن الوعي...

قال جمعة الشوان لنفسه وهو يلقي نظرة أخيرة على أرض مطار القاهرة الدولي:

«أقسم بالله العظيم، إني ما فعلت كل هذا الذي فعلته، ولا احتملت كل هذا الذي احتملته على مدى خمس سنوات، إلا من أجل ديني وبلدي!!».

وكانت طائرة شركة «أليتاليا»، تحلق فوق مطار القاهرة صاعدة نحو السماء وهي تزأر وتزمجر... وكان يعلم أنه بعد ساعتين وبعض الساعة سوف يصل إلى مطار روما!!.

الفصل الخامس

رغم أن الرجل البدين كان قد سبقه إلى الأتوبيس الذي أقل الركاب إلى الطائرة، ورغم أنه كان يراقبه بحرص، فإن شيئًا ما جعل الرجل يختفي عن عينيه... وهذا في حد ذاته خطأ فادح من الممكن أن يكلفه حياته في موقف ما لا يدريه... غير أنه عندما انتبه إلى نفسه مع ارتجاج الطائرة وهي تغادر الأرض إلى السماء، لاحظ أن الرجل البدين كان يجلس في المقعد الخلفي إلى اليسار، بحيث يستطيع أن «يركبه» - حسب الاصطلاح الفني في هذا العالم السري - بدون أن يتحرك من مكانه، ومهما راح في الطائرة أو جاء، ومهما تحرك ونهض، فلسوف يصبح تحت عينيه طوال الساعات القادمة وحتى تصل الطائرة إلى مطار روما!!!

ولم يكن أمامه سوى أن يسقط هذا الأمر من رأسه مؤقتًا، ولو أننا تحرينا الدقة، فلسوف نجد أنه من الطبيعي أن يسقط الشوان هذا الرجل من ذهنه... ذلك أننا لا نملك أي دليل، كما أن الشوان كذلك، علم أنه كان يراقبه، ومن المستحيل - لو كان الظن صحيحًا - أن نأتي بهذا الدليل... أقول، سوف نجد أنه من الطبيعي أن يسقط الشوان هذا الرجل من وعيه تمامًا... فالمكان ضيق محدود ولا مجال للمناورة

في ساحة مثل ساحة الطائرة. ورغم كل شيء أخذ القلق يأكله أكلًا. رغم كل التأكيدات التي تلقاها من الريس زكريا ورغم الخطاب الذي تركه لفاطمة ورغم أنه قد أمن حياتها بقدر ما يستطيع فإنه ظل يتساءل:

هل ستسير الأمور على ما يرام وكما يريد لها أن تسير، لو حدث له مكروه في هذا الأمر؟ وكلما تناقش حول المستقبل وما يمكن أن يحدث له، كان المصريون والإسرائيليون يرددون نفس الكلام، ولقد صارح الريس زكريا ذات يوم بما كان يعتمل في نفسه، ونظر إليه الرجل طويلًا، أطلت من عينيه نظرة عتاب صارخة، ثم... ثم لزم الصمت!!

في حياة الريس زكريا وفي تفكيره أساسيات لا سبيل إلى مناقشتها على الإطلاق... وكما أن الصدق لا يتجزأ، والشرف لا يتجزأ... فإنه إذا مات أحد من أجل مصر، فإن حماية أولاده وأسرته ومراعاتهم تصبح حقًّا على مصر...

كانا يلتقيان أحيانًا في كازينو من تلك الكازينوهات التي تتناثر في القاهرة على شاطئ النيل، وكان للقائهما دائمًا طقوس وأساليب... ففي ذلك العالم الغامض، يصبح لكل شيء أصول وطقوس، ولكل شيء أيضًا مذاق... وأيًا ما كانت هذه الأصول والطقوس وذلك المذاق، فإن السرية هي الملح الذي بدونه لا يؤكل طعام... سمع منه الريس زكريا تلك الهواجس فأطلت من عينيه نظرة عتاب وبدا وكأن الأمر لا يعنيه. حول بصره نحو سفينة نيلية كانت تمخر المياه وكان الوقت غروبًا وظلال النخيل على الشاطئ الغربي تبدو من خلف أشعة الشمس كالأساطير وجاء صوت الريس زكريا خافتًا قويًا:

«إذا جرى لك حاجة مش أنا اللي حادفع، ولا المخابرات، دي مصر اللي حاتدفع يا شوان!».

وذات مرة أعلن العصيان على الإسرائيليين، قال إنه لا يريد مزيدًا من العمل، قال إنه اكتفى بما كان وإنه خائف وهو يريد أن يعيش في أمان، وقال، قال كثيرًا وبعد أن دوخهم في الأخذ والرد صاح فيهم:

«طب افرضوا إني رحت السويس زي مانتوا عاوزين، أنا حاروح ليه؟... علشانكم، علشان أجمع لكم معلومات... طب انتوا بقى بتعملوا غارات على السويس، افرضوا إن حصلت غارة وأنا هناك، حاتقولوا للطيارين بتوعكم: خلي بالكم من جمعة الشوان اللي ماشي في الشارع الفلاني في الحي الفلاني؟!».

قال هذا وتوقف... راح يرقب تأثير كلامه على وجه محدثه وكانت هذه هي الخطة التي وضعها له «الريس زكريا» وكان غريبًا منه أن يوافقه على اللعب بهذه العقول الرهيبة التي هزمت في المباراة لسبب بسيط كل البساطة وهو أنهم صدقوا أنه ساذج... يومها عاد إلى الصياح:

«افرضوا بقى إني مت في غارة زي دي، مراتي وأمي وأخويا حايعيشوا فين، ومنين؟».

كانوا هم أيضًا يؤكدون له أن أولاده سيعيشون كأحسن ما يريد لهم، وكانوا يقولون له إن الأمر أبسط مما يتصور، فهم يستطيعون من أي بلد في الدنيا أن يرسلوا إلى أولاده نصيبه في الشركة التي هو واحد من أصحابها... أية شركة وأي مكان، إنهم يستطيعون أن يرسلوا دينًا كان على أحدهم له في إيطاليا أو ألمانيا أو اليونان... و... وتأخذه الدوامة... يومًا

بعد يوم كانت تأخذه الدوامة... كعود القصب بين أسطوانتي العصير... يدخله الرجل من ناحية ليخرج من الناحية الأخرى حطبًا جافًّا... يومًا بعد يوم حتى أصبح يشعر أنه ليس فيه قطرة من حياة... قدر هو، قدر لا يد له فيه، ولو كان يعرف من البداية أن هذا سيحدث، فهل كان يستطيع للحظة واحدة أن يتردد؟... هل كان يستطيع أن يرفض؟... لم تعد له أمنية في الدنيا سوى أن يسير ذات يوم في شوارع السويس آمنًا يستنشق هواء الخليج القوي. وينظر إلى عتاقة، فيجده في مكانه، وأيضًا في سلام وقد انتصر...

■ ■ ■

مالت عليه المضيفة الشقراء ذات الشعر القصير وهمست:

«قهوة؟».

واكتشف أنه تناول إفطاره في الطائرة دون أن يشعر، وهو لا يدري إن كان قد طلب قهوة أم طلب شايًا... أخذ يحملق في ملامحها المتناسقة الجميلة وعاد يتذكر جوجو...

وهو لا يذكر - في ذلك اليوم في الأرض الفضاء خلف المرقص في بريستول، وسيجارة المخدرات بين أصابعه، ورذاذ المطر ينهمر بلا توقف والدخان الأزرق ينساب من صدره متبددًا مع الرياح - لا يذكر إن كان قد أغمي عليه، أم أن ما حدث كان نوعًا من الاستسلام لتلك اللحظات الغريزية الفائقة اللذة...

سقط على الأرض وتمدد وأحس أنه «مرتاح كده»... وعندما همت إليه «جوجو» وأخذت رأسه بين ذراعيها ودفنته في صدرها الناهد أحس أنه «مرتاح أكثر»...

كانت تربِّت على خده وهي تناديه «جمااا... جمااا»، ويأتيه صوتها عبر موسيقى تصويرية تصنعها الطبيعة بالمطر والرياح معًا... فيترك نفسه للاستسلام أكثر...

غسل رذاذ المطر وجهه وشعرها، فتح عينيه فرأى وجهها مثل لوحة رسمت على صفحة السماء... إذن فلقد عادت السماء إلى مكانها، لقد أفاق.

«جمااا... شوان... شوان».

هكذا نادته فغمغم وهو يهز رأسه عندما غمر المكان ضوء باهر لسيارة أتت مسرعة ثم توقفت بجوارهما وعجلاتها تصرخ على أرض الطريق، فتح الباب الخلفي للسيارة بسرعة وقفزت منه ماري صائحة في لهفة:

«جوجو هيا بنا... !».

لم يتحامل جمعة الشوان على نفسه، وجد جسده يسبح إلى السيارة بين أربع أذرع لفتاتين... وعندما دخل السيارة عاد إليه وعيه تمامًا ولم تكن هذه السيارة هي «الجاجوار».

كانت سيارة «استيشن واجون»، وعلى يمينه كانت جوجو قد أخذت رأسه بين ذراعيها فاستنام، وعلى يساره جلست ماري وخلف عجلة القيادة كان ثمة رجل يرتدي نظارة طبية وكانت السيارة تنهب بهم الطريق إلى حيث لا يدري.

سمع جوجو بعد دقائق تقول للسائق:

«أسرع إلى بلاك بول».

لم يكن جمعة الشوان يعرف أن «بلاك بول» مدينة تقع على بعد بضع عشرات من الكيلومترات شمالي «بريستول»، أعجبته الرقدة فتظاهر بالإغماء من جديد... حتى إذا حدث ما حدث بعد ذلك كانت أعصابه كلها، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، قد شدت وتوترت وتنبهت... وكان الذي حدث بسيطًا كل البساطة...

كانت جوجو تتبادل الحديث مع ماري، وهذا أمر طبيعي للغاية لولا أن حديثهما لم يكن في تلك الليلة بالإنجليزية، ولا بالفرنسية ولا بالإيطالية، ولا بأية لغة من تلك اللغات التي طرقت أذنيه كثيرًا في البحر وتعود عليها... كانتا تتحدثان بلغة غريبة... لغة يعرفها «جمعة الشوان» جيدًا... لغة يعرفها غير أنه لا يذكرها... لغة فيها من العربية بعض لكنتها ولكنها ليست العربية... لغة... لغة... وارتجف كل جسده عندما تيقن أنهما كانتا تتحدثان بالعبرية!!!

كان ارتجافه واضحًا ولم يكن هناك بد من الاستيقاظ، فاستيقظ، نهض جالسًا وراح يجيل بصره في الطريق المظلم متسائلًا بصوت تعمد أن يكون تائهًا:

«ما الذي حدث؟».

قالت جوجو:

«لا شيء... كنت متعبًا فنمت على صدري!!».

وتذكر صديقه اليوناني الذي تركه في المرقص مع ماري فاستدار نحو البدينة:

«أين ديموس؟».

قالت ماري:

«قبض عليه البوليس!!».

■ ■ ■

مالت عليه المضيفة وصوبت نحوه عينين باسمتين وهمست:

«ألا تريد كأسًا؟!».

«بيبسي كولا!!».

وتذكر الرجل البدين الجالس خلفه لكنه لم يلتفت نحوه فلم يعد يعنيه أن يفعل، كان واثقًا أنه لن يضبطه ناظرًا إليه، كان على يقين من أن البدين إن كان يراقبه حقًّا فلن ينظر نحوه أبدًا... ذلك أن مثل هؤلاء الرجال يملكون عيونًا خفية في أماكن أخرى من أجسادهم غير رءوسهم، رفع عينيه إلى وجه المضيفة التي انحنت بكأس البيبسي وراح يتأملها... كان وجه الشبه بينها وبين جوجو شديدًا، ظن، أو تمنى، أن تكون هي، لا يدري، لكن الذي كان يدور في رأسه كنحلة هو:

هل تعمل هذه الحسناء لحساب الإسرائيليين أم أن الريس زكريا أوهمه بالرجل البدين ليتركه فريسة لرعاية هذه الفتاة؟!!

التفت فجأة نحو مقعد البدين ودق قلبه. كان المقعد خاليًا ولم يكن الرجل هناك، وفي ثوان خاطفة وقبل أن يرفع كأس البيبسي كولا إلى

شفتيه كانت عيناه قد مسحتا الطائرة من أقصاها إلى أقصاها... قد يكون الرجل قد نهض إلى دورة المياه لكنه - لكي يفعل ذلك - لا بد له أن يمز أمامه وهو لم يره... ربما مر دون أن ينتبه إليه وهذا خطأ آخر ولكن عليه أن ينتظر... وانتظر... انتظر دقيقة واثنتين وخمسًا وعشر دقائق لكن الرجل لم يعد ولم يظهر... كان وكأنه تبخر في الهواء...

نهض وقطع الطائرة حتى الحمام ووقف وانتظر وراقب لكن عينيه أبدًا لم تقعا على الرجل!!

عاد إلى المقعد وقد اعتراه اكتئاب زاد من توتره. وأن يكون مراقبًا فهذا أمر لا يبعث على الضيق فلقد ارتضى السير في الطريق وعليه أن يتحمل متاعبه... ولكن أن يجد نفسه في فراغ فهذا ما لا يطيقه أبدًا.

ولقد كان توتره بالغًا عندما استمع إلى جوجو وماري وهما تتحدثان بالعبرية... أيقن أنهما يهوديتان. لزم ليلتها الصمت وتظاهر بالغباء وانتظر ما تأتي به الساعات القادمة، راحت السيارة تنهب الطريق نهبًا «بلاك بول»... لم يسأل أين الجاجوار، لم يسأل من هذا الرجل الذي يقود السيارة... لم يكن يعنيه هذا، كل ما كان يعنيه في تلك اللحظات هو: ما الذي يحدث حوله؟

كانت قرون استشعاره - لم تكن في تلك الأيام قرونًا مدربة - قد بدأت تبرز وتدور في كل اتجاه كالرادار... تتشمم وتتحسس ولكنه لم ينطق حرفًا... كان قد اطمأن على «ديموس» عندما قالت له ماري إن البوليس قد قبض على كل من في المرقص لأنهم يدخنون «الماريجوانا»!!، وقالت له جوجو:

«لا تشغل بالك فلسوف يخرج ويعود إلى السفينة!».

أمام أحد الفنادق في بلاك بول وقفت السيارة وهبط الثلاثة ودلفوا إلى الفندق، تقدموا من مكتب الاستقبال فتهلل الموظف عندما رأى جوجو. هاتفًا:

«مساء الخير مس ديفز!».

هكذا قال وهو يقدم لها على الفور مفتاح الغرفة، إذن فقد كان كل شيء مرتبًا منذ البداية... أخذت جوجو المفتاح وأخذت ماري مفتاحًا آخر وصعدوا جميعًا.

ما إن أغلق الباب على جوجو وجمعة، حتى استدارت نحوه، وصوبت إليه نظرة غريبة، ثم اتجهت نحو مائدة صغيرة رصت فوقها زجاجات الشراب والكئوس، وفي دقائق كان كل شيء معدًّا لليلة من ليالي العمر.

■ ■ ■

قالت جوجو:

«لم تريدون إلقاء اليهود في البحر؟!».

جاء السؤال مباغتًا ومفاجئًا وصريحًا في نفس الوقت، كانا وقت أن ألقت عليه هذا السؤال عاريين تمامًا، وكان هو ممددًا في الفراش يدخن ورأسه يدور بأبخرة الخمر وطعم القبلات... أما جوجو فكانت قد تدثرت بفوطة وهي تشعل سيجارة وتعد لنفسها كأسًا...

«لماذا تسألينني مثل هذا السؤال؟!».

هكذا قال، فأجابت دون أن تنظر إليه:

«أنا يهودية!!».

دق قلبه وهو يسأل:

«يهودية أم إسرائيلية؟!».

«أنا إنجليزية لكني يهودية!!»...

لم تطل بينهما المناقشة في تلك الليلة، وعندما نزعت جوجو الفوطة عن جسدها وأفرغت الكأس في جوفها وألقت بنفسها إلى جواره واندست تحت الأغطية كان هو يغط في نوم عميق.

الفصل السادس

جاء صوت المضيفة في الميكروفون يعلن أن الطائرة تحلق فوق سماء روما وأنها بعد عشر دقائق سوف تهبط إلى أرض المطار.

واجتاحت جمعة الشوان دهشة بالغة... أحس في تلك اللحظة أن هذه الرحلة هي أقصر رحلة قطعها في حياته... وأن الساعات قد مضت كومض البرق، فكيف مضى الوقت بهذه السرعة، التفت نحو المقعد الخلفي وكانت المفاجأة أنه وجد البدين هناك... وقتها فقط قبل الرهان مع نفسه. إن هذا الرجل الذي يشبه قسيسًا في الفاتيكان - بالتأكيد - واحد من أعوان الريس زكريا، وذلك أنه تعود على مدى خمس سنوات أن المصريين يفعلون دائمًا كل ما لا تتوقعه... ومهما تحسب الحسبة وتضرب التضريبة، فلن تصل إلى ما تفرزه عقول هؤلاء الرجال الذين يقبعون في ذلك المبنى الغريب في حدائق القبة... ولو أنه وجد البدين الآن يقفز فجأة من الطائرة ويحلق في الجو مبتعدًا نحو النجوم وعلى شفتيه تلك الابتسامة الغامضة المثيرة لما أصابته الدهشة أبدًا.

هكذا وبلا طنطنة كما يفعل الإسرائيليون يؤكد له الريس زكريا أن حياته مهمة... أنه يحميه بالفعل ويرسل خلفه من يحافظ على حياته، أحس بحلقه يجف ولا يدري لم، كان كمن يحتاج إلى قطرة من الحياة

بعد أن اكتوى في أتون متأجج من الانفعالات والقلق والشك والريبة، كان إحساسه الغامر في تلك اللحظة بالذات أن الموت يناديه ويسرع إليه... وإلا فما معنى انقضاء الرحلة بهذه السرعة إلا أن عزرائيل يقبع الآن في مكان ما ربما في روما أو في تل أبيب أو في أية بقعة من بقاع الأرض في انتظار وصوله!!

عندما بدأ الركاب يغادرون الطائرة كان ثقيل الحركة إلى حد مزعج، راح يخطو ببطء وهو يشعر أن قدميه تحملان أطنانًا من الرمال... وعندما وقف أمام السير الجلدي الذي يحمل حقائب الركاب، اكتشف أنه آخر من وصل إليه من ركاب الطائرة وأنهم جميعًا قد سبقوه... لم ينظر حوله بحثًا عن البدين فها هنا تنتهي مهمته - هكذا علمته التجارب - وهذه هي المرة الأخيرة التي سيراه فيها.

بعد ذلك - كالآلة تمامًا - بلا شعور ولا انفعال، كان عليه أن يقوم ببعض الإجراءات.

عندما خرج من المنطقة الجمركية بدأ إحساسه بالثقل يزداد، شعر وكأنه يحمل الهرم الأكبر فوق كتفيه، أحس أنه يتغير، أحس أنه تغير بالفعل وأصبح هو ليس هو الذي تعوده وعرفه... وبدأت المعركة في داخله... معركة محتدمة حامية فيها صراخ وفيها اتهامات غير أنه حسم الأمر عندما قال لنفسه: لم لا؟.. فمهما كانت رباطة جأشه، دلني على إنسان واحد يحيا فوق سطح هذه الأرض يحب الموت ولا يخشاه؟!...

كانت التعليمات التي تلقاها من المخابرات الإسرائيلية تؤكد عليه دائمًا أن يحجز غرفة في أحد الفنادق قبل مغادرته المطار... ودائمًا، ومهما كان الفندق ممتلئًا ومزدحمًا، كان يجد تلك الغرفة أو ذلك السويت الواسع الرحب ذا الغرف المتعددة والمائدة الكبيرة والمكتب.

أدار قرص التليفون فجاءه صوت بالإيطالية يقول:

«أوتيل ديا كونجرسا!».

«سنيور عبد الرحمن يتحدث، أرجو أن تحجزوا لي غرفة في الفندق!!».

«متى سنيور؟!».

«اليوم... من فضلك!».

«اليوم مستحيل!!».

«أرجو الاتصال بالمدير سأكون في الفندق بعد نصف ساعة أو يزيد قليلًا!!».

قال هذا ووضع السماعة... غادر المطار وألقى بحقيبته في تاكسي «فيات» وقال للسائق:

«أوتيل دياكونجرسا من فضلك!!».

وكان على يقين - الآن- أن هذه هي خطوته الأولى نحو القبر... فليكن.

انطلق التاكسي في شوارع روما مسرعًا وراحت المرئيات من حوله تتطاير وتختلط فعاودته الذكريات ملحة... هل كان يطلب من الزمن أن يعود إليه أو يعود به...

■ ■ ■

عندما استيقظ من النوم في ذلك الفندق في «بلاك بول» كانت لا تزال جوجو تغط في النوم.

غادر الفراش وراح يخطو في الغرفة بخفة، جلس على مقعد وأشعل سيجارة وراح ينظر إلى الجسد الممدد أمامه فوق الفراش، كانت قد ركلت الأغطية واستلقت على وجهها فبدا ظهرها كتمثال مرمري أخاذ، كان يفكر في لا شيء، راح يعتصر ذهنه اعتصارًا عله يجد ما يفكر فيه دون جدوى.

ها هو قد خرج من مصر... هجر الوطن مدينته إلى القاهرة، ثم هجر بحثًا عن لقمة العيش.

وها هو يجد نفسه في مكان لا يعلم، إلا الله، إلى أين يقوده... كان عاجزًا عن التفكير، ولكن رغم القلق، كان عليه أن ينهض إلى الحمام وأن يحلق ذقنه ويأخذ دشًّا ساخنًا وأن يرتدي ملابسه.

عندما امتلأ البانيو بالمياه أفرغ نصف زجاجة من الصابون السائل في المياه فارتفع تل الزبد فيه وسرت سخونة المياه إلى جسده فاستنام.

تدثر بالفوطة البيضاء الناصعة وغادر الحمام وفتح الدولاب فجحظت عيناه، لم تكن ملابسه هناك، لا شيء مما كان يرتديه!!!

وبدلًا من ملابسه المتواضعة وجد بذلة أنيقة جديدة، وبدلًا من حذائه المهترئ وجد حذاء لامعًا، وفي ناحية وجد مجموعة منتقاة من القمصان، كما كان هناك بلوفر من صوف جيد وملابس داخلية... و...

ووقف الشوان مشدوهًا، ولكن، بالرغم من فرحته الشديدة بما وجد، راح يبحث عن ملابسه وكانت قد اختفت!!

«ما الذي تبحث عنه؟!».

هكذا جاءه صوتها وكانت جوجو قد استيقظت ودست بين شفتيها سيجارة.

«ملابسي!!».

«إنها أمامك في الدولاب».

«لكن هذه ليست ملابسي!!».

«أتريد أن تلتقي بوالدي بمثل تلك الأسمال التي كنت ترتديها؟!».

كانت الغرفة قد امتلأت برائحة المخدرات:

«وهل سنلتقي بأبيك اليوم؟!».

«ربما، وربما غدًا... وربما بعد بضعة أيام!!».

عندما ارتدى جمعة الشوان الملابس الجديدة لم يدهشه أنها كانت وكأنها فصلت خصيصًا من أجله، الذي أدهشه شيء واحد: متى وضعت هذه الملابس؟... ومتى أخذوا ملابسه؟

انتهى من تناول الإفطار وقد جاوزت الساعة الثانية عشرة ظهرًا... كان اليوم يوم أحد، وليس في الميناء أو على السفينة عمل يستلزم

وجوده، وكان هو في ملابسه الجديدة قد أصبح إنسانًا آخر، نظر إلى نفسه في المرآة، وقال ضاحكًا: لبس البوصة تبقى عروسة... !! ولم تسأله جوجو ما الذي قاله وما الذي أضحكه أو ما معناه؟!

كانت تجلس أمامه عارية، ليس سوى قميص ألقته فوق كتفيها وحول عينيها هالة زرقاء اللون لم يلحظها بالأمس، نظر إليها طويلًا من خلف نظارته السميكة سائلًا:

«جوجو ما الذي تريدينه مني بالضبط؟».

قالت:

«أريدك أنت!!».

«ولكني متزوج!».

«هذا لا يعنيني!!».

«ولدي أم وأخ غير زوجتي!».

«تستطيع أن ترسل لهم كل شهر مائة جنيه إسترليني!!».

«كيف ومرتبي من السفينة لا يزيد على...... ».

قاطعته جوجو بإشارة من يدها:

«لا بد أن تترك السفينة!».

«وأحيا بلا عمل؟».

قالت جوجو وهي تنهض وكأنها تصدر قرارًا:

«ستعمل مع أبي!».

التفتت إليه وهي ترتدي ملابسها وكان ينظر إليها بلا رد... قالت:

«ستعمل معه في مصانعه في مانشيستر!!»

«ثم؟».

«ثم نتزوج».

أشعل الشوان سيجارة دون أن ينطق حرفًا. إن ما تعرضه جوجو عليه غريب ومدهش، وهو أيضًا فوق تصوره... غير أنه كبمبوطي يعرف كيف يحسب للأمور حسابها!!

هو موقن من صدق المثل القائل: «عصفور في اليد خير من ألف على الشجر»... طلب منها مهلة للتفكير فبدت الدهشة على وجهها، هبطا إلى الطريق وكانت الجاجوار تقبع أمام الفندق في انتظارهما فلم يسأل كيف اختفت وكيف عادت؟... طوت الجاجوار الطريق عائدة إلى بريستول، جلست ماري وكانت قد التقت بهما في بهو الفندق في المقعد الخلفي، في أحد المطاعم تناولوا طعام الغداء وفي الرابعة كانت الجاجوار تقف على رصيف الميناء أمام سلم السفينة «آرتا»... وما إن هبط جمعة الشوان مودعًا جوجو على موعد في اليوم التالي، حتى رفع رأسه نحو سطح السفينة فإذا البحارة جميعًا يقفون بجوار السياج وهم يحملقون في السيارة غير مصدقين.

وضع قدمه على ظهر السفينة فحمله البحارة حملًا حيث التفوا حوله وراحوا يداعبونه ويمطرونه بالأسئلة: كيف ومتى ولماذا؟!... وراح ديموس يشترك معه في الإجابة أحيانًا... وكان كلما أجاب عن سؤال

بدت الدهشة على وجوههم، غير أن أحدًا منهم لم يخطر بباله أن جمعة الشوان كان أكثرهم دهشة لما كان يحكيه ولما حدث له..

عندما دخل كابينته كان «ديموس» خلفه وهو يحكي له ما حدث في قسم البوليس وكيف جاء من أخرجه... ثم طرح الموضوع جانبًا وهو يسأل:

«ألم نغادر السفينة على الخير والشر معًا؟».

«نعم».

«كم أخذت منها؟».

«مائة إسترليني!».

«إذن فنصيبي منها خمسون!!».

وأخرج الشوان خمسين جنيهًا أعطاها لديموس لكنه حرص بعد ذلك ألا يصحبه معه إذا كان على موعد مع جوجو!!

ومنذ ذلك اليوم أصبح اسم جمعة الشوان على السفينة «آرتا» هو: «مستر جوجو!!».

الفصل السابع

وكما تمت رحلة الطائرة بسرعة فإن رحلته من المطار حتى فندق «دياكونجرسا» قد انقضت في لمحة عين... ودائمًا ما كان يشعر كلما سافر من مصر – وعندما يضع قدميه فوق أرض أجنبية – وكأنه يصعد إلى حلبة ملاكمة... ليست ملاكمة الأذرع والقبضات الفولاذية، بل ملاكمة من نوع آخر، ملاكمة لا تحسب النتيجة فيها بالنقط أو الضربة القاضية وإنما تحسب بالصعود إلى حبل المشنقة أو الإفلات منه!!.

هتف الحارس الواقف أمام الفندق وهو يفتح باب السيارة:

«هالو مستر كلاي!!»

ولم يكن جمعة في حجم بطل الملاكمة كلاي، بل كان نحيلًا متوسط الطول رقيق البدن، وإن كان – بالرغم من هذا – يشبه في مشيته المتمايلة تلك ملاكمًا من وزن متواضع، وعلى كل، وكما توقع، كان الفندق كامل العدد، لكنهم بسرعة دبروا له غرفة!

«وبدأ الفار يلعب في عبه!!».

فلقد تعلم – في هذا العالم الغريب – ألا يترك شيئًا للمصادفة. وفي فندق «دياكونجرسا» من الممكن أن يحدث له هذا. إنه زبون محترم.

إن أصغر فاتورة دفعها من قبل كان يرى فيها الأصفار على يمين الأرقام كالطابور... إنه إذا صادف أن تناول العشاء في مطعم الفندق مع أحدهم كان يدفع عشرة آلاف ليرة كبقشيش حتى ولو كان الحساب أربعة آلاف فقط... إنه... إنه مستر عبدالرحمن تاجر الجمال الآتي من صحاري الشرق الأوسط ليفاوض تجار جمال آخرين يأتونه من كل أنحاء الدنيا.. هكذا طلبت منه المخابرات الإسرائيلية أن يعلن عن نفسه في فندق «دياكونجرسا»... وهكذا، وكأي مليونير آت من الصحراء لا يعرف للمال قيمة، كان يسخو في الدفع.

لم لا؟؟... لم لا يخلون له غرفة مهما كان زحام الفندق؟!

ولكن... هل الفندق كامل العدد فعلًا؟ أم... أن الأمر كله مدبر، أم أنه رتب خصيصًا لينفردوا به في غرفة بلا رقم واسم لا وجود له في السجلات؟

أول ما كان عليه أن يفعله هو «البرقية»!!

من هنا تبدأ المباراة، منذ أن يضع قدمه في فندق. برقيات ومكالمات وإشارات وعلامات ومقابلات سرية. وقد يلتفت الآن ليجد الريس زكريا جالسًا في بهو الفندق يطالع جريدة. أو منهمكًا في الحديث مع شخص آخر... ولا بد، بل من المؤكد تمامًا أن في الفندق عيونًا أخرى ترقبه بعناية... عيونًا إسرائيلية!!

جوجو... جوجو... جوجو...

لماذا تلح عليه جوجو الليلة هذا الإلحاح المدمر؟!...

رغم أن رحلتها معه انتهت بسرعة، رغم أن حجمها في اللعبة التي قادته إليها كان صغيرًا للغاية، إلا أنها كانت في داخله أكبر بكثير!!

بعد رحلته معها إلى «بلاك بول» تغيرت معالم الدنيا تمامًا، هكذا وبسرعة كانت الدنيا تتغير، تتغير، تتغير، إلى أن أصبحت على ما هي عليه من عذاب...

في اليوم التالي جاءته جوجو في الموعد... صعدت سلم السفينة وعيون البحارة ترمقها في إعجاب وانبهار. كانت تحمل لفافة كبيرة تحوي صندوقًا فاخرًا، فتحتها في الكابينة، أخرجت منها جاكيت شمواه لم يحلم يومًا أن يرتدي مثلها... شكرها بعمق، كان متأثرًا... قبلها في وجنتها فاستدارت لتخرج من حقيبة يدها مائة جنيه إسترليني ألقت بها فوق الفراش وهي تتمتم:

«إذا احتجت إلى المزيد فدعني أعرف!!».

لم يعلق ولم ينطق. ولم تعد هي إلى هذا الأمر مرة أخرى، بل التفتت نحوه وسددت إلى عينيه عينيها وقالت:

«لم لا تقول إنك تحبني؟؟».

ارتبك وابتسم وضحك وازداد تأثره... قال:

«ولكني أحبك فعلًا!!».

وعندما يتذكر جمعة الشوان تلك الأيام يشعر بفيض من المرارة. قال لها بكلمات متعثرة كيف أن الرجل المصري لا يعرف كيف يعبر عن عواطفه... عندما يتذكر تلك الأيام يشعر بفيض من الدهشة، كان كل

شيء فيه يتغير بسرعة... كان «هو» قد اختفى ليحل محله «هو آخر»، الملابس والحذاء والعطر وتصفيف الشعر... و... والقلب أيضًا!!!

ومهما قال لنفسه، ومهما كان الذي حدث، فلقد استطاعت جوجو أن تستولي عليه وأن تنفذ إلى ما تحت جلده... كان يتمرغ في أحضانها فإذا الحب حب، والقبلة قبلة، وتستنشق الأنفاس عبيرًا آتيًا من جنة مجهولة... والآهة لحن، أبدًا لم يسمع أجمل منه!

ولكم أصابته المرارة يوم عرف حقائق الأشياء... لكنه تمنى دائمًا أن تكون جوجو قد أحبته... بل إنه وحتى اليوم، وهو يخطو إلى حيث لا يعرف لنفسه مصيرًا، لا يستطيع أن يتصور أنها لم تحبه.

بعد بضعة أيام في «بريستول» كان جمعة الشوان قد أصبح إنسانًا آخر، شيء واحد ظل فيه كما هو لم يصبه التغير... شيء واحد فقط هو: نظارته الطبية السميكة.

«جمعة هل دخلت الجيش؟».

«أبدًا؟».

«ألم تحارب يا حبيبي؟».

«لا...».

«هل لك أقارب في القوات المسلحة؟».

«ثلاثة إخوة من الجنود وابن عم لي يعمل ضابطًا!».

وقالت جوجو:

«أنا أحب إسرائيل!!».

هكذا مرة واحدة ومفاجئة مثل لكمة جاءته، وسط عبير الحب، على غير انتظار!

لم تعد تخفي عنه عواطفها نحو إسرائيل. وكان يرى أن هذا من حقها فهي يهودية لكنها لا تعرف حقائق الأشياء... وإذا ما رددت على مسامعه متسائلة: لم تريدون إلقاء اليهود في البحر؟... كان يصيح فيها: من الذي يلقي بالآخر خارج بلاده؟... ألا ترين أني هجرت السويس لأن الإسرائيليين يقصفونها بالدمار والموت؟

وإذا ما قال ذلك راحت تمطره بالحب، تمطره بالمال، تمطره بالهدايا... كانت تغرقه - ليل نهار - فيما لا قبل له به!!

ذات يوم وهما يرقصان كانت مستكينة بين ذراعيه، تحيط عنقه بذراعيها، ولا تفارق شفتاها شفتيه، همست:

«طلب أبي أن يراك!».

وانتفض!!

«متى؟».

«سيحدد لي موعدًا في الغد!».

صمتت قليلًا ثم عادت تقول وهي تضع رأسها فوق صدره:

«إنه مشغول بمصانعه عني!!».

رفعت رأسها إليه وراحت تشكو:

«إن ملايينه لا تعنيني!!».

نظرت في عينيه... وجاء صوتها كالنغم الساري:

«قل إنك تحبني!!».

■ ■ ■

مرت بجواره فتاة كانت تخطر كغزال في واحة، ملأت أنفه رائحة العطر فشمل بهو الفندق بنظرة فاحصة... استقبله الموظف بترحاب شديد وانتهت الإجراءات في ثوان فطلب منه أن يرسل باسمه برقية إلى لندن:

«وصلت إلى دياكونجرسا... جمعة!».

ثم... ثم كان عليه أن ينتظر... هكذا طلبوا منه، وهكذا تعود منذ خمس سنوات، يهبط أرضًا أجنبية ويرسل برقية، ثم يجلس في انتظار مكالمة تليفونية أو ينتظر حتى يدق باب غرفته ليرى رجلًا يعرفه أو لا يعرفه... سيان!!

ذات مرة تركوه عشرة أيام كاملة. عشرة أيام وهو ينتظر كل دقيقة وكل ثانية في اليوم.

صعد إلى غرفته ودفع بقشيشًا سخيًا لحامل الحقيبة وهز رأسه تحية لخادمة الغرف، وأغلق الباب فأحس وكأنه يقف عاريًا في ملعب لكرة القدم... وأن الدنيا كلها تتفرج عليه.

من يدريه الآن أنهم لم يملئوا الغرفة بعيون سحرية تلتقط كل حركة من حركاته... راح - وقد أصبح مدربًا الآن - يفحص كل شيء ويتأكد من كل شيء... وهو لم يعثر على ما يلفت نظره أو يؤيد شكوكه لكنه

- رغم هذا - أعاد الفحص من جديد. الجدران والستائر واللوحات واللمبات والفراش والمقاعد... و... وكان موقنًا أنهم يرونه وهذا في حد ذاته لا يعنيه فلقد أصبح يتصرف في حياته بحرص غريب. حتى في بيته مع زوجته وبين أصدقائه، في الحمام، بينه وبين نفسه، كان يخشى أن يخطئ مرة أو تفلت منه هفوة... لا يعنيه أن يراقبوه، كان يفحص الغرفة وكل ما يريده أن يعرف: من أين يرونه؟

على الجدار رأى لوحة لوجه فتاة من القرن الثامن عشر، كانت جميلة... لكن جوجو في نظره أجمل.

لم يكن باقيًا على مغادرة السفينة «آرتا» لميناء «بريستول» سوى بضعة أيام... وفي الأيام التي انقضت كان قد أجهد نفسه فأراد أن يستريح ليلة، وافقت جوجو وأوصلته إلى باب الميناء على موعد في اليوم التالي... كان الوقت قبل الغروب بنصف ساعة، أنزلته من السيارة وانطلقت بها ومعها ماري... خطا نحو باب الميناء فجاءته صيحة واحد من البحارة مازحًا:

«هالوا مستر جوجو!!».

التفت إلى حيث كان عدد من البحارة يقفون مع فتاتين من فتيات الموانئ، توقف وحيًا وصافح وتبادل الضحكات مع الرجال الذين شاهدوه وهو يغادر السيارة، ثم راح يتجاذب مع الجميع أطراف الحديث لكن عينيه كانتا ترقبان إحدى الفتاتين وقد راحت ترمقه في نداء صارخ!... في تلك الأيام كان على استعداد أن يصدق كل شيء. كان موقنًا من أنه أصبح محسودًا من الجميع فامتلأ قلبه ثقة بأنه أصبح

محط أنظار نساء الأرض... الرجل منا لا يسعده شيء في الدنيا قدر سعادته بحب امرأة جميلة.

ابتسمت له الفتاة فابتسم، حدثته فحدثها، اقتربت منه فظل في مكانه وتقهقر الباقون وراحوا يرقبون ما يحدث وقد امتلئوا بالدهشة... امتدت الوقفة في أخذ ورد... كانت الفتاة - بالقطع - قد رأته وهو يغادر السيارة وكانت قد رأت جوجو... وعندما غازلته تقبل الغزل مستشعرًا ثقة بلا حدود، وعندما أصبح كل الرجال من حوله كالظلال... حدث ما لم يتوقعه.

فجأة ملأ المكان زئير سيارة تأتي مسرعة، ثم تتوقف بجواره تمامًا وعجلاتها تصرخ.

كانت السيارة سيارة جوجو. هبطت جوجو، وعيناها ترسلان نظرات نارية، وإذا هي تقتحم عليه وقفته وإذا هي تقف بينه وبين الفتاة صارخة: «أتتركني لتقف مع هذه العاهرة؟!».

قبل أن يفتح فمه بكلمة هوت جوجو على وجهه بصفعة هائلة. صعدت الدماء إلى رأسه غضبًا لكن بركان سعادة غامرة انفجر في داخله، ملأ صدره بالهواء، هم بالرد عندما ألهبت وجهه صفعة أشد هولًا... أراد أن يفعل شيئًا لكن يدها كانت تشير نحو السيارة وهي تصرخ:

«اركب!!».

هكذا أمرته فأطاع... وهل كان يستطيع ألا يفعل؟

■ ■ ■

هب واقفًا واتجه نحو التليفون، رفع السماعة وهم بأن يطلب رقمًا ويطلب شرابًا لكنه عدل... أعاد السماعة إلى مكانها، كانت الساعة قد جاوزت الثالثة فشعر بالجوع، غادر الغرفة وهبط إلى بهو الفندق ولم يعرف إلى أين... شعر كأنه حبيس قفص خفي، كان جائعًا لكن نفسه عافت الطعام، خرج من الفندق وسار في شوارع الضاحية التي يقع الفندق فيها، وراح يتأمل كل شيء. اختاروا هذا الفندق لموقعه البعيد عن قلب روما... ما زال أمامه متسع من الوقت حتى يحين موعد الريس زكريا، فهما يلتقيان دائمًا، مجرد وجوده يشعره بالأمان، لكنه قد يراه وقد لا يراه... راح يقطع الشوارع الهادئة وعقله يعمل بسرعة... يبدو له الريس زكريا وكأنه لا يقيم للدنيا وزنًا، بالرغم من أنه يقيم وزنًا لكل كبيرة وصغيرة... ما من مرة تنبأ بشيء إلا ووقع، قال له في آخر لقاء لهما في القاهرة: «بلاش أنت تشوفني المرة دي يا جمعة!».

هتف:

«إزاي بقى... المرة دي بالذات لازم أشوفك!!».

ابتسم الريس زكريا ولم يرد، غالبًا ما كانت إجاباته صامتة.

عاد يلح:

«المرة دي بالذات لازم أشوفك!».

«اشمعنى المرة دي؟!».

تردد جمعة قليلًا، لكنه كبح جماح تردده، قال:

«بصراحة أنا خايف!».

لوح الريس زكريا بيده أمام وجهه وكأنه يطرد ذبابة:

«ما أنت لازم تخاف!!».

هم بالحديث لكن الريس زكريا نظر في ساعة يده وهب واقفًا:

«أول ما ترجع من تل أبيب حاتلقاني قدامك... هو ده المهم!!».

كان الرجل موقنًا من أنهم سيستدعونه إلى تل أبيب، عاد الرجل ينظر في عينيه نظرته تلك الثاقبة:

«ما تنساش إنهم محتاجين لك!!».

هتف جمعة الشوان في رجاء:

«ممكن أسأل سؤال؟».

أطلت من عيني الريس زكريا نظرة عتاب... كان دائمًا ما يطلب منه أن يقول أي شيء يخطر بباله، وأن يذكر له حتى أتفه التفاصيل وألا يختزن في صدره سؤالًا واحدًا... انتظر الريس زكريا لكنه لم يسأل، لم يكن هناك سؤال بل كان هناك قلق بددته ابتسامة ثقة سبحت على وجه هذا الرجل الغامض... وضع يده في ذراعه وسارا جنبًا إلى جنب... وكان الريس زكريا يتحدث بصوت خافت... كان يلقي إليه بآخر التعليمات.

بدا له فندق «دياكونجرسا» على البعد شعلة من الضوء، كان قد قتل الساعات سيرًا على الأقدام، تنبه عندما جاوزت الساعة الثامنة والنصف، أصبح عليه أن يعود إلى الفندق في موعده مع الريس زكريا في تمام الساعة التاسعة.

ولو رآه الليلة فلسوف يسأله سؤالًا واحدًا. سيسأله إن كان متأكدًا من أنهم سيضعونه تحت جهاز كشف الكذب حقًّا!!

كان يعرف طريقه تمامًا... سار في بهو الفندق إلى حيث كان عليه أن يقبع في الدقائق التالية وكأنه يقتل الوقت شأنه شأن من انتهى من أعماله، حتى إذا ما التقى بالريس زكريا، سيصبح عليه أن يكافئ نفسه بوجبة عشاء تعوض اليوم الذي انقضى دون أن يتناول فيه طعامًا!!

■ ■ ■

يوم أن صفعته جوجو وأشارت له ليركب السيارة، ركب:.. انطلقت السيارة تسابق الريح في شوارع «بريستول» راحت ماري تصرخ في جوجو طالبة منها أن تهدئ من سرعتها المجنونة لكن جوجو لم تنصت، كانت غاضبة، كانت تهدد بالغضب وتنذر بالويل، وظل هو صامتًا لا يتحدث... فلقد أراد أن يحتج، فكيف تصفعه أمام زملائه... ؟!

قالت له ماري: لأنها تحبك... فدمدم جمعة مغاضبًا غير أنه في أعماقه كان سعيدًا. إن الأحلام لا تتحقق فرادى... تأتي النجوم إلى كفيه صاغرة وها هي جوجو تعلن على الملأ حبها بعنف أفعمه بالرضا.

ولأنه يحب الطعام الحريف فلقد أخذته - بعد أن هدأت ثورتها قليلًا - إلى مطعم هندي، ولأنه أكول، فقد أرادت أن ترضيه، طلبت له كمية هائلة من اللحم والأرز الكاري... أثناء الطعام نهضت إلى الحمام فنظرت له ماري محذرة وهي تهمس:

«ليكن في علمك أن جوجو تراقبك!!».

«تراقبني؟!!!».

لم يفهم معنى الكلمة... فقالت ماري:

«لأنها تحبك ولا تطيق أن تقترب منك امرأة أخرى!!».

راح في تلك الأيام يرشف السعادة على مهل. كان إذا فتح دولابًا وجد نقودًا. وإذا فتح درجًا وجد نقودًا، وإذا مد يده في أحد جيوبه وجد نقودًا، وإذا تلفت صباحًا أو مساءً أغرقه الحب في طوفان من المشاعر.

ولكثافة ما كان يشعر به وغرابته... راح يتحدث إلى نفسه.

في درجة حرارة تحت الصفر كان يشعر أن جو الكابينة - لفرط حرارته - أصبح خانقًا، كان يفتح «المنبليطة» - النافذة المستديرة في السفن - ويتنفس الثلج ملء رئتيه... سؤال واحد كان يلح عليه في تلك الأيام: حلم هذا أم علم؟!... وإذا كان كل ما يحيط به يؤكد أن هذا علم، إلا أنه كان فوق كل خيال... وكان أشد ما أثر فيه وأمده بفيض من السعادة والشقاء معًا هو إحساسه بالحب.

ذات يوم أخذته جوجو إلى أحد المحال - وهو اليوم لا يذكر اسم المحل أو عنوانه فلم يكن وقتها قد أصبح يحفر المعلومات في ذهنه حفرًا - كان المحل تحت الأرض، هبط معها درجات ليستقبله مكان فسيح هادئ الضوء والصوت معبق بالعطور الغالية تنساب فيه الموسيقى مع الأضواء من حيث لا يدري... تتناثر الموائد في كل مكان ويفوح مع العطور دخان السجائر الفاخرة التي يدخنها الرواد من الشباب... أمسكت جوجو بيده وهمست:

«كل هؤلاء الشبان من العرب!!».

لم تكن في حاجة لأن تنبهه إلى هذا، فلقد صكت أذنيه منذ الوهلة الأولى كلمات عربية بلهجات مختلفة... كان الشبان العرب هم غالبية الرواد، ولقد علم فيما بعد أن إسرائيل تفتح في أوربا ما يسمى ببيوت الملذات لاصطياد الشبان العرب وتجنيدهم. كانوا هناك بالملابس الغالية والخمر المعتقة والحسان في كل لون وشكل، غير أن جوجو كانت لها مكانة خاصة فقدمته إلى مديرة المحل التي تشبه ملكات الأساطير المسيطرات على أقدار البشر... صافحته المرأة بحرارة وقادتهما إلى مائدة وجلست معهما لدقائق تبادلت معه فيها الحديث، ثم دعت نفسها لزيارته في السفينة في اليوم التالي!!

أن تكون محبوبًا، أن تكون مرغوبًا، أن تكون محترمًا، أن تكون قادرًا، أن تكون ثريًا، أن تكون محل حسد الجميع... فهذا كله يبعث على الجنون!!

في اليوم التالي، في الموعد الذي حددته صاحبة المحل لزيارته، كان قبطان السفينة «آرتا» يجري مناورة لاستعمال قوارب النجاة... مناورة روتينية للتأكد من سلامة كل شيء قبل إبحار السفينة، وكان قارب النجاة في ذلك الوقت معلقًا في الهواء فيما بين السفينة، وسطح المياه، عندما توقفت على الرصيف سيارة جوجو وسيارة أخرى وهبطت ثلاث نساء ذروة في الجمال... جوجو وماري وصاحبة المحل، وكان هو هناك على سطح السفينة قد ارتدى ملابس البحار السوداء... توقفت المناورة وظل القارب معلقًا والتفتت كل الأعناق نحو المشهد الغريب...

استقبلهن جمعة الشوان عند قمة السلم وكانت كل منهن تحمل في يدها لفافة.

كيف لم يجن في تلك الأيام... ؟؟

كيف؟!... كيف وهو يرى البحارة يفسحون له الطريق؟!... كيف وهو يتبادل مع القبطان التحية كصديقين؟!... هو المهاجر المهجر الضائع المضيع الفاقد لكل شيء، الخارج إلى العالم بحثًا عن الرزق... كيف... كيف لم يجن في تلك الأيام وقد فتحت له الدنيا كل هذه الأبواب؟!

لكنه – أيامها – لم يكن يفكر، ولم يفكر!!

كان إحساسه بالحياة أقوى من أية دهشة ومن أي تساؤل... غير أنه يوم أن قالت له جوجو: «غدًا سنلتقي بأبي»، أحس وكأن شيئًا هائلًا سوف يحدث.

■ ■ ■

نظر في ساعته، وكان باقيًا على موعد الريس زكريا خمس دقائق.

ماذا يحدث لو أنهم رأوه وهو يقابله؟!... ماذا سيفعلون لو أنهم اكتشفوا أمره؟!... ما الذي سيحدث له؟... ما الذي يمكن أن يفعلوه به؟

■ ■ ■

في ذلك اليوم الذي حددته جوجو للقاء أبيها استيقظ مع الساعات الأولى من الصباح، كان عليه أن يستعد لهذا اللقاء الذي بدا له كحلم...

لم تكن المشكلة في ذهنه مشكلة حب أو زواج، كانت المشكلة أنه سيلتقي لأول مرة - وربما آخر مرة - في حياته بمليونير!!

مليونير!!

كانت الكلمة أكبر بكثير مما يحتمل... هؤلاء الناس يسمع عنهم ولا يراهم أبدًا... ولطالما كان يتساءل: كيف يبدو المليونير؟... هل يحيا حياته كما يحياها الناس والبشر؟... هل يأكل ويشرب مثلهم؟... هل؟!... هل؟؟

دخل الحمام وحلق ذقنه وغسل جسده، وارتدى أفخر ما لديه من ثياب...

وعندما كانت السيارة الجاجوار تعبر به بوابة المصانع الضخمة التي وصل إليها في مانشيستر، أحس لأول مرة في حياته بضخامة ذاته، وقد يضرب القدر ضربته معه فيصبح مالكًا لهذه الإمبراطورية المهولة من الآلات والسيارات واللواري والعمال والموظفين... هبطا من السيارة ليستقبلهما حارس يرتدي زيًّا رسميًّا وينحني احترامًا لجوجو... كان يسير خلفها وكأنه يسير فوق أرض من سحاب، ودقات قلبه راحت تتلاحق وتضرب قفصه الصدري في عنف بالغ، المصعد والهدوء والسكون والأرض المكسوة بالسجاد الفاخر، أخذ يعدل من وضع الجاكيت الأزرق والبنطلون الرمادي والبلوفر الأبيض الثمين... دخل خلفهما مكتب سكرتيرة جميلة فارهة القوام هبت لاستقبالهما في ترحاب، فتح الباب واحتواه مكتب انعدمت في داخله الأصوات.

الشعر الأبيض والوجه الأحمر والعينان الزرقاوان والنظرات الفاحصة النفاذة... وكانت جوجو تتقافز وسط النعيم بلا مبالاة... قبلت أباها وقبلها واحتفظ بذراعه حول خصرها ورمقه بنظرة سريعة وقالت جوجو: هذا هو!... مد الرجل يده مصافحًا، وانحنى جمعة في أدب ثم جلس حيث أشار مستر ديفز وكان الرجل يغمغم:

«حدثتني جوجو عنك كثيرًا!!».

وكان هذا هو كل ما قاله، قاله واستغرق تمامًا في أوراق أمامه، ثم استغرق في الرد على التليفونات، ثم استغرق في استقبال المديرين والموظفين... طلب له كوبًا من العصير وكانت جوجو تصنع في تلك الجنة جلبة يستقبلها الجميع في حب وترحاب... ظل صامتًا تائهًا ومضى الوقت وحان موعد الانصراف فودعت جوجو أباها والتفت الرجل إليه بعينيه النفاذتين وقال:

«إني على استعداد لمساعدتك... وتستطيع أن تعتبر نفسك موظفًا في هذه المصانع بالمرتب الذي يكفيك!!».

هكذا يتحدث المليونيرات، في اقتضاب وحسم... قال لنفسه هذا وهو يجلس في السيارة بجوار جوجو... ورغم برودة الهواجس أحس وكأن نارًا مستعرة كانت تشتعل في جوفه... قالت جوجو وهي تغادر به المصانع:

«هل أعجبك أبي؟».

وابتسم ولم يرد...

❖ ❖ ❖

نظر في ساعته وكانت التاسعة إلا ثواني فنهض إلى الحمام...

كان يعرف طريقه جيدًا... دق قلبه بعنف وهو يعبر البهو الواسع لأوتيل «دياكونجرسا»...

بعد لحظات سيلتقي بالريس زكريا... دلف إلى الحمام واتجه نحو الحوض الأوسط مباشرة... هناك وجد الريس زكريا فتنفس ارتياحًا... كان الحمام خاليًا من الناس... وعلى الحوض الأوسط كان ثمة دبلة معدنية من التي تباع في أوروبا بقروش قليلة... نظر إليها وكانت هي العلامة المتفق عليها، غسل يديه وجففهما بالفوطة الورقية، وغادر الحمام وقد بدأت معدته تصرخ بجوع قاتل!!

دلف إلى المطعم واختار مائدة جلس إليها وجاء الجرسون فطلب طعامًا دون أن ينظر في القائمة، كان يعرف ما الذي يريده... اسباجتي واسكالوب.

هذه هي الوجبة المفضلة التي تذكره دائمًا بأيامه الغريبة مع جوجو!!

أشعل سيجارة ونفث الدخان في هدوء وارتياح... جال بعينيه في المكان، فجمد الدم في عروقه.

الفصل الثامن

... أخذ يروح ويجيء في الغرفة كالحبيس، أراد أن يغادرها فأصابه الرعب من لقاء لا يستطيع احتماله. أراد البقاء وها هو يشعر بالجدران تطبق عليه، أراد النوم فلم يستطع، أراد الجلوس فضايقه الوضع، ارتدى ملابسه فلم يتحرك عقله، خلعها مرة أخرى فلم يتغير شيء... فتح البار الصغير الملحق بالغرفة وكانت صناديق البيرة الصغيرة متراصة أمامه، فتح صندوقًا واحتساه، ثم فتح صندوقًا ثانيًا وثالثًا... و... و... وسادسًا، لكن كل شيء ظل كما هو، ارتدى البيجامة وخلعها، وارتدى البدلة وخلعها، نام، وقف على رأسه وحبا على يديه وقدميه وتمرغ فوق الأرض وقرفص... فعل كل ما يمكن أن يفعله، ولا فائدة، ولا فائدة!!

ها هو التوتر العظيم يبدأ... كان قد انصرف من المطعم بعصبية ودون روية، عندما رأى ما رآه قفز من مكانه كمن لدغ على غير توقع، كاد يصطدم برواد الفندق الذين امتلأ بهم البهو، توقف، نظر يمينًا ويسارًا فلم ير شيئًا ولم ير أحدًا... كان أول ما فكر فيه عندما غادر المطعم أن ما فعله كان خطأ فادحًا، فكر في العـودة مرة أخـرى غير أن هذا كان هو الحمق بذاته ولا بد أنهم سوف يحاسبونه، هؤلاء وأولئك ربما... كيف ولم ولماذا؟!... وتحركت قدماه نحو موظفة الفندق الجميلة، همس

طالبًا منها تحويل العشاء إلى غرفته، كان هذا هو الحل الوحيد، دلف إلى المصعد وقد توقف ذهنه تمامًا عن العمل وأحس برأسه خاويا... لم يعنه هذا الأمر في البداية فلا بد أنه في حاجة إلى أن يختلي بنفسه، وضع المفتاح في ثقب الباب ودلف إلى الغرفة وكان يلهث!!!

الهدوء والسكون والضوء الخافت وقد تكون هناك عشرات العيون تتلصص عليه الآن لكنها لن تستطيع التلصص على أفكاره، وعندما رأى الدبلة المعدنية فوق الحوض الأوسط في حمام الفندق، أيقن أنه سوف يرى الريس زكريا عاجلًا أو آجلًا... سيراه رغم أنه لم يعده بذلك، رغم أنه قال: «ضروري» فهل جد في الأمر جديد؟... هل استشعر الرجل خطرًا يحدق به فعدل من خطته وجاءه على غير موعد؟

عاد الفأر يلعب في عبه من جديد، إن معنى الدبلة المعدنية فوق حوض في حمام فندق يضم ألوف البشر أنه سيراه، لكنه لن يتحدث إليه إلا إذا جاءته علامة أخرى... وعندما دلف إلى المطعم وطلب ما طلب راح يتنقل بعينيه بين الرواد فرآه... الريس زكريا بلحمه وشحمه، رقص قلبه طربًا واطمئنانًا، في مائدة في أحد الأركان كان «الريس زكريا» يتناول العشاء، ابتسم طربًا فها هو يراه لأول مرة وهو يجالس حسناء شقراء أقرب إلى نجوم السينما من بنات الناس ثم... ثم هو يلقي عليه في كل مرة يلقاه، بالمواعظ الدينية كأي أزهري محنك... كمبشر بالتوبة في عالم من الخطاة، أشعل الشوان سيجارة وانتقل بصره إلى المائدة المجاورة وكان هناك: «رامي».

وهكذا – ولهذا – جمد الدم في عروقه!!!

«رامي» هو آخر من تعامل معه من ضباط المخابرات الإسرائيلية... يجلس إلى مائدة مجاورة!!!

الريس زكريا، ضابط المخابرات المصري الذي يلقنه ويعلمه ويدربه ويحركه منذ خمس سنوات، يجلس إلى المائدة المجاورة لرامي ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي يقابله ويمده بما يريدونه منه!!...

القط والفأر، الصائد والفريسة، لا يفصل بينهما شيء وتفصل بينهما في الحقيقة بحور وبحور... وهو، هو بالذات، هو دون خلق الله جميعًا، همزة الوصل وبؤرة المباراة العنيفة، بينهما!!

هكذا لم يحتمل جمعة الشوان، هكذا هب واقفًا كمن لدغ وغادر المطعم، وكان هذا الذي فعله في فن التشغيل - من هذا وذاك - خطأ فادحًا، وها هو الآن في الغرفة الهادئة وحده... راح يبحث عن عقله فلم يجده... مدد ساقيه واسترخى في جلسته وألقى برأسه إلى الوراء وترك نفسه لنفسه تفعل بها ما تشاء.

* * *

كيف كان كل ما كان منها تمثيلًا؟!... كيف كان زيفًا هذا الذي قالته جوجو وصنعته معه؟!

يوم أن قابل أباها وغادر معها مصانعه أخذته إلى ماري. في أحد محالها كانت تدير العمل وتراجع الحسابات وتعطي الأوامر وتتلقى التقارير ويعاملها الجميع في احترام شديد، غير أنه لم يمكث مع ماري طويلًا فلقد أخذته جوجو إلى المطار.

«إلى أين؟!»

قالت جوجو:

«لندن!»

رغم كل شيء فلقد وافق... كان قد غادر السفينة في ذلك اليوم مستأذنًا على أن يعود في المساء، فهل يطير إلى لندن ويعود إلى مانشستر ثم إلى بريستول في الموعد؟...

«فلتذهب السفينة إلى الجحيم!!»

هكذا قالت له جوجو وهما يصعدان إلى الطائرة، ورغم هذا ترك كل شيء، حتى نفسه، لتيار دافق كان يجرفه إلى حيث لا يعلم.

«جوجو... لا بد من العودة إلى السفينة في الموعد!!»

لوحت بيدها كمن يلقي بالأمر كله إلى سلة مهملات. لم ترد.

«جوجو... في السفينة عملي، وموعدي مع القبطان في السادسة و... و... و... »

قال هذا وهما يسيران في شارع أكسفورد، قاطعته، وهي تتعلق بذراعه، متسائلة:

«ما الذي سيحدث لو أنك لم تذهب الليلة!»

«سيفصلني القبطان!!»

«وهذا ما أبغيه بالضبط!»

قالت هذا وهي ترميه بنظرة ألزمته الصمت، قضيا في «لندن» يومًا رائعًا، وفي المساء طارا عائدين إلى «مانشستر»، وفي المساء كانت السيارة تنهب بهما الطريق إلى «بريستول» في طريق العودة، وكان جمعة سكران بلا شراب!!

هذا الذي رآه من يصدقه إن حكاه؟... عبير لندن يملأ جوانحه بسعادة غامرة، شارع أكسفورد بمحالِّه وبضائعه وزحامه، ميدان الطرف الأغر وأسراب الحمام الذي وقف على كتفيه ورأسه، دور السينما والأفلام الجنسية وقبلات جوجو على قارعة الطريق، التسكع والتجول والطعام في «البيضة الذهبية»... على شاطئ «التيمس» صرخ بكل صوته في مرح:

«تعالي يا أم جمعة شوفي الأملة اللي فيها ابنك!!!»

ولم تسأله جوجو عما قال، كانت ترى سعادته فتبتسم وتسأله إن كان يريد المزيد، وعندما وصلت بهما السيارة إلى «بريستول» لم تذهب جوجو إلى الميناء، توقفت أمام فندق كانت قد حجزت فيه غرفة لاثنين!!

«جوجو» صاحت فيه قبل أن يكمل:

«لتذهب السفينة إلى الجحيم!!»

غير أن السفينة لم تذهب إلى الجحيم... هو، في تلك الليلة الذي تمرغ في الجحيم.

وعندما استيقظ في ضحى اليوم التالي كان منهكًا من الحب، وموقنًا أنه فصل من عمله بالسفينة، كان متعبًا باللذة لاهثًا بنعيم لم يخطر له على بال... وكانت جوجو راقدة إلى جواره!!

■ ■ ■

كان الدق على باب الغرفة خافتًا فلم ينتبه إليه، وكان للسكون صوت فبدأ الدق كالصمت... أخذه الماضي أخذا فاستنام إليه كمن يهرب. غير أن الدق زاد فانتبه، هب في مكانه جالسًا وهو يصيح بالعربية: «مين؟»... عاد الدق مرة أخرى فتذكر العشاء ونهض إلى الباب، عندما غادر الجرسون الغرفة عاد وحيدًا من جديد... ليت الطعام يستطيع الكلام، الإسباجيتي، والإسكالوب يقبعان تحت أغطية معدنية نظيفة لامعة تغري أشد الناس شبعًا بالتهام ما تخفيه من طعام... لكنه هو، النهم، لم يكن قادرًا في تلك اللحظة حتى على النظر إليه!

كل ما أراده وما ابتغاه في ذلك الوقت أن يفكر. في صدره بركان من الخوف يتفجر بعشرات الهواجس... ذهنه راكد غير قادر على الحركة، الماضي حقيقة تسرد ذاتها بذاتها، لكنه الآن يتحول من إنسان إلى شيء، مجرد شيء جالس على مقعد وثير في غرفة هائلة... أين يذهب العقل منه؟!، ربما كانت جلسته الرتيبة هي السبب فليخرج إلى الشرفة، ربما كان الضوء الخافت هو السبب فليضئ كل الأنوار وهاهي الغرفة تسبح في نور باهر ينبعث من كل ركن وكل مكان، وها هي الشرفة تطل على حدائق كالجنان... تمدد على المقعد فيها فغسلت وجهه نسمات الليل الشديد البرودة فارتجف... غير أن عقله ظل راكدًا لا يتحرك!!

وتسلل الماضي إلى خلاياه... وأطلق ضحكة خافتة سرعان ما ماتت على شفتيه.

❖ ❖ ❖

استيقظ جمعة الشوان في ضحى اليوم التالي وكانت جوجو ترقد إلى جواره!

نفس الرقدة التي ما إن يتذكرها حتى تسري في عروقه موجة من كهرباء غامضة... على وجهها كانت ترقد كعادتها عارية... كما ولدتها أمها، وهو، هو يملكها، يملك هذا الجسد الرائع... وفي الليلة الماضية امتلأت معدته بالخمر ورأسه بسحب الدخان الأزرق وسمعت أذناه حديثًا لم يسمع في حياته أعذب منه!!

جوجو... جوجو... جوجو...

هبت من النوم عند أول حركة له وكأنها تخاف أن يفلت منها، أحاطت عنقه بذراعيها وعبثًا حاول التخلص منها، عبثًا... السفينة، القبطان، الرجال، المخازن، المفاتيح، الـ، الـ........

وكان عليه أن يقول كل ما يريد لكنها لم تتركه... فهل كان أمامه سوى الاستسلام؟!!

ظل مستسلمًا حتى أطلقته، وكانت الساعة قد جاوزت الرابعة بعد الظهر.

عند سلم السفينة تركته وانطلقت بسيارتها. عند سلم السفينة استقبله الرجال بالدهشة والقلق والأسئلة والحكايات، والقبطان الغاضب الثائر المهدد بالويل والثبور وعظائم الأمور.

قبل أن يصعد سطح السفينة كان قد علم بكل ما حدث... كيف سأل القبطان عنه، كيف موهوا عليه في البداية ساعة وساعتين ثم انكشف

الأمر عندما وشى به واحد من الزملاء لم يستطع أن يعرف من هو، ولم يعنه أن يعرف من يكون!!

عندما دلف إلى الكابينة اكتشف أنه غير مبال، انتظر أن يستدعيه القبطان لكن شيئًا من هذا لم يحدث. مر الليل وانتظر مع الصباح قدره، لكنه عندما وقف أمام القبطان الذي استدعاه، كان قد استقر على رأي... قبل ساعة كان قد جمع حاجياته وجهز حقائبه ولن يكلفه الأمر سوى تليفون إلى جوجو تأتي بعده و تأخذه إلى حيث ينتظره نعيم مقيم... لم يكن على استعداد لأن يسمع إهانة واحدة حتى ولو كانت صادرة من قبطان السفينة، غير أن المفاجأة أصابته بذهول عندما قال القبطان في رقة:

«مستر جوجو... أين كنت طوال يوم أمس؟!»

كان قد أعد نفسه لكل الاحتمالات إلا هذا، أحس وكأنه سقط في فخ نصب له فلم يكن الرجل غاضبًا ولم يكن ثائرًا... وكان عليه أن يؤلف – في الحال – قصة يبرر بها غيابه طوال يومين.

وحكى للقبطان حكاية لا يصدقها عقل طفل في العاشرة... فهز القبطان رأسه قائلًا:

«حسن مستر جوجو... لا تفعلها مرة أخرى!!!»

يومها أحس أن الله يقف بجواره... إحساس غريب هو، لكنه ملأ وجدانه تمامًا...

يومها قال لنفسه كلامًا كثيرًا... قال إن القبطان يعرف أنه صديق لصاحب السفينة ولهذا لم يعنفه ولم يفصله... قال إن القبطان في حاجة إليه ولم يكن جاهزًا بمن يحل محله فتغاضى عن الأمر كله، قال إن جوجو بما لها من نفوذ استعملته فهدأت ثورة القبطان وتبددت، قال وقال وقال، قال كلامًا كثيرًا... غير أن شيئًا واحدًا ظل مسيطرًا عليه، إلهام هو، شيء كالحدس الفلسفي أو قل هو الوحي، جعله يضع قراره نصب عينيه: ألا يترك السفينة مهما كان الأمر، وألا يستمع إلى ما تقوله جوجو. غير أن يوم الوداع جاء... وكان يومًا حافلًا .....

■ ■ ■

نفذت برودة المساء إلى عظامه وكاد يتجمد في الشرفة، غادرها إلى الداخل وراح ينظر إلى مائدة الطعام طويلًا... راودته نفسه أن يأكل لكنه لم يفعل... تلفت حوله وبدأ يفحص الغرفة من جديد، الخوف القاتل في أعماقه يشله ويحول ذهنه إلى شيء راكد فإذا به يصاب – مع إحساسه بفراغ رأسه – برعب قاتل... ربما دخلوا عليه في جوف الليل وذبحوه، وكان عليه – بعد أن واتته الفكرة – أن يغلق الغرفة بالمفتاح ويغلق النوافذ ويحكم كل شيء ويدور حول نفسه... من أين يرونه؟... من أين يسمعونه؟... هؤلاء أم أولئك، المصريون أم الإسرائيليون، أعاد فحص الأشياء جميعًا، المقاعد والبراويز والفراش والمائدة والمكتب حتى صينية الطعام وسجادة الأرض... زحف وركع وفحص ودخل الحمام وخرج منه وأصبح وكأنه مجنون تطارده أشباح.

ما الذي يخبئه له القدر؟

لماذا يعجز عن التفكير؟ ولماذا توقف ذهنه وركد حتى أصبح يشعر بدبيب الموت يسري في أوصاله؟!!

نظر في ساعة يده وكانت تدق تدق تدق والزمن يمضي متثاقلًا!!

كيف عساه يتصرف معهم؟!... ماذا سيفعلون به؟

من منهم سوف يلقاه أولًا؟!

ماذا ولماذا وأين وكيف ولم وهل وعشرات الأسئلة ولا جواب. عقله راكد، عقله رافض، عقله... أين عقله؟!!

نضح العرق من جديد، ولربما كانت ملابسه وحرارة الغرفة هي السبب، قرر أن يخلع ملابسه فخلعها وأصبح عاريًا. وقف أمام المرآة وابتسم... جوجو هي التي علمته طعم العري الحقيقي!!!

■ ■ ■

وإذا كان لكل شيء نهاية... فلقد أتته النهاية وكان على السفينة أن ترحل بعد 12 يومًا قضتها في ميناء برستول!

«جمعة... هل أعدت التفكير؟»

«جوجو... لقد عشت حياتي كلها في البحر، إن من كان مثلي مثل سمكة إذا غادرت المياه ماتت اختناقًا!!».

«يا حبيبي سأفتقدك كثيرًا!!»

وكانت ليلة الوداع فوق كل خيال. عندما كان يودعها دست في جيبه خمسين جنيهًا.

«إذا احتجت إلى المال فاكتب إلي!!»

أعطته عنوانًا وهي تؤكد عليه:

«اكتب إليَّ من كل ميناء تصل إليها»

أكد لها أنه سيفعل فعادت تقول:

«اكتب إلي لتخبرني إلى أي ميناء ستبحر السفينة!».

كان التأثر قد أخذ منه كل مأخذ.

«وإذا أغضبك القبطان، أو تركت السفينة فأرسل لي برقية آتيك في نفس اليوم!»

هز رأسه موافقًا وممتنًّا، لكنها أردفت:

«وإذا رست السفينة في ميناء إنجليزي فحدثني في التليفون!!».

كاد يسأل عن رقم التليفون عندما أعطته رقمين.

«هذا الرقم لبيتنا وسترد عليك أمي، أما هذا فلصديقة لي!».

أخذ الورقة فأخرجت من حقيبة يدها صورة لها.

«هذه صورتي!!»

كادت الدموع تطفر من عينيه.

«لا تنسني».

«أبدًا»

هكذا هتف ثم أردف:

«أبدًا لن أنساك ما حييت!!»

ولقد بر جمعة الشوان بوعده حتى اليوم.

■ ■ ■

ولم يساعده العري على التفكير، لم يحرك ذهنه... وإذا كان العري لم يساعده على التفكير، وإذا كانت الملابس تحجر على ذهنه، فما السبيل إلى تحريك هذه الصخرة الراكدة في جمجمته؟!... رفع سماعة التليفون وأدار رقمًا وهتف بإيطالية البمبوطية:

«أرسل إلي نصف دستة من علب البيرة المثلجة!!».

ربما... ربما حركت البيرة عقله...

كان يروح ويجيء في الغرفة كالحبيس، أراد أن يغادرها فأصابه الرعب من لقاء لا يستطيع احتماله... أراد البقاء وها هو لا يستطيع احتماله... يشعر بالجدران تطبق عليه... أراد النوم فلم يستطع... أراد الجلوس فضايقه الوضع... ارتدى ملابسه فلم يتحرك عقله، خلعها مرة أخرى فلم يتغير شيء، شرب علب البيرة الست التي جاء بها صبي في الثامنة عشرة، وظل كل شيء على ما هو عليه... ارتدى البيجاما وخلعها وارتدى البذلة وخلعها، نام وقام، وقف على رأسه وحبا على يديه وقدميه وتمرغ فوق الأرض وقرفص، فعل كل ما يمكن أن يفعله ولا فائدة، لا فائدة!!

ظل ذهنه راكدًا... ورأسه يطن بالخواء نفسه. ولقد علموه في الصغر أن الإنسان لا يتعلم العوم إلا في المياه العميقة، ولذا فلقد قرر أن يلقي بنفسه في البحر... ففتح باب الغرفة وانطلق لا يلوي على شيء...

لا شيء كان يريده، لا شيء سوى أن يجد إنسانًا يتحدث إليه، تعب من الحديث مع نفسه، غادر الفندق وراح يوسع الخطى في الطرقات، على مقربة من الفندق مطعم تعود أن يأكل فيه صنفًا من الطعام لا يعرف اسمه، كل من في المطعم يعرفونه باسم مستر كلاي، وكان هو - مرة بعد مرة - قد استعذب اللعبة فراح يقلد بطل العالم في الملاكمة، دخل إلى المطعم واتخذ سمة الملاكم وراح يتمايل في مشيته، كان يعلم أن ما يفعله عبث، أنه «لعب عيال»، وكان يعلم أنهم ينظرون إليه على أنه ساذج، وكان هذا بالذات ما يرضيه أشد الرضا، فما أعذب أن تكون ساذجًا في عالم لا يعرف لغة سوى الدهاء...

«هالو مستر كلاي».

ابتسم وصافح الجرسون وشد على يده بعنف ثم قال:

«كالمعتاد!!».

امتلأت المائدة أمامه بالطعام ولم يكن جائعًا لكنه أكل... وكان لا بد أن يأكل أضعاف ما يكفيه ليثبت للجميع أنه مثل بطل الملاكمة العالمي!

وقف إلى جوار الجرسون وأخذ يتجاذب معه أطراف الحديث... لم يكن يعنيه ما يقول لكن الذي كان يعنيه أن يتبادل الحديث مع أحد، أن يحدث إنسانًا غير نفسه.

ولقد أكل... أكل وأكل حتى امتلأ ولم يعد في معدته مكان للمزيد، ولقد تحدث، تحدث في كل شيء وأي شيء، قال إنه معجب بصوفيا لورين والسينما الإيطالية والفن الإيطالي... و... و... ثم آن له أن

ينصرف، فدفع الحساب، ونفح الجرسون بقشيشًا سخيًا، وغادر المطعم ليحتويه السكون من جديد.

فهل مات عقله؟

■ ■ ■

كانت السفينة في طريقها من «بريستول» إلى ميناء «فوج واي» - أي طريق الضباب - وأنت إن أردت العثور على هذه الميناء فوق أي خريطة في أي أطلس فلن تجدها، هي ميناء صغيرة على الشاطئ الغربي لبريطانيا، المرصع بعشرات العشرات من الموانئ الصغيرة والكبيرة، غير أن الذي أذهل جمعة الشوان كان شيئًا لم يخطر له على بال!!... كان يفكر منذ غادرت السفينة «بريستول» كيف اختفت جوجو من حياته؟!!... الشيء المؤكد أنه حتى وصوله إلى «فوج واي» كان يعيش ذكريات أحلى أيام عمره على الإطلاق، وكان يروح على السفينة ويجيء، يأكل وينام، يحدث ويتحدث يسامر ويتسامر، يسمع ويستمع، غير أن شبح جوجو كان يملأ وجدانه، وما حدث له منها، كان - لا يزال - فوق إدراكه!!

وصلت السفينة إلى «فوج واي» ورست على الرصيف وبدأت الحركة... تحركت الأوناش وتصايح الرجال، وبدأ الاستعداد للتفريغ أو للشحن... وعند الغروب كان كل شيء قد هدأ، هدأت الحركة في الميناء كما هدأت على سطح السفينة بعد يوم حافل بالعمل، فاستكان جمعة الشوان إلى كابينته، تمدد فوق الفراش واستغرق في التفكير عندما فتح «ديموس» - صديقه اليوناني - باب الكابينة هاتفًا:

«مستر جوجو!!»

هب الشوان جالسًا ووضع نظارته فوق عينيه وكان وجه «ديموس» يبتسم بألف تعبير:

«ماذا هناك يا ديموس؟!»

«إن جوجو على الرصيف!!»

لم يكن من الممكن أن يصدق...

«جوجو»؟

«إنها هناك... وهي تسأل عنك!!»

هكذا قال ديموس...

وكانت جوجو في ميناء «فوج واي» على الرصيف حقًّا... وكان البحارة أيضًا هناك عند السياج ينظرون ويبتسمون ويدهشون ويتغامزون ويعلقون.

صعدت سلم السفينة فتلقاها الشوان مهرولًا نحوها لكنها لم تكن وحدها، بجوارها كانت ثمة غادة هيفاء، قوام ممشوق ووجه حالم التقاطيع وعينان تترقرقان في لون مياه المحيط، شعر مسترسل كأمواج الذهب، وابتسامة تخلع أعتى القلوب، وقالت جوجو وهي تقدمها له:

«روز»

في الكابينة جلست جوجو على ساقيه، قبلته، همست في شفتيه:

«افتقدتك كثيرًا يا حبيبي، لم أستطع إلا أن آتي إليك ولو كنت في كوكب آخر!!»

وكان جمعة الشوان سعيدًا. كان نشوان، كان يتقافز في داخله فرحًا مرحًا، أحاط جوجو بذراعيه وراح يمطرها بالقبلات غير أن عينيه كانتا تزحفان، دون وعي منه، إلى العينين المترقرقتين اللتين أخذتا لونهما من لون مياه محيط شديد العمق... لفت نظره أن عيني روز لا تفارقان وجهه، إذا تحرك أحس بهما تتبعانه، إذا تحدث قالت له إنهما تستمعان إليه، فما الذي يحدث؟!... ما الذي يحدث؟... قفزت جوجو صائحة:

«لقد نسيت شيئًا في الفندق سأذهب لإحضاره!!»

لفرط ما كان يشعر به جمعة الشوان من غرابة... كان يسبح في بحور من الدهشة، كان – في الحقيقة – ضائعًا.

غادرت جوجو السفينة وتركت له «روز»... لم يدر لم غادرته ولم يكن يعنيه، انفردت به «روز» دون أن تنطق حرفًا... ظلت صامتة طوال الوقت، بل إنها لم تغادر مكانها، فقط عيناها كانتا تتبعانه أينما تحرك؛ وكانت العينان تقولان ما لا يصدقه عقل رجل مثل جمعة الشوان... كان يدور حول نفسه، تتلاطم في رأسه عشرات الأفكار والأسئلة، غادرتهما جوجو، جوجو في الفندق، جوجو ليست معنا، روز هي التي تجلس، هي التي تنتظر، هي التي تتحدث عيناها، هي التي تبتسم... تبتسم روز وقد انحسر فستانها القصير بفعل فاعل، كان يجلس على طرف الفراش وكانت تجلس على مقعد مقابل، نهضت أخيرًا فظل جالسًا أمامها، وقفت فرفع إليها عينين تائهتين، تقدمت منه فتهدجت أنفاسه...

انحنت عليه فترك لها نفسه، احتواه شعرها الذهبي بمئات الأذرع الناعمة كالحرير... غرق في عطر فجر براكين غرائزه، أحاطته بذراعيها فغاب معها في قبلة كالجحيم... ثم فتح الباب، وجاءته صرخة جوجو:

«أيها العاهر!!»

وانتفض.

■ ■ ■

انتفض جمعة الشوان وكانت الغرفة المضيئة غارقة في الصمت. هب واقفًا وسط الأضواء الساطعة وكان قلبه يدق بعنف وأنفاسه لاهثة.

قرر أن يحسم أمره وأن يبحث لنفسه عن وسيلة يحرك بها عقله. يمضي به الوقت... يسيطر عليه الماضي، لكن عقله راكد.

يلح عليه الماضي فيحتويه، ترى: هل يودع الدنيا؟

نهض إلى الباب مرة أخرى، أغلقه بالمفتاح، ثم نظر إلى المفتاح، قد يستطيعون إذا ما غفا أن يسقطوه من الخارج، أن يسحبوه على جريدة كما يحدث في الأفلام، أن يقتحموا الغرفة، أن يقتلوه، يذبحوه... أخذ المفتاح، بحث عن مكان يخبئه فيه، بحث... بحث، قارن ثم اختار السيفون... ألقى بالمفتاح فيه ثم عاد، قبل أن يعود إلى الفراش، تحرك عقله قليلًا، تذكر ورق اللعب!

هرع إلى الحقيبة السمسونايت لكنه قبل أن يفتحها تذكر «علبة الكبريت»... هرع إلى الدولاب لكنه قبل أن يفتحه فضل الكوتشينة،

وعاد إلى الحقيبة ثم إلى الدولاب ومن الدولاب إلى الحقيبة ثم قرر أن يلعب اللعبتين.

هكذا بأوراق اللعب وعلبة الكبريت، تعود أن يلاعب نفسه كما تعود أن يحدث نفسه!!

جاء بأوراق اللعب وعلبة الكبريت وجلس إلى المائدة الصغيرة ووضع مقعدًا على الناحية الأخرى ووضع فوق المقعد وسادة كأنها هي الغريم... ثم بدأ في توزيع أوراق اللعب بينه وبين الوسادة!!

لعب عشرة كومي فكسب، لعب عشرة أخرى فخسر، لعب التطبيقة فطال به الأمر وأحس بالاختناق فقال بصوت عال:

«نلعب الدوري أحسن!!».

جاء بورقة قسمها إلى ثمانية أقسام وخص كل قسم بدولة، وأصبحت لديه خانات لإنجلترا، وفرنسا ، وبلجيكا، وألمانيا، وروسيا، وأمريكا، وإيطاليا، واليونان. أخذ علبة الكبريت وبدأ يقذف بها في الهواء لتسقط على المائدة، فإذا سقطت على جانبها المستطيل كسب نقطة، وأما إذا سقطت على وجهها أو ظهرها كالقتيل، خرج اللاعب من التصفية!!

هكذا بدأ المباراة... دور الثمانية ثم دور الأربعة ثم الدور قبل النهائي ثم مباراة كأس العالم ثم صرخ جمعة الشوان بملء صوته: «أنا حاتجنن!!».

ولم يبق سوى الحبوب المهدئة، آخر أسلحته. فتح الزجاجة وتناول حبتين، رقد فوق الفراش ووضع الوسادة فوق رأسه وقال: «أنا دلوقت حانام»... لكنه لم ينم. بدأ شريط الماضي من جديد يروي له القصة.

هذه المرة لم تكن المعركة بين جوجو وبين روز فلقد التزمت روز الصمت.

■ ■ ■

كانت المعركة بين جوجو وبين جمعة... معركة علت فيها الأصوات والصرخات وتجمع البحارة عند باب الكابينة يستمعون في شغف لصراخ امرأة مجروحة... غير أن الأمر في النهاية هدأ، وقبل أن تبحر السفينة من «فوج واي» أعطته جوجو مائة جنيه وقبلته، وقالت له إنها تحبه وطلبت منه أن يكتب لها فوعد، ولقد بر بوعده... أبحرت السفينة إلى ألمانيا من جديد وما إن وصلت إلى «قناة كيل» حتى وجد جمعة الشوان خطابين في انتظاره، وعندما قرأهما له ديموس حفظهما عن ظهر قلب... وجلس كي يكتب لها، لم يكن أمامه سوى أن يكتب، كان يشعر أنه مدفوع إلى قدر لا قبل له به... في أعماق دهشة تغلف رفضًا لواقع كان يفرض نفسه عليه فرضًا... وعندما أبحرت السفينة من ألمانيا وجد الشوان خطابًا من جوجو في انتظاره فور وصول السفينة إلى الميناء الجديد، وكان هذا فوق قدرته على الشك... فهل هناك دليل حب أقوى من هذا!!

في لحظة، قرر الشوان أن يستسلم لها تمامًا، كان - كلما أراد الاستسلام - تصاعد الشك في صدره، فمنذ متى قد تحول من جمعة الشوان إلى رودولف فالنتينو؟!... لكنه الآن أصبح واثقًا من حبها له... وما إن اتخذ قراره هذا بالاستسلام حتى تفجرت ينابيع عاطفة هوجاء كانت كامنة في قلبه، وكانت - فقط - في حاجة إلى الإذن بالانطلاق!

نعم... هكذا قال جمعة لنفسه، هو يحبها!

وهو... مهما قال اليوم ومهما أنكر ومهما جادل نفسه، إلا أنه لا يستطيع أن ينكر حقيقة واحدة، هي أنه عاش في تلك الأيام أغرب قصة حب يعيشها إنسان... قصة حب جعلته لأول مرة وبعد أن اشتد به الشوق والتهبت عواطفه، يكف عن النظر إلى الأخريات... اكتشف الشوان أنه أحب جوجو بقدر جعله يكتفي بذكراها، وكانت تكفيه - في لحظات الشوق العارم - نظرات يختلسها من صورتها التي علقها بجوار فراشه... ولقد كانت السفينة تبحر من ميناء إلى ميناء... من قناة كيلي إلى كوبنهاجن إلى هلسنكي إلى استوكهلم إلى كوبنهاجن مرة أخرى، ومن كل ميناء كان جمعة الشوان يكتب لجوجو، وفي كل ميناء كان يجد خطابا منها... ميناء بعد آخر وأسبوع بعد آخر وشهر بعد شهر حتى عادت السفينة تتجه غربًا من جديد، وتقطع بحر الشمال، وتعبر المانش ثم القنال الإنجليزي وتصعد نحو الشمال في قناة سان جورج التي تفصل إنجلترا عن أيرلندا، تقترب من بريستول، تقترب ثم تبتعد، تصعد إلى بلفاست في أيرلندا.

رست السفينة في بلفاست، وكانت الشهور قد مضت منذ رأى الشوان جوجو لآخر مرة في «فوج واي»... وفي ذلك الوقت كانت الحرب الأهلية في أيرلندا في ذروتها، والمذابح تملأ الشوارع ولم يكن مصرحًا للبحارة بمغادرة السفينة... غير أن شوق جمعة كان قد بلغ الذروة، وها هو في ميناء يستطيع منها أن يحدثها في التليفون... فلم لا يفعل؟!... لم لا يسمع صوتها فقط؟!

ومن نادي البحارة داخل الميناء أدار قرص التليفون وعلى الطرف الآخر دق الجرس... وعندما رفعت السماعة دق قلبه، إن هي إلا لحظات حتى يستمع إليها، سيبثها غرامه، سيعترف لها بالحب، سيقسم لها أنه لم يقرب امرأة غيرها طوال تلك الأيام والأسابيع التي انقضت... وجاءه صوت سيدة من الطرف الآخر:

«من؟»

«هل أستطيع التحدث إلى مس جوجو؟»

«من أنت؟»

«جمعة الشوان!!»...

وكان ما سمعه جمعة في تلك اللحظة هو آخر شي كان يتوقعه!!

الفصل التاسع

عندما كان جمعة الشوان يتحدث في التليفون من نادي البحارة في الميناء، كان الجو في الخارج يوحي بالتوتر الشديد، الرجال ممنوعون من النزول من السفينة، وحرس الميناء يبدون وقد تجهمت منهم الوجوه، وسماء المدينة تبدو مكتئبة حزينة للحرب الدائرة فيها... ولقد كان البحارة يرقبون كل هذا بعيون زجاجية بلا انفعال... الرجل منهم يتنقل من ميناء إلى ميناء، يتحدث اليوم لغة وفي اليوم التالي لغة أخرى، يأكل اليوم طعامًا وفي الغد طعامًا له مذاق آخر، يعيش المرح هنا والحزن هناك والحرب في مكان ثالث ويتجرع البؤس مع البائسين... ومن قال إن الدنيا صغيرة لم يكذب، غير أنك مهما طغت عليك كآبة المكان تستطيع إذا كانت في قلبك زغرودة فرح أن تطلقها أملًا في ابتسامة تبدد وحدة البحر وتقلب الأمواج وعذاب حياة، مهما تنوعت، تصبح بمرور الوقت رتيبة تبعث على الكآبة والسأم... ولقد كانت جوجو في ذلك الوقت هي زغرودة الأمل في قلب جمعة الشوان، مع مرور الأيام والوقت والتهاب الشوق. ولقد أيقن جمعة منذ اللحظة الأولى أن المتحدثة من الطرف الآخر في مانشستر هي أم جوجو، اللهجة الصارمة والصوت القاطع، وعندما سمعت المرأة اسمه انطلقت القذائف من فمها كالحمم:

«عليك أن تبتعد عن جوجو أيها الفتى، هل سمعت؟... جوجو سوف تتزوج ولسوف تسافر مع زوجها إلى الولايات المتحدة فابتعد عن طريقها، إن كنت طامعًا في مال فلن تنال منه شيئًا... إن اتصلت بها مرة أخرى فلسوف أبلغ البوليس ولسوف يأتون بك من أي مكان في الدنيا كنت... هل فهمت؟!!».

قبل أن ينطق جمعة الشوان، قبل أن يفتح فمه بكلمة، كانت السماعة توضع في الطرف الآخر... وهكذا حكمت الأم على أحلامه كلها، في لحظة غضب، بالإعدام!!

أحس وقتها أن الدنيا تحولت إلى فراغ. سار إلى السفينة وكانت سماء بلفاست تبدو ملبدة مثل قلبه بالأحزان... عند السلم كان ديموس في انتظاره.

«هل تحدثت إلى جوجو؟»

نظر إليه ولم ينطق، لم يكن لديه ما يقوله... دلف إلى الكابينة في صمت، وأغلق الباب عليه. ألقى بنفسه فوق الفراش ودفن رأسه في الوسادة وترك لدموعه العنان!!

■ ■ ■

وهكذا كان جمعة الشوان – الآن وبعد مرور خمس سنوات – يرقد في إحدى غرف فندق دياكونجرسا القائم في إحدى ضواحي روما وقد دفن رأسه في الوسادة... لم تعد هناك جوجو، لم يعد هناك أمل إلا في النجاة... كانت الغرفة سابحة في الضوء وما زال طعام العشاء الذي طلبه يرقد في أحد الأركان دون أن يمسه، وعلى المائدة الصغيرة

في وسط الغرفة كانت أوراق اللعب وورقة الدوري وعلبة الكبريت وأنقاض القلق والعذاب تصرخ بما يعتمل في صدره من جزع وخوف.

رفع الوسادة عن رأسه وتمنى لو استطاع أن يبكي. ولقد اشتهر الشوان في المخابرات الإسرائيلية بأنه سريع البكاء، إن دمعته قريبة، ولكنه الآن وهو يواجه هذا الذي يواجهه لم يكن قادرًا على أن يذرف دمعة واحدة قد تساعده في التفريج عن هذا الكابوس الذي يضيق به صدره.

أشد ما كان يضنيه في تلك اللحظات سؤال ظل حائرًا يتردد في صدره بلا مستقر: متى يتصلون به؟... متى يقدمون؟... ومن الضابط الإسرائيلي الذي قدر له أن يلقاه هذه المرة؟!... لو... لو أنه كان يعلم أن حربًا سوف تقوم بيننا وبينهم فهل كان يقدم على ما أقدم عليه؟... جاءت عليه لحظات راقت له فيها اللعبة فأصبح في الأيام التي سبقت حرب أكتوبر يشعر بأنه فارس زمانه... ثم ها هي الواقعة قد وقعت واندلعت الحرب وهزمت إسرائيل التي أكدوا له أنها لا تهزم أبدًا.. لكنها هزمت هزيمة تحدثت بها الدنيا، فكيف سيواجههم وهو الذي أكد لهم - بدل المرة عشرات المرات - أن الجيش المصري لن يحارب؟!!

قفز من الفراش واندفع إلى الحمام ووضع رأسه تحت صنبور الماء البارد. كان الخوف قد تلبسه من جديد وراح يتسلل إلى النخاع منه.

كل ما يريده ألا يموت الليلة. يقين غريب يستولي عليه بأنه سيقتل، نزع رأسه من تحت الصنبور وقد تخيل أنه أحس بحركة من خلفه، التفت في فزع وقفز من الحمام إلى الغرفة ولا تزال المياه تتساقط من

رأسه. غير أنه ما كاد يضع قدمه في الغرفة حتى صرخ جرس التليفون، فارتد إلى الخلف مبتعدًا وقلبه يدق بعنف بالغ حتى آلمته دقات قلبه ولم يكف التليفون عن الرنين، ولا بد أن البرقية وصلت وها هي اللحظة قد حانت... رعب، رعب حقيقي قائم وأنفاس لاهثة وأوصال متهاوية... وكان لا بد له أن يرد.

ولو قدر له أن يعيش فلسوف يتصدق بألف من الجنيهات!

ولو قدر له أن يفلت من المأزق، فلسوف يذبح عجلًا ويفرق لحمه على الفقراء... ولو قدر له أن ينجو......

غير أن رنين التليفون المستمر بدد أفكاره، بعثرها وبعثره وأضاعها وأضاعه ولا بد له أن يرد. تقدم إلى التليفون وساقاه لا تكادان تحملانه لكن صوته يجب أن يكون ثابتًا.

«الو».

وانساب من السماعة صوت نسائي يتحدث الإيطالية في سرعة بالغة فلم يفهم شيئًا.

«آلو... من الذي يتحدث؟».

قالها بالإنجليزية وقد ردت إليه أنفاسه واستقام الصوت في حنجرته!

«أنا... أنا التي تتحدث!».

ردت عليه صاحبة الصوت بإنجليزية ركيكة. فعاد يقول:

«من تريدين سنيورة؟!».

«أريدك أنت!».

قالتها وضحكتها تجلجل في التليفون بمرح فانبثقت من أعماقه ابتسامة فرضت نفسها على خوفه:

«وما الذي تريدينه مني؟»

«ألا تعرف؟»

«قبل أن أعرف اسمك؟!»

«ليزولا!!»

«هل التقينا من قبل؟»

تدريجيًّا بدد الصوت وحشته ووحدته، بل فعل به فعل السحر فراح يداعب ويغازل:

«حسن حسن، ربما التقيت بك من قبل، ولكني...... !»

قاطعته تلك المرأة المجهولة بصوت شديد الألفة:

«سأنتظرك عند الناصية القريبة من الفندق بعد نصف ساعة!!»

هكذا قالت وهي تعيد السماعة إلى مكانها فتبدد المرح وعاد الفزع طاغيًا جبارًا. ها هم بدءوا اللعبة معه. النساء والمال هما نقطتا الضعف فيه. وإذا كان المال هو نقطة ضعفه الحقيقية فهو لم يبع بلاده بعشرات الألوف من الدولارات... وإذا كانت المرأة هي نقطة الضعف الثانية فهل أرسل الإسرائيليون «ليزولا» لتستدرجه إلى حيث يختفي من الوجود دون أن يعلم بأمره أحد؟!!

وما يدريه ألا يكون المصريون هم الذين أرسلوها ليختبروا درجة إخلاصه؟!... ولم يعد قادرًا على التفكير أكثر من ذلك. فكلما عنَّت له فكرة كان لها وجهان، وكان - فيما بين الوجهين - يتمزق، أضناه التعب واستبد به، فترك جسده يهوي فوق المقعد وقد خيل له أن الموت سوف يأتيه الآن!!

■ ■ ■

ولقد أحس عندما قالت له أم جوجو ما قا لت بفراغ قاتل يملأ حياته... كانت جوجو - رغم شكوكه - قد فتحت له أبواب الأمل، بل أبواب كل الآمال التي حلم بها منذ أن كان، كان لفرط دهشته وسعادته يرقب نفسه ويرقب ما يحدث له وكأنه يشاهد فيلمًا سينمائيًّا مسليًّا... وها هو الفيلم والأحداث السعيدة في ذروتها، يقلب له ظهر المجن... ويغلق الأبواب كلها دفعة واحدة.

في تلك الليلة لم يغادر الكابينة ولم يطرق بابه أحد حتى «ديموس» الذي كان يتحدث إليه بلغة مشتركة ما بين اليونانية والإنجليزية والإيطالية، والعربية أحيانًا، والذي تعود أن يتسامر معه كل ليلة في مؤخرة السفينة وهما يرقبان الحركة فوق سطح المياه الساكن... حتى ديموس لم يطرق بابه فماذا حدث؟!!

في الصباح كان يجرجر ساقيه بلا حماس، اكتسبت الأشياء ألوانًا أخرى، حمد الله أنه لم يترك عمله في السفينة ولم يستجب لإلحاح جوجو وإلا لأصبح الآن تحت رحمة مجهول... قبل أن يغادر هولندا في المرة الأخيرة، أرسل لفاطمة وأمه ومصطفى مبلغًا من المال بالبريد

ولا بد أن الخطاب قد وصل الآن، فراح يدعو الله أن يستره ويسترهم ويقيهم ويقيه شر غدر الزمان!!

العمل والنداءات وهاي مستر جوجو وماذا عن فتاتك أيها الشاب وضحكات جوفاء، وما إن حل ظهر هذا اليوم حتى جاءه من يقول إن أحد ضباط الميناء يطلبه!!

هكذا أيقن أن المصائب لا تأتي فرادى. في أيرلندا حرب أهلية وهو الوحيد الذي غادر السفينة بالأمس ليتحدث في التليفون، ولا من مخالفة ارتكبها، ربما كانت أم جوجو قد أبلغت الشرطة فعلًا...

غادر السفينة ملبيًا وراح في الطريق إلى مخفر الميناء يضرب أخماسًا في أسداس... ما إن وقف أمام الضابط حتى ألقى عليه التحية، كان الضابط أحمر الوجه كبير التقاطيع ذا نظرة لا تنم إلا عن عداء مسبق، هز الضابط رأسه فقال:

«لقد جاءني من يقول إنك تبغي رؤيتي؟!»

«حقًّا؟!»

هكذا رد الرجل في برود فعاد جمعة يقول:

«إن اسمي هو جمعة الشوان!!»

في تكاسل رد الضابط:

«ثمة فتاة تحدثت من مانشستر منذ نصف ساعة وتركت لك رسالة!!».

ارتجف جمعة الشوان، من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، كان يرتجف بسعادة لا قبل له بها، ليس هناك أي شك في أنها جوجو... هتف بالضابط متعجلًا الرسالة... بدا على الرجل التأفف وهو يشعل غليونه فانتظر جمعة على مضض، نفث الضابط دخان غليونه ثم قال:

«إن اسمها جوجو... وهي تقول إنها ستصل إلى بلفاست عند الغروب!».

مد جمعة الشوان يده نحو الضابط يريد مصافحته لكن الرجل تجاهل اليد الممدودة، نهض من مقعده وسار مبتعدًا إلى حيث لا يدري جمعة وكان يغمغم أنه لم يفعل شيئًا سوى أداء واجبه، غادر جمعة مخفر الشرطة في الميناء والفرحة تطير به طيرانًا إلى حيث السفينة، قالت جوجو إنها ستصل عند الغروب ولا بد أن يكون مستعدًا لاستقبالها، ومنذ تلك اللحظات وحتى وصلت جوجو إلى السفينة كان جمعة الشوان هو أسعد سكان كوكب الأرض هذا، حلق ذقنه ثلاث مرات واستحم مرتين، راح يفاضل بين الجاكيت الشمواه والجاكيت الأزرق ولم يستقر رأيه وكاد يلتقي بها عاريًا لفرط لهفته.

رغم الحرب الأهلية، رغم حظر التجوال، رغم الحظر المفروض على البحارة من مغادرة السفينة، رغم... رغم كل شيء جاءت جوجو مع الغروب... وما إن توقف التاكسي عند سلم السفينة وهبطت منه حتى كان السياج مرصعًا بكل بحارة السفينة الذين راحوا يرقبون ما يحدث في حسد... غير أن الشيء الذي أسعد جمعة الشوان أن الجميع

كانوا سعداء كأنهم هم الذين كانوا في انتظار الأمل... حتى القبطان كان سعيدًا ولقد ضربه على كتفه ضاحكًا:

«أتمنى لك حظًّا سعيدًا مستر جوجو!!»

صعدت سلم السفينة كعصفور يتقافز فوق غصن أخضر... ارتمت بين ذراعيه كالحلم الساري في الدماء بالسعادة، قبلته وهمست:

«ما الذي قالته لك أمي؟»

وغمرت الابتسامة كل خلاياه وهو يقول:

«لقد حذرتني من الاتصال بك!!»

في الكابينة قص عليها ما حدث بالتفصيل وكانت هي تبدي لا مبالاة واضحة، ما إن انتهى من حكايته حتى قالت:

«لا تأبه لما تقوله أمي، إن أبي موافق على زواجنا!»

«زواجنا؟»

هكذا هتف وقد أفزعته الكلمة، لكن جوجو أردفت:

«هيا اترك السفينة وتعال معي!»

انقبض قلبه لسبب لا يدريه، كان يتحرق شوقًا لرؤيتها وها هي بين يديه، ولكن:

«جوجو... لقد أخبرتك منذ البداية أني لا أستطيع العيش بعيدًا عن البحر».

«إنك لا تريدني!»

«بل أريدك حقًّا!!»

«إذن لماذا لا تريد الزواج مني؟».

«لأن لي زوجة أخرى في القاهرة... هذه هي الحقيقة!».

قالها وهو يظن أن معركة سوف تنشب بينهما، غير أنه فوجئ بها تسأله:

«ألست مسلمًا؟!»

«نعم!»

«إذن فأنت تستطيع الزواج بأكثر من امرأة!»

«هذا صحيح، لكنك نسيت شيئًا هامًا!».

«وما هو؟»

«أننا في أوربا، والقانون هنا يحرم الزواج بأكثر من واحدة!!»

ران الصمت وقد اكتسى وجه جوجو بسحابة حزن غريب وقد أطرقت، نظر الشوان إليها وقد أدهشه ذلك الحزن الغامض، مد يده إلى وجنتها فلمسها بأطراف أصابعه، لم ترفع عينيها إليه فهمس مناديًا:

«جوجو!»

دون أن ترفع عينيها نحوه قالت وكان في صوتها رنة غريبة:

«قل إنك تحبني!»

«أنت تعلمين أني أحبك!»

الآن، رفعت إليه عينين تنفثان حزنًا بلا حدود، اعتصر قلبه إحساس غامض فهتف:

«لم لا تصدقينني؟!»

«لأني أحبك أكثر مما ينبغي!!»

هكذا قالت وهي تقفز ناهضة من مكانها.

ولأول مرة، منذ أن التقى جمعة الشوان بجوجو يرى على وجهها تلك السحابة الغريبة الدفينة المشبعة بالحزن!!

الحزن غريب على جوجو.

جوجو لا تعرف الحزن، ليس في حياتها مكان له، إنها تعامل الناس كالأشياء... ها هو يعثر على ذلك الخيط الغامض من الشك في أعماقه، هو لم يقصد العثور عليه ولم يسع إلى ذلك، سطعت الحقيقة فزادت الأمور غموضًا!!

كانت جوجو تعامل الناس كأشياء، لكنه أبدًا لم يشعر بذلك معها، أبدًا لم يشعر أن هذه الفتاة المدللة التي أفسدها المال تعامله كما تعامل الآخرين، كانت تقف أمام «المنبليطة» تطل على مياه الميناء في صمت وهي تدخن، تقدم منها ووضع يديه فوق كتفيها:

«جوجو... هل هناك ما يكدرك؟!»

لم تجب جوجو بكلمة، ظلت في وقفتها تلك تنظر إلى مياه الميناء في استغراق وكأنها غابت عن الدنيا، لزم جمعة الصمت وتقهقر خطوة وأشعل سيجارة وقد أدرك أن في الأمر شيئًا... مضت لحظات لم يدر

جمعة إن كانت قد طالت أم قصرت، استند إلى الفراش وراح يراقبها بإمعان... حتى إذا كانت لحظة، انتفضت جوجو في وقفتها كأنها تصحو من حلم، استدارت نحوه وكان ثمة ابتسامة مرسومة على شفتيها، تصنعت المرح وتقدمت منه خطوة وهي تلوح في وجهه بسبابتها:

«غير أنك سوف تكتب لي!».

«سأفعل!»

«دائمًا شوان!»

«دائمًا جوجو!».

كانت جوجو الآن تعود إلى جوجو التي عرفها الشوان. ألقت ببقايا سيجارتها عبر «المنبليطة» إلى المياه وهي تهتف:

«غير أن أهم الأشياء جميعًا هو ألا تغادر السفينة دون أن أعرف أين أنت!!».

«أعدك بذلك!».

«وإذا رسوت في ميناء بريطانية عليك أن تحدثني بالتليفون!».

قال ساخرًا:

«ستغضب أمك!».

«دعها تغضب!».

لاحت علامات الدهشة على وجه جمعة الشوان فأردفت:

«إنها تغضب ثم تخبرني أنك تحدثت وهذا هو المهم في الأمر!».

بدت له جوجو الآن وكأنها تحولت من إنسان إلى آلة، أحس، ولا يدري لماذا، إنها الآن تؤدي عملًا، أو تقوم بواجب، كان ثمة شيء انطفأ في وجهها، شعلة حية كانت جوجو دائمًا، غير أنها في تلك اللحظات بالذات، لم تكن أكثر من تمثال من شمع يتحدث إليه وكأن الحياة قد سحبت من جسدها... ثم...

ثم انتفض جمعة وقد داهمه سؤال على غير انتظار، كان السؤال غريبًا، وكان هو قد انتفض معتدلًا في وقفته، سألته جوجو عما به فلم يرد، كان السؤال قد سيطر على ذهنه وأمسك بتلابيبه... فمن أين عرفت جوجو أنه تحدث إلى أمها من بلفاست؟!

لقد طلب أمها مباشرة، وضع العملات المطلوبة في آلة التليفون، وأدار القرص فردت عليه أمها فلم يخبرها أن السفينة ترسو على الشاطئ الأيرلندي، لم يقل لها إنه يتحدث من بلفاست... فكيف عرفت جوجو بذلك؟!!

ومض في نفسه الشك غير أنه ألقاه بعيدًا، لم ينسه وإنما تناساه... ادخره للأيام المقبلة، ولقد قضت جوجو معه الليلة في السفينة فاستمتع بها كما تعود أن يستمتع بلياليه معها... لكن ستارًا كثيفًا كان قد هبط فيما بينه وبينها حتى وهي ملتصقة به، حتى وهي بين ذراعيه لا يفصل جسديهما رداء... فهل يذهب إلى ليزولا؟

كانت الأقراص المهدئة قد بدأت تؤثر في جسده فشعر بالتخاذل غير أن عينيه كانتا مفتوحتين على مصراعيهما، ولأول مرة يشعر بما يسميه

الناس «حلاوة الروح». نهض إلى المرآة، مال إلى الأمام وراح يرقب وجهه فيها وقال:

«مش حرام تموت دلوقت؟»

قالها لنفسه دون أن يصدر عنه صوت... إنه دائم الحديث مع نفسه، كان يتحدث ويتحدث ويجادل ويناقش ويحلل ولا يتوقف لحظة واحدة عن الحديث دون أن يفتح شفتيه... فلقد كان موقنًا أنهم سوف يسمعون أي صوت يصدر عنه، وسيسمعون كل كلمة يقولها، فهل أرسلوا له ليزولا هذه؟

أحس أنه الآن، في تلك اللحظة يقف عند حافة الجنون... شيء واحد كان يعرفه عن يقين: أنه لا يريد أن يموت، وأن ليزولا جاءته من عند الإسرائيليين، وأن المصريين يثقون به ثم إن لهم أساليب تختلف، وليس الريس زكريا هو من يرسل إليه امرأة ليختبر إخلاصه.

مائة في المائة ليزولا آتية من قبل الإسرائيليين!!

فتح الحقيبة السمسونايت وأخرج المفكرة الصغيرة التي كتب فيها أسماء من التقى بهن من نساء، فبعد جوجو كان يعثر في كل ميناء على امرأة وفي كل عاصمة وكل مكان يذهب إليه، وكان يكتب أسماءهن في مفكرة يحتفظ بها ولقد قلب صفحات المفكرة مرة ومرتين وثلاث مرات دون أن يعثر على اسم ليزولا هذه... ثم هداه تفكيره إلى تحليل اسمها... لقد تعلم منذ أن نزل البحر وسعى خلف السفن في الميناء، أن للاسم الواحد لهجات في اللغات، كان يعلم أن يوسف هو جوزيف بالفرنسية، وجورج هو يورغو باليونانية وخرخس بالأسبانية وأن

الأمريكان يختصرون الاسم إلى «جو»... فماذا عن «ليزولا»... راح يضرب أخماسًا في أسداس ويقلب الكلمة ويبدل الحروف، ثم توصل إلى أن ليزولا ليست سوى «راشيل»... وعندما وصل إلى هذا الاسم، دقت الساعة وكان عليه أن يستعد!

كان قد انتوى أن يطلب عشاء ساخنًا يتبلغ به فأقسم أن يبيت بلا عشاء وألا يفتح الباب لأحد، ألا يرد على التليفون، وألا يستجيب لنداء حتى يطلع النهار.

الآن لم تعد مشكلته أنه يخشى أجهزة التنصت أو التصوير، بل أصبحت خشيته أن يهبط عليه أحدهم من حيث لا يدري، اندفع إلى الشرفة ووقف فيها ونظر يمينًا ويسارًا وفوق وتحت وراح يحسب من أين يستطيعون أن يتسلقوا الجدران كي يصلوا إليه!!... ثم أراح نفسه وأغلق الشرفة بالضبة والمفتاح.

في كل فنادق الدنيا يتركون لك في الغرفة لافتة صغيرة مكتوبًا عليها:

«أرجو عدم الإزعاج»... ولقد حمل جمعة هذه اللوحة وذهب إلى الحمام وأخرج المفتاح من السيفون وفتح الباب وعلق اللافتة عليه من الخارج ثم أغلق الباب وأعاد المفتاح إلى السيفون، ثم راح يفتش الغرفة عن إنسان قد اختبأ هنا أو هناك!!

ألحت عليه فكرة التسلية بعشاء ساخن فخاف أن يرسلوا له رجلًا متنكرًا في زي جرسون ولقد تعود الإسرائيليون منه أن يهرع إلى أي امرأة... ولقد تعلم فيما بعد أن للجاسوس - أي جاسوس - نقطة

ضعف يصطاده منها الأعداء، المال والجنس هما أهم نقاط الضعف في البشر وإذا كان المال لديه نقطة ضعف حقيقية لكنها أبدًا لم تضعفه أمام وطنه، والنساء نقطة ضعف خادع الإسرائيليين بها فما الذي سيقولونه لو أنه لم يذهب إلى ليزولا؟؟

وكاد يصرخ من العذاب... أصبحت ليزولا كحد السكين: إن ذهب إليها داهمه الخطر، وإن لم يذهب فربما كان الخطر أشد!!

أمسك بالوسادة، وصرخ فيها وكتم بيديه صرخته وكان يرتجف. إنهم لو كانوا قد أرسلوا إليه ليزولا فلقد تعودوا أن يفعلوا معه ذلك في المرات السابقة وكان دائمًا ما يلبي. فلماذا لم يلب هذه المرة؟؟

أسرع إلى زجاجة الحبوب المهدئة وابتلع قرصين آخرين...

ثم خلع ملابسه ووقف وسط الغرفة عاريًا كما ولدته أمه!!

■ ■ ■

في تلك الليلة التي قضتها جوجو معه في السفينة في ميناء بلفاست لم يكن جمعة الشوان يعرف أنها ليلة الوداع، لم يكن يعرف أن هذه هي آخر مرة يرى فيها جوجو، غير أن شيئًا في داخله كان يشير إلى مجهول آت... مضت تلك اللحظة كومضة، لحظة أن رأى الحزن في عيني جوجو... كان حزنًا غريبًا غير مألوف، شيء كالصرخات المكتومة أطل فجأة من عينيها ثم انسال كي يحتل ملامح وجهها، ثم انسحب واختفى وعادت الملامح تكتسي بذلك التعبير الميت... في تلك الليلة عثر عقله على سر ذلك الإحساس الغريب الذي كان ينتابه كلما بلغت سعادته ذروتها وهو في أحضانها، إحساس غامض كان يلقيه خلف ظهره، لا

تخلصًا منه، فالإنسان لا يستطيع التخلص من أحاسيسه حتى ولو أراد، لكنه كان يلقيه خلف ظهره سعيًا وراء حلم وسراب...

في اليوم التالي ودعته ودست في جيبه مبلغًا سقط من ذهنه... أبحرت السفينة من بلفاست وهبطت جنوبًا إلى دبلن عاصمة أيرلندا، ومن هناك تحدث إليها بالتليفون، بثها حبه وسألت عنه وعندما ودعها وودعته لم يكن يعرف أن هذه آخر مرة يسمع فيها صوتها، وأنها بعد اليوم ستختفي من حياته إلى الأبد، وستتحول إلى مجرد ذكرى تسعده أحيانًا وتعذبه أحيانًا أخرى.

في تلك الأيام لم يكن جمعة الشوان يعرف أن ثمة خططا كانت توضع من أجله، توضع في غرف مغلقة وترتبها عقول مدربة ويضمها ملف في آخر مكان يخطر ببال إنسان مثله... ملف في أحد أدراج جهاز المخابرات الإسرائيلية... ملف في الموساد!!

بلا أي توقع منه، وبلا أي إنذار منها... انقطعت خطابات جوجو!!

انطلقت السفينة تجوب البحار وتنتقل من ميناء إلى ميناء. من المغرب جنوبًا إلى فرنسا وبلجيكا وألمانيا وهولندا والاتحاد السوفيتي والسويد والنرويج ثم هولندا مرة أخرى.

وفي كل ميناء كان جمعة الشوان يكتب لجوجو خطابات غرامية يبثها فيها حبه، ويكتب لها عن الميناء التالي الذي ستبحر إليه السفينة كما طلبت منه وكما وعدها، لكنه لم يتلق منها خطابًا واحدًا. أصابه الأمر في البداية بالحزن وأشعره بفراغ سمج، لكنه تخلص من الحزن مع الأيام واستبقى مع اليأس الذي دب إلى نفسه شعاعًا من أمل، فظل يكتب لها

ولم ينقطع أبدًا... وعندما رست السفينة في ميناء روتردام في هولندا كتب إليها خطابًا يسأل فيه عن سر انقطاعها عن الكتابة، وأخبرها أن السفينة ستبحر بضعة أيام شمالًا إلى ميناء «انتويرب» البلجيكي... لم يكن جمعة الشوان يدري، أنه في «انتويرب» بالذات، سوف يبدأ الفصل الثاني من هذه المأساة... أو إن شئنا الحقيقة، من هذه الملهاة!!

■ ■ ■

نعم... هناك، في الميناء البلجيكي «انتويرب» كانت البداية التي قادته إلى حيث يقف الآن عاريًا مجنونًا في منتصف غرفة بفندق «ديا كونجرسا» في انتظار مجهول!

كان الأمر قد وصل إلى حد لا يحتمل، وكان جمعة الشوان، وهو يستعيد السنوات التي مضت منذ أن دخل بين تروس هذه الآلة الجهنمية، يشعر بمزيد من الإعياء، و... ومن الخوف أيضًا!

هكذا قال لنفسه بوضوح لأول مرة في تلك الليلة، تمامًا كما قالها للريس زكريا في لقائه الأخير معه!

زحف حتى ارتدى البيجاما، وألقى بنفسه فوق مقعد فأحس وكأن جسده قد امتلأ برمال ثقيلة، كان خائفًا حتى الموت، فلماذا؟!... وإذا كان مؤمنًا بالله حقًّا، فالرب واحد والموت أيضًا واحد، وإذا كان لكل أجل كتاب، فلسوف تأتي ساعته في الثانية التي حددت منذ الأزل فلم لا يستسلم لقدره... خطر له أن ينظر في ساعة يده، لكن يده كانت ثقيلة، كما كان رأسه أكثر ثقلًا... بالكاد رفع رسغه فرأى الساعة تشير إلى الخامسة صباحًا، ثم... ثم سقط رأسه في اللحظة التي صكت أذنيه فيها

مداعبات مفتاح لباب غرفته، أراد أن يرفع رأسه، أن يرى إن كان هناك من يحاول اقتحام الغرفة عليه، لكن شيئًا غامضًا كان يكبله إلى المقعد، كفت حركة المفتاح في الباب ثم بدأ الدق رقيقا في البداية، حاول أن يرد لكن لسانه كان ملتصقًا بسقف حلقه، تعالت الدقات وارتفعت حتى أصبحت دويًّا يصم الآذان، أراد أن يرفع رأسه دون جدوى، وكان يعلم أن الحبوب التي ابتلعها هي السبب... لكنه قاوم، قاوم، رفع رأسه وكانت الأصوات خارج الغرفة تصيح مع الدق: «افتح يا جمعة!»... هم بالنهوض كي يسأل عن الطارق لكن الباب كان قد انفتح واقتحم الغرفة جمع من الرجال ذوي وجوه عابسة، ارتد إلى الوراء يريد أن يحتمي بشيء فلم يجد سوى تلك اللوحة ذات الشقين التي تضعها الفنادق في كل غرفة حتى يستعملها النزلاء بدلًا من المكواة لكي البنطلونات، رفع اللوحة كي يصد الرجال لكنها كانت ثقيلة، أراد أن يصرخ فاحتبست الصرخة في صدره، أراد أن يستجير بمن يمكن أن يجيره بلا جدوى، هجم عليه الرجال فإذا أجسادهم كأجساد الأفيال، قاومهم فدفعوه وتكأكأت عليه أجسادهم حتى كادت تكتم أنفاسه، تكاثرت الصرخات في صدره وتجمعت وتزاحمت ثم... ثم... أخيرًا، انطلقت كلها في صرخة واحدة مجنونة، صرخة قفز بعدها جمعة الشوان وهو يدفع الأجساد باللوحة الخشبية في يده، ثم، ثم ... إذ به معهم يهوي فوق الأرض لاهث الأنفاس...

فتح عينيه...

أدارهما فيما حوله!

كان الصمت مخيفًا، وكان العرق يغرق وجهه... ولم يكن هناك أحد، لكن ثمة طرقات كانت تأتي من ناحية الباب، فاختلطت في ذهنه الحقائق بالأحلام!

الفصل العاشر

من بعيد... بعيد بعيد، من أعماق بئر سحيقة كانت تأتيه الطرقات على الباب... كان الوعي يعود إليه ببطء شديد، ها هو على الأرض مرة أخرى يريد أن يصرخ... الرغبة في الصراخ شيء غامض والصرخة تأتي من أعمق أعماقه والطرقات مع الصرخات تتلاحق، والنداءات والأصوات تتضح تدريجيًا... وبدأت الرطانة الإيطالية تغزو أذنيه... يفتح عينيه، راقد هو فوق الأرض، جاثم بكل جسده فوق الأجساد، الأجساد ليست سوى لوحة خشبية تضم بين دفتيها بنطلونًا ولكن أين هو؟!... في أي مكان؟... تعود الطرقات أشد مما كانت فيهتف: «مين؟!»... كان صوته واهنًا شديد الوهن، خافتًا شديد الخفوت، وهو يريد أن ينهض... عاد يهتف: «مين؟!»... وبدأ جسده يتململ ينهض، والطرقات تزداد: «طيب طيب. مين؟!»... وكلما صاح قائلًا: «طيب أو مين»... ازداد اللغط والنداء في الخارج... وراح جمعة الشوان يدور حول نفسه نصف مغمض العينين، ذهب إلى الباب وأدار المقبض لكن الباب لم ينفتح، بحث عن المفتاح ولم يكن المفتاح في ثقب الباب، عاد يرد على الطرقات والنداءات، إنهم يحدثونه وهو يرد عليهم... من هم، ومن هو لا يدري، ماذا يقولون وماذا يقول لا يعرف.

ما هذا الذي يحدث... إنهم لا يفهمونه رغم أنه يفهمهم، تحدث إليهم بالعربية فازدادت الرطانة توترًا، تحدث بالإنجليزية وقال كلامًا كثيرًا... لم يكن يعرف في تلك اللحظات سوى أن هؤلاء الذين يطرقون الباب من الخارج يتحدثون إليه بالإيطالية ولكن من هم، ما الذي يريدونه... عادوا يصيحون في الخارج فحشد كل الكلمات التي يعرفها بالإيطالية وراح يحدثهم بهـا دون جـدوى... هـرول إلى الحمام وكان لا بد له أن يخرج من هذا الجب الرهيب... بئر سحيقة كان يقبع في قاعها ولا بد له من الخروج... وضع رأسه تحت الدش وترك للمياه أن تغسل الوهن والوخم والهمود... جفف رأسه وعاد إلى الغرفة وكانت الطرقات قد كفت والرطانة تأخذ طابع الهمس فأحس بالخوف... نظر إلى الباب ولمعت عيناه بالوعي... استنفر الخوف ذاكرته فعادت إليه بعنف... دار ببصره في الغرفة وعرف أين هو... أوتيل دياكونجرسا، كلمة السر، بينه وبين الإسرائيليين هي «جاك». إن أي صوت يقول له: «جاك»... أي صوت وأي إنسان سيصبح عليه أن يسلمه نفسه وربما عنقه وحياته كلها. قال له الريس زكريا إنه لن يرى واحدًا ممن رآهم من قبل إلا نادرًا... لقد تغير - بعد حرب 1973 - أغلب الطاقم العامل بالمخابرات الإسرائيلية، ولقد تعود أن يصدقه لأنه صديقه ولأنه مصري مثله ولأنه يسهر على أمن البلد... بل تعود أن يصدقه لأن التجربة أثبتت ذلك.

وبدأ ذهنه يرتب أفكاره في سرعة... بالأمس كان يومًا مشحونًا... بالأمس ركب الطائرة من القاهرة ووصل روما عند الظهر... كل شيء - الآن - أصبح واضحًا كل الوضوح... الفندق والعشاء ومستر كلاي وأوراق اللعب وعلبة الكبريت، ولم تكن الأجساد التي أصابته بكل هذا

الرعب سوى اللوحة التي تكوي البنطلون فلم انتابه كل هذا الفزع...؟ ولقد أخذ المفتاح وخبأه في مكان ما من الغرفة وعندما أراد أن يضع لوحة «أرجو عدم الإزعاج» على باب الغرفة من الخارج، أتى بالمفتاح من مخبئه وفتح الباب ووضع اللوحة ثم أعاده إلى مخبئه من جديد... فأين هذا المخبأ؟؟

كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم يتذكره جمعة الشوان!!

▣ ▣ ▣

في كل فندق من فنادق الدنيا يوجد مفتاح اسمه «ماستر كي» أي المفتاح السيد، وهو سيد فعلًا... لأنه يفتح كل غرف الفندق بلا استثناء، ولقد جاءوا في ذلك الصباح في فندق دياكونجرسا بالماستر كي وفتحوا الغرفة على جمعة الشوان فارتد هذا إلى الخلف فزعًا... اقتحم الغرفة عليه رجال وفتيات وموظفون وموظفات، ومن وسط الجميع كان مدير الفندق يتقدم إليه وكل العيون تحملق في ساقه... نظر إلى ساقه فإذا بالدماء تغرقها، وإذا جرح في الفخذ لا بد أنه حدث نتيجة سقطته فوق اللوحة فما هذا الذي حدث؟... وكيف لم يشعر بالجرح، نظر إلى الجمع المتراص أمامه، خطا نحوه المدير: «ماذا بك سنيور رحمن، هل ضايقك أحد، هل أنت وحدك، هل أنت بخير، لم كنت تصرخ... لا... لا... سنيور رحمن لم تكن تتحدث بالإيطالية،... لا، لا، ولا بالإنجليزية ولا بأية لغة معروفة، لم تكن تتحدث سنيور رحمن، لقد كنت تصرخ، كنت تهذي، كنت تصدر أصواتًا بلا معنى... أين مفتاح الغرفة؟!... ».

«المفتاح؟!».

هكذا تساءل جمعة فأجاب الرجل:

«نعم سنيور، ألم يكن بالغرفة مفتاح؟!».

انتبه جمعة إلى حقيقة الموقف، كان يعرف أنه خبأ المفتاح في مكان ما، ولكن: أين خبأه... شحذ ذهنه كي يجيب الرجل الواقف في الانتظار دون جدوى.

«سنيور رحمن!»

هكذا هتف الرجل فانتبه:

«أين المفتاح؟!»

في لهجة الواثق من نفسه قال جمعة:

«يبدو أني تركته في الباب من الخارج!».

ترى هل يصدقونه؟!...

راح ينقل البصر بين الوجوه المحملقة فيه فكأنه في كابوس... مَنْ مِنْ هؤلاء يعمل لحساب الإسرائيليين؟!... ما الذي سوف يفعله مع هذا المجهول القادم إليه من الموساد تحت اسم جاك؟... ولقد أكد له الريس زكريا أن الطاقم القديم قد تغير بالكامل... كان لا بد أن يصرف هؤلاء الناس ولم يكن صعبًا عليه أن يفعل ذلك، ابتكر لهم حكاية من حكاياته وشكر المدير على عظيم اهتمامه وطلب من خدمة الغرفة أن يرسلوا له إفطارًا... وما إن خلا إلى نفسه مرة أخرى حتى راح يمسح الدماء عن فخذه... قبل أن يدق الباب ويدخل حامل الإفطار كان قد

حلق ذقنه ووقف تحت الدش، وكان موقنًا من أن ما حدث سوف يصل إلى هؤلاء وأولئك معًا، أدرك أنه متعب وأنه مجهد وأنه خائف. لكنه كان موقنًا من أن طريق السلامة في هدوء الأعصاب... تناول إفطارًا خفيفًا وتمدد في استرخاء وكانت عيناه على آلة التليفون الصامتة فمتى يتصلون به!!... كان في انتظار من يحدثه في التليفون كي يقول له إن اسمه «جاك»، فقط هذا الاسم وليس هناك شيء آخر مهما كان شكل هذا الجاك أو هيئته. فما إن يذكر الاسم حتى يسلم نفسه إليه فأية حياة هذه؟!

■ ■ ■

كانت تلك هي المرة الأولى التي يزور فيها جمعة الشوان ميناء «انتويرب»... و لأنه نشأ في ميناء السويس وتربى بين أرصفته وأمواج مياهه، وشب وسط قواربه وسفنه العابرة إلى الشمال أو القادمة إلى الجنوب، فلقد كانت الموانئ بالنسبة له كالأشخاص، أو قل كالنساء، ولقد كانت أحب ميناء إلى قلبه هي السويس... فهل أحب جوجو حقًّا؟!

عندما وصلت السفينة «آرتا» إلى ميناء انتويرب، كان الوقت وقت الغروب، ولم يكن هناك مكان لرسو السفينة على أحد أرصفة الميناء، لذلك... فلقد طلبوا إلى الربان أن يرسو بالسفينة في «الغاطس» - أي خارج الميناء - حتى يخلو لها مكان عند الرصيف... رست السفينة خارج الميناء فجلس جمعة الشوان يراقب انتويرب من بعيد... كانت الأضواء تتلألأ بطول الساحل فكأن المدينة شعلة من نور... وهو قد

تعلم، منذ أن صعد إلى السفينة في قناة كيل لأول مرة، أن ثمة موانئ في هذا العالم تفوق مساحتها مساحة مدن بكاملها... استغرق في وحدته وهو يتساءل: ماذا ينتظره في انتويرب؟ كان – منذ أن نزل في بريستول – قد تعود أن تكون له في كل ميناء مفاجأة... ولقد كفت جوجو عن الكتابة إليه منذ أن وقع هذا الذي وقع، وما زالت نظراتها في آخر لقاء تلهبه بسياط من الأسئلة التي لم تكف، كان موقنًا من أنها سوف تظهر ذات يوم مهما طال به أو بها الزمن...

تذكر فاطمة فانتابه الحنين إلى مصر... نهض من مكانه وقلبه يتلوى بالشوق، فمن هو؟... هل هو هذا الذي يحب جوجو، أم هو هذا الذي يحن للعودة إلى أحضان فاطمة؟!... في عنبر البحارة وجد بعض الرفاق يلعبون الورق فانضم إليهم وكان الصخب في تلك الليلة عظيمًا، انتحى به ديموس جانبًا وراح يصف له انتويرب، وما سوف يجده فيها من متع، ثم دغدغ غروره عندما قال له إنه قد يلتقي في بلجيكا بمن هي أجمل من جوجو وأكثر غنى... مضت الليلة وجاء الصباح فدخلت السفينة إلى الميناء ورست إلى رصيف، وانقضى اليوم في عمل فما ظهر أحد، وما جاءته مكالمة عبر البحار وما سأل عنه مخلوق، تركت جوجو في حياته فراغًا فكيف يملأ هذا الفراغ، وهل تبدد الحلم هكذا دون مقدمات؟!

في المساء غادر جمعة الشوان السفينة مع مجموعة من الرفاق، كان قد تعلم منذ زمن ألا يغادر السفينة وحده إذا ما كانت هذه هي المرة الأولى التي ترسو فيها السفينة في الميناء، أي ميناء... ذات مرة – وهو لا يذكر أين ومتى وما اسم تلك الميناء – كان عائدًا إلى السفينة بعد منتصف الليل فلم يستطع أن يعثر عليها، وكانت درجة الحرارة تنخفض

بسرعة كادت تودي به... طاف - في تلك الليلة - مع الرفاق شوارع انتويرب، وأزقتها وحواريها وصخب معهم وضحك معهم وكان يريد أن ينسى جوجو... أمام فندق هائل كبير توقف الرجال وأشار أحدهم إلى حانة صغيرة من تلك الحانات التي تمتلئ بها الموانئ والتي تمتلئ هي الأخرى بالبحارة من كل أنحاء العالم... دلف الرجال إلى الحانة فدلف معهم... كان المكان غريبًا، كان متسعًا لكنه ضاق بمن كان فيه من الرجال والنساء، انغمس جمعة فيما انغمس فيه الرفاق، طلب مشروبًا وراح يحتسيه وعيناه تجوبان المكان الذي غمرته الأضواء وسبح فيه صخب الموسيقى وضحكات الفتيات، كن فتيات من كل أنحاء الدنيا، من الشرق الأقصى والأدنى والأوسط ومن أوربا وأمريكا الجنوبية ومهما أردت ومهما طلبت فلسوف يلبون رغباتك ما دمت ستدفع الثمن... أعطته جوجو قبل مغادرتها له آخر مرة بعض المال وكان قد أرسل إلى مصر ما يكفيهم فلم لا يمتع نفسه ليلة... كان البحر في الرحلة الأخيرة صاخبًا وكان الموج عاليًا وكانت الريح عاتية وجاءت عليه لحظات ظن فيها أن السفينة قد تغرق... طلب مشروبًا آخر وثانيًا وثالثًا، ضحك وصخب وهرج وراح يرمي الرفاق بكرات من الورق الملون كما راحوا يقذفونه بنفس الكرات وكان التراشق متبادلًا... ولا يدري جمعة الشوان كم مضى من الوقت فلقد سرى الدفء إلى أوصاله واختفت جوجو من ذاكرته أو توارت عندما اصطدم أحدهم بمقعده وكاد يسقط فوقه... التفت جمعة وكان ثمة شاب صغير وسيم مليح الوجه يرتدي نظارة طبية توحي للناظر أنها ملك لطبيب أو مهندس، بجوار الشاب كان ثمة رجل مكتنز الجسد أنيق الملبس مصفف الشعر فكأنه أحد نجوم السينما ذوي

الأدوار الخاصة، كان الشاب يحاول المرور عندما دفعه أحد البحارة رغمًا عنه فاصطدم بمقعد جمعة... ما إن التفت جمعة حتى قال الشاب بالإنجليزية: «آسف!»

لوح الشوان ضاحكًا:

«لا عليك!»

جلس الشاب والرجل إلى المائدة المجاورة تمامًا، ولا بد أن كلًّا منهما طلب مشروبًا ذلك أن جمعة لم يلق إليهما بالًا وانغمس فيما كان الرفاق قد انغمسوا فيه، ولقد انضمت إليهما فتاتان أحالتا الصخب إلى نوع من الهستيريا عندما وقفت إحداهما فوق المائدة وراحت ترقص مع الموسيقى، بدت الحياة لجمعة ذات لحظة وكأنها عادت كي تبتسم له من جديد ولكن بوجه آخر، كادت خواطره تغلبه على أمره لكنه طردها وقد اتخذ قرارًا بأن يمتع نفسه ليلة، حانت منه نظرة إلى المائدة المجاورة وكان الشاب والرجل قد مال كل منهما نحو الآخر وراحا يتهامسان وهما يشيران إليه، انتابته الدهشة ثم تذكر لصوص الموانئ ونصابيها، فاستدار نحو رفاقه وألقى بنفسه في خضم الحديث... لكن حب الاستطلاع ملك عليه أمره، فالتفت نحو الرجل والشاب وكانا ينظران إليه وهما يبتسمان، هم بسؤالهما عن سبب ابتسامتيهما عندما بادره الرجل قائلًا:

«أيها السيد... هل لنا في حديث قصير معك؟!»

«معي أنا؟!»

«نعم... معك أنت لو لم يكن لديك ما يمنع!»

استدار نحوهما ونظر إليهما وقد ملكت عليه الدهشة نفسه!

«هل لك أن تنضم إلينا لدقائق؟!»

تردد جمعة الشوان لكن تردده زال عندما عاد الرجل إلى الحديث:

«نحن ندعوك إلى كأس!»

انتقل جمعة إلى مائدتهما، مالت عليهم فتاة من فتيات الحانة سائلة إن كانوا في حاجة إلى شيء، أمر الشاب بثلاث كئوس فمنحته الفتاة غمزة من عينيها.. ابتسم لها ثم انصرفت... قال الرجل:

«لقد تراهنا أنا وصديقي عليك!»

ازدادت دهشة جمعة وهو يسأل:

«على أي شيء كان الرهان!!»

قال الشاب:

«أراهن انك هندي!»

ابتسم جمعة الشوان والتفت نحو الرجل:

«وانت... ماذا تقول!»

قال الرجل:

«ليس الخلاف كبيرًا، إن صديقي يعتقد أنك من جنوب الهند، أما أنا فأرى أنك من شمال القارة!»

«ماذا تعني بالله عليك!»

قال الشاب:

«إنه يعني أنك باكستاني!»

سأل الشوان:

«وما قيمة الرهان؟!»

«سهرة حمراء!»

هتف الشوان:

«إذن، فلقد ربحت أنا الرهان!»

لم يكن جمعة الشوان يعلم في تلك اللحظة، أن القفشة التي ضحك الاثنان لها حتى دمعت عيونهما، كانت هي بالضبط ما يريدانه منه... لم يكن يعلم أنهما جاءا إلى تلك الحانة خصيصًا من أجله، وأنه، منذ أن رست السفينة «آرتا» على رصيف ميناء انتويرب، وهو موضوع تحت رقابة صارمة... لذلك، فبعد أن شبعا من الضحك، وبعد أن جاءت فتاة الحانة بالكئوس الثلاث، قال الرجل:

«أنا موافق!»

أضاف الشاب وكأنه مقدم على رهان عظيم:

«وأنا أيضًا!»

قال الشوان:

«أنا مصري!»

كسب جمعة الشوان الرهان إذن، ضحك الرجل والشاب وصافحا الشوان وقدما نفسيهما إليه، كان اسم الشاب «جاك»، وكان اسم الرجل «إبراهام»... وقال الشوان إن اسمه «جمعة»!

لم يكن جمعة الشوان يعرف في تلك الليلة التي ظن فيها أنه وقع على صيد يدفع ثمن سهرة يقضيها، أنه إنما كان هو الصيد، وأن الاثنين لم يكونا سوى ضابطين من ضباط المخابرات الإسرائيلية...

لو عرف... أكان يستمر في الطريق الذي سار فيه لخمس سنوات أوصلته إلى حيث يجلس الآن في فندق «دياكونجرسا»، يتناول طعام الإفطار فلا يشعر للطعام بمذاق؟!

▣ ▣ ▣

تناول جمعة طعام الإفطار وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ، سرى الخدر في أوصاله فنهض إلى الفراش وتمدد عليه وراح في سبات عميق... لم يكن نومه مستقرًّا لكنه كان نومًا على كل حال، بين الحين والحين كان ينتبه فيفتح عينيه ويجول بهما في الغرفة ثم يغلبه التعب فيخطفه النوم خطفًا... شارفت الساعة على الخامسة عصرًا عندما استيقظ جمعة على رنين جرس التليفون، مد يده إلى السماعة ورفعها في تكاسل:

«آلو!»

«مساء الخير سنيور رحمن!»

«مساء الخير!»

«أنا جاك!»

هب جمعة جالسًا في فراشه. هب وقد عاد إليه وعيه كاملًا، راح عقله يعمل بسرعة، كانوا فيما مضى إذا ما خرج إليهم في سفر يتركونه ليومين أو ثلاثة، ولكنهم هذه المرة لم يمهلوه لأكثر من يوم واحد... راح عقله يعمل بسرعة فران الصمت حتى جاء صوت جاك مرة أخرى:

«آلو... سنيور رحمن!»

في كلمة واضحة عاد الصوت يقول:

«أنا جاك!».

«وأنا نائم!»

قال هذا وهو يعيد السماعة إلى مكانها فما هذا الذي يفعله... حاول أن ينام مرة أخرى فهل كان هذا ممكنًا؟!... سأل نفسه كيف وضع السماعة وكيف قطع المكالمة، لكنه لم يجد جوابًا... عاد التليفون يدق مرة أخرى فرفع السماعة وتصنع التبرم:

«من هناك؟!»

«سنيور رحمن... أنا جاك، هل هنا خطأ ما؟!»

«ليس هناك خطأ، ولكن هناك رغبة في النوم!»

هم جاك، على الطرف الآخر، بالحديث، لكن جمعة سمع دقًا على الباب.

«لحظة من فضلك جاك، هناك من يدق على الباب!»

وضع السماعة إلى جوار التليفون، نهض إلى الباب، ما إن فتحه حتى ارتد إلى الخلف، وجد جمعة نفسه، وجهًا لوجه مع نبيل... واحد من أعتى ضباط المخابرات الإسرائيلية!

■ ■ ■

ما إن قال جمعة في تلك الليلة بميناء انتويرب البلجيكي إنه مصري، حتى هلل إبراهام وجاك وقالا إنه قد كسب بالفعل الرهان، وإنه مدعو لقضاء ليلة حمراء على حسابهما معًا... دهش جمعة فلم يكن يظن أنهما جادان في دعوتهما لكنهما أصرا... سأل جمعة:

«ليلة حمراء؟!»

«في شقة حمراء!»

هكذا رد عليه إبراهام فدهش جمعة وهو يردد:

«شقة حمراء؟!»

فجاءه الجواب:

«نعم شقة حمراء، كل ما فيها لونه أحمر، حتى الهواء»

في لحظات كان جمعة الشوان يحسب الحسبة ويضرب التضريبة ويقبل الدعوة.

عندما خرج الشوان معهما من باب الحانة، كانت هناك سيارة مرسيدس سوداء... كان أول شيء تذكره بعد أن رآها هو سيارة جوجو الجاجوار، نفس الفخامة نفس الموديل لنفس العام... ولقد فتح له جاك الباب فدلف الشوان إلى مقعد وثير كأنه في قصر، انسابت بهم السيارة

في شوارع المدينة لعشر دقائق لا تزيد ثم توقفت أمام عمارة فاخرة... هبط من السيارة ودلف معهما إلى العمارة، وعندما فتح الباب احتواه على الفور نوع من الحمرة كأنه الجحيم ذاته، الأضواء كألسنة اللهب، الأثاث فاخر ووثير، الموسيقى تنساب كالعبير وأريج نساء يسبحن في جو المكان بلا صوت كأنهن الأحلام تجسدت في ليلة خرافية، كأس وبعدها كأس وراح الشوان يشرب الأحاديث والضحكات والهمسات وعلى حائط في صدر المكان بثت صور لفيلم جنسي مثير... اختلط الحابل بالنابل والنسوة بالرجال وكل شيء بكل شيء... وعندما حان وقت الجد كان عليه أن يختار من تروق له من النسوة... ولقد انقضت الساعات فكأنه في حلم، أو كأنه في ليلة خرافية من ليالي ألف ليلة وليلة، لحظة بعد أخرى كانت الشقة الحمراء تخلو من روادها، حتى إذا شارفت الساعة على الثالثة صباحًا، لم يعد فيها سوى ثلاثة رجال، جاك، وإبراهام، وجمعة الشوان.

اختفت الأضواء الحمراء لتحل محلها أضواء خافتة سبحت لتغمر المكان المعبق برائحة اللذة. جلس الشوان مع إبراهام وجاك بعد انصراف الجميع وبدأت الأحاديث تترى... عاود الشوان ذلك الشعور الغامر بالزهو، كان الرجلان يسألانه عن أحواله، وعاد هو يحكي نفس الحكايات التي قصها من قبل على جوجو وماري وذلك الزنجي الذي التقى به في ليلته الأولى بميناء بريستول، حكى الشوان قصته مع السويس والحرب والدمار والهجرة والتهجير والحاجة والبحث عن لقمة العيش فوق سطح سفينة تجوب بحار الدنيا بعيدًا عن الوطن... في تلك الليلة قص عليهم جمعة الشوان قصة جوجو من الألف حتى الياء، وكان كلما

ذكر كل واقعة بدت الدهشة على وجهيهما وتهللت أساريرهما وأبديا عدم التصديق غير أنه كان يؤكد، وكان يحكي كيف جاءته إلى «فوج واي» وكيف طارت إليه في بلفاست والحرب الأهلية مستعرة... تظاهرا - مع الانبهار المبالغ فيه - بعدم التصديق، لكنه أقسم لهما أن ما يقوله هو الحقيقة، والدليل لديه في السفينة، وهو الخطابات التي أرسلتها له جوجو.

قال جاك وهو يبدو كصبي مبهور:

«لا بد أنك غير عادي!!»

عاد الشوان يحكي بالزهو كله... غير أنه لا يعرف كيف انزلق الحديث بهم من جوجو والعواطف إلى العمل... وعندما سأله «إبراهام» عن عمله بالسفينة أبدى الشوان امتعاضه وقال:

«قرفان!»

«لماذا؟!»

قال الشوان وهو يتحسس طريقه إلى رزق أوفر:

«إن حياة البحر شاقة!!»

«لكنك عشت حياتك كلها في البحر!»

«أن تعمل في الميناء طوال اليوم وتعود إلى البيت في آخر اليوم شيء، وأن تعيش على ظهر سفينة ترسو كل يوم في ميناء مختلفة شيء آخر!»

قال جمعة هذا ثم أردف:

«أمر يبعث على التعب والضيق والملل أيضًا!»

راحا يستمعان إليه بإمعان شديد... فعاد يقول:

«ثم إن مرتبي على السفينة لا يكفيني!».

سأله جاك:

«ولم لا تبحث عن عمل آخر؟»

قال الشوان:

«إني في انتظار وصول السفينة إلى السويد أو أمريكا!!»

نفس الحجة التي ساقها للزنجي في ذلك البار في «بريستول»، ثم ساقها لجوجو وماري في اليوم التالي... وكما فعل الزنجي. وكما فعلت جوجو... فعل إبراهام وجاك، تبادل إبراهام النظر مع جاك للحظات فتساءل الشوان:

«ماذا إبراهام؟»

قال إبراهام:

«إن والد جاك مليونير!»

وهتف الشوان في أعماقه: يا بركة دعاء الوالدين ساعة رضاهم.

وعاد إبراهام يكمل:

«وأنا مدير أعماله في أوربا!!»

ها هو الفرج يقترب... إن والد جاك يملك شركة لها فروع في جميع أنحاء العالم غير أن مكتبه الرئيسي في أيسلنده.

نظر جمعة الشوان إلى جاك وبدت رقته أكثر وضوحًا فلعب الفار في عبه.

إن أباه مليونير كما كان مستر ديفز والد جوجو مليونيرًا هو الآخر... وإذا كان المكتب الرئيسي لوالد جاك بعيدًا في أيسلنده، فإن مكتب مستر ديفز الرئيسي كان بعيدًا في مانشستر... فما هي حقيقة الأمر، وكيف تأتي المصادفة بمثل هذا التطابق؟! ولا بد أن إبراهام قرأ ما يدور في رأس جمعة، فعاد يقول:

«إن جاك شاب متهور لعبي وشقي!!»

وتساءل الشوان متغابيًا:

«شقي؟»

قال إبراهام:

«ولقد عهد به أبوه إليّ!!»

ولم يعلق الشوان، لكن إبراهام أردف:

«إنه يجري وراء الفتيات، ولا يكف عن شرب الخمر، ولقد كان يدمن المخدرات... لقد أتعبني كثيرًا!!»

هكذا كان إبراهام يقترب من الهدف، وهكذا بدأ جمعة الشوان يتوتر باحثًا لنفسه عن مخرج. التفت إبراهام نحو جاك وأومأ برأسه نحو الشوان وقال:

«ما رأيك يا جاك؟»

هز جاك رأسه مبتسمًا... وتساءل الشوان بالنظرات دون الكلمات فلقد بلغ توتره في تلك اللحظات أقصاه، وقال إبراهام وكأنه يقرأ أفكار الشوان:

«لو أفلحنا أنا وجاك في إقناع والده بتوظيفك... فهل تقبل؟»

تنفس الشوان الصعداء غير أنه وجد نفسه أمام نفس الحدوتة التي وقعت له في إنجلترا، فما الحكاية؟

«كم سيعطيني والدك؟!»

هكذا سأل فأجابه إبراهام بسؤال آخر:

«كم تريد أنت؟»

قال الشوان:

«إن مرتبي على السفينة فوق ما أحصل عليه من عمولات من هنا وهنا يبلغ الثلاثمائة جنيه كل شهر».

صمت وهو يرقب كأي رجل أعمال متمرس رد الفعل على وجهيهما، لكنه لم يجد شيئًا هناك... كانت ملامح الرجل والشاب كقطعتي صخر ركبتا فوق أكتافهما... فعاد يكمل:

«وإذا قبلت عملًا عند والدك بخمسمائة فلن يكون هذا بالنسبة إليَّ مجزيًا!!»

ظلا جامدين أمامه فراح يفند الأدلة:

«لو أني عشت في أي مدينة فلسوف أنفق الخمسمائة جنيه كلها، سأتكلف سكنًا ومأكلًا ومشربًا وملبسًا... بينما أنا على السفينة لا أدفع مقابل هذا شيئًا يذكر، وأحصل على المبلغ كله لي!».

توقف الشوان عن الحديث وكان إبراهام - الآن - ينظر إليه بإعجاب حقيقي:

«ليس المرتب هو المشكلة مستر شوان!»

«ما المشكلة إذن؟!»

قال جاك:

«المشكلة هي أن يوافقوا في المكتب الرئيسي على تعيينك!»

في لحظة وجد نفسه أمام لاعبين ماهرين، فاحترم الجلسة أكثر، أشعل سيجارة وقال:

«متى تعرفان النتيجة؟»

قال إبراهام:

«غدًا!!»

قبل أن يجيب الشوان قال جاك:

«سأرسل في الصباح برقية إلى أيسلنده فيأتينا الرد في المساء!»

ها هو الحديث يأخذ مسارًا جادًّا وها هو جاك يتحول من شاب عابث إلى رجل أعمال حقيقي، عاد جاك يقول:

«لو أنهم وافقوا فلسوف أكون سعيدًا يا جمعة!».

وكانت الساعة قد جاوزت الرابعة صباحًا عندما غادر الثلاثة تلك الشقة الحمراء... كان الشوان ما زال سكران بخمر شربها وخمر الأمل الذي عاد يتجدد في الحصول على عمل مجزٍ...

في السيارة المرسيدس ركب وتذكر جوجو، وعند سلم السفينة وقفت السيارة.

رغم أن الوقت كان صيفًا فإن الهواء البارد كان يهب على الميناء عنيفًا، وعندما غادر الشوان السيارة غسل الهواء وجهه فتساءل:

«كيف عرفا مكان السفينة؟!!»

في تلك اللحظة صحا جمعة الشوان تماما، أفاق من الخمر ونظر إلى الرجل والشاب لأول مرة في ريبة، وراحت الأسئلة تترى في رأسه بسرعة... إنهما لم يسألاه عن اسم السفينة وهو لم يذكر اسمها... ولم يعرفا منه رقم الرصيف ولا رقم البوابة... ولقد جاءا به من حيث كان إلى سلم السفينة مباشرة... فكيف توصلا إلى كل هذا؟

امتدت قرون استشعاره تبحث عن جواب فلم يجد. صافحهما وهو يقول:

«لم لا تشربان معي فنجانًا من القهوة؟»

كانت مجرد دعوة للمجاملة ليس إلا، غير أنه فوجئ بهما وهما يقبلانها.

قال جاك:

«إني أريد أن أرى صورة جوجو!!»

صعد سلم السفينة وكانا يصعدان خلفه...

■ ■ ■

في فندق «دياكونجرسا»، بعد الغروب بقليل كان على جمعة الشوان أن يواجه ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي عرفه باسم «نبيل»... ولقد أدرك - وما زالت آثار النوم في عينيه - أن المعركة قد بدأت، وأنه لا مفر من خوضها!!

الفصل الحادي عشر

رغم كل ما مضى من أحداث وترقب و توتر وانتظار، رغم أن جمعة الشوان كان يتوقع بين لحظة وأخرى وصول واحد من ضباط المخابرات الإسرائيلية... ورغم أنه كان قد أعد نفسه لهذا اللقاء بكل ما استطاع من جهد، أعد نفسه ورتب أموره وجهز ردوده وإجاباته... رغم كل هذا، فإنه عندما فتح الباب ووجد ضابط المخابرات الإسرائيلي «نبيل» أمام عينيه، مادت الأرض تحت قدميه.

كان النوم ما زال مسيطرًا عليه عندما اقتحم نبيل الغرفة وعيناه تطلقان سهامًا باردة في كل اتجاه، سهامًا كانت تنفذ، إذا ما نظرت عيناه إليك، إلى ما تحت العظم.

«فيه إيه يا جمعة؟!»

خطا الشوان إلى الخلف خطوة ليفسح الطريق لنبيل الذي دفع الباب خلفه فأغلقه، شمل الغرفة بنظرة ووقعت عيناه على سماعة التليفون، دق قلب الشوان بعنف... دق، دق حتى كاد قلبه يقفز من حلقه، ردد نبيل النظر فيما بين الشوان وبين سماعة التليفون وكانت موضوعة إلى جوار الآلة.

صاح الشوان وهو يهرول نحوها وكأنه يدفع عن نفسه تهمة:

«ده جاك يا نبيل... ده جاك!!»

مال الشوان على السماعة ورفعها غير أن نبيل التقطها منه قبل أن تصل إلى أذنه... كيف أخذها وكيف التقطها وكيف تركتها يده؟ هذا ما لم يعرفه... تحدث نبيل في التليفون مباشرة وكان المتحدث على الطرف الآخر في انتظار... كلمة ورد غطاها وكان الحديث بالعبرية فلم يفهم الشوان منه شيئًا، أعاد نبيل السماعة إلى مكانها والتفت نحوه، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة أشد برودًا من نظراته وقال:

«كيفك يا جمعة؟!»

دون وعي رد عليه الشوان:

«والله مانا عارف!!»

انبثقت من عيني ضابط المخابرات الإسرائيلي نظرة كاللهب:

«وكيف العائلة؟!»

ها هو اللعب يبدأ وعليه أن يتقدم مهما كانت النتائج... وإن كان لا بد أن يموت فليمت رجلًا، ها هو نبيل أمامه ولا سبيل للفرار... تقدم منه الشوان وأمسك بكتفيه وارتجفت الكلمات فوق شفتيه وكان عليه أن يتقن الدور، قال:

«عيلة مين اللي بتسأل عليها يا نبيل، ما تروح العيلة في ستين داهية!!»

ظلت نظرة نبيل ثابتة، ظلت زجاجية لا حياة فيها، عاد الشوان يردد:

«احكي لي أنت الأول: إيه اللي حصل ده؟... وإزاي ده حصل؟»

نظر في وجه نبيل، طافت عيناه بملامحه، وضع نظراته داخل عينيه لعله يكشف شيئًا أو يستشف ما يعتمل في أعماق هذا الرجل ولكن هيهات... إن هؤلاء الرجال الذين يعملون في الظلال لا تفصح عيونهم ولا ملامحهم عما يريدون. حتى ولو كانت النار تأكل لحم الواحد منهم أكلًا. بدت له عينا نبيل وكأنهما قد صنعتا من زجاج أصم، سرت الرجفة في أوصاله فخطا مبتعدًا في الغرفة فتعثرت قدمه بالمقعد وآلمه الجرح لكنه كتم ألمه... هو يعرف نبيل، يعرفه جيدًا، التقى به وعمل معه فكيف هذا وقد أخبره «الريس زكريا» أن الطاقم قد تغير.

«إيش اللي جرى ليلة أمس يا شوان؟»

كان نبيل من أصل عراقي، وكان يتحدث العربية بطلاقة وهو واحد من اثنين أو ثلاثة - من كل ضباط المخابرات الإسرائيلية الذين التقى بهم جمعة الشوان - يرتدون أفخر الثياب، الكل كانوا - من وجهة نظره - «عرة»، لكن نبيل بالذات كان يعرف كيف ينتقي أربطة العنق، فهل يطري رباط عنقه كما تعود دائمًا أن يفعل!... ولقد تذكر «الريس زكريا» الذي قال له إن أغلب الطاقم العامل بالمخابرات الإسرائيلية قد تغير، ولم يقل له، «كل» الطاقم... وكان قد رتب أمره على لقاء إنسان لا يعرفه ففوجئ بمن تعامل وعمل معه من قبل... ودائمًا ما كان الريس زكريا يقول له: «ابقى اسمع اللي باقول عليه كويس يا شوان»... سأله نبيل عن ليلة الأمس وهو يعرف ما الذي حدث بالتفصيل فلم يسأل... كان على الشوان أن يؤلف قصة يبرر بها كل هذا الذي حدث... سار نبيل إلى المقعد وجلس عليه وأخرج صندوق سجائر. ودس بين شفتيه لفافة دون أن يقدم للشوان واحدة، كان واضحًا أنه في انتظار الإجابة. ساد

الغرفة صمت كصمت القبور، سمع الشوان دقات قلبه في أذنيه كالطبل، أخيرًا وجد نفسه يقول:

«كانت ليلة سودة بعيد عنك!!».

جلس على المقعد المقابل لنبيل وهو يشعل سيجارة من سجائره.

سأل نبيل:

«ليش؟»

جاءت الكلمة كالرصاص!!

«يظهر إن الأكل اللي أكلته في الطيارة كان فسدان!!»

«كيف يكون أكل الطيارة فسدان يا شوان؟!»

السؤال ساخر بارد حاد كنصل مدية، اجتاحه الرعب واستفزه في نفس الوقت فصاح:

«أنا أقول لك كيف يكون فسدان يا نبيل... ».

و... وطفق الشوان يحكي كيف أنه لم يذق طعامًا طوال يوم أمس إلا هذا الذي تناوله في الطائرة، وكيف داهمه مغص حاد منذ وصوله إلى الفندق، تذكر رامي الذي رآه في مطعم «دياكونجرسا» فقال إنه هبط لتناول الطعام لكن آلام المغص اشتدت عليه فلم يستطع البقاء أمام الناس وأمر بإحضار العشاء إلى الغرفة حتى لا يلفت الأنظار... كانت الآلام تمزق أحشاءه ورغم هذا لم يطلب طبيبًا حتى لا يلفت إليه الأنظار، وما يدريه أن في الفندق بعضا من المصريين، فهو ليس على استعداد لأن

يشنق من أجل «شوية مغص»... جاءوا له بالطعام ثم حملوه كما هو دون أن يمسه، في الصباح عندما فتحوا عليه الباب......

و... وراح الشوان يحكي ونبيل يستمع في صمت... هدأ الشوان عندما وجد أن قصته جاءت محبوكة مع الأحداث ومتسقة مع ما يعرفه الآخرون... انتهى من قصته بالكوابيس التي هاجمته مع المغص واللوحة التي جرحت ساقه، شجعه الحديث على الحديث فقال وقد انتهى من سرد حكايته:

«عرفت كيف يكون أكل الطيارة فسدان؟»

«إحنا انشغلنا عليك... ليش ما كنت بترد على التليفون؟»

«كنت نايم ومدروخ!»

هم نبيل بالسؤال لكن الشوان لاحقه:

«لكن أنت مش عاوز ترد على ليه؟»

تساءلت نظرات نبيل عما يريده الشوان فقال هذا:

«إزاي اللي حصل ده حصل... وليه؟»

تحركت في العينين الزجاجيتين نظرة خاطفة، دبت فيهما الحياة أخيرًا رغمًا عنه... حياة حزينة، ونظرة تصرخ بألف آه. كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها الحزن يسيل من عيني أحدهم كالدمع الجاري، كان الإسرائيليون دائمًا أصحاب عيون وقحة مرحة... فإذا ما جاءت سيرة المصريين في الحديث ازدادت وقاحة العيون وازداد مرحها مهما كان الحديث من أبناء العم معسولًا؟؟... وكان عليه أن يتشفى، أن يأخذ

بثأر السنوات الخمس التي انقضت والنظرات الوقحة تلهب ظهره بسياط لا ترحم... مال على نبيل ودق نظراته في عينيه الزجاجيتين وقال:

«أنت مش عاوز ترد عليّ ليه؟!»

ويوم أن عبرت قوات المصريين قناة السويس رقص الشوان فرحًا، خرج إلى الطرقات يقود سيارته وحده وينظر إلى فرحة الناس، هو واحد من هؤلاء الذين يعبرون، هو، هو واحد من صناع ذلك النصر الذي هز الدنيا هزًّا... لكنه أبدًا، أبدًا، أبدًا لم يشعر بمعنى النصر، لم يحس مذاقه العلوي، إلا في تلك اللحظات التي كان نبيل يجلس أمامه فيها صامتًا كتمثال، نظراته الحزينة تسيل من العينين كالدمع السخين... وضع ساقًا فوق ساق وأشعل سيجارة وهو يقول في صوت أنكره على نفسه:

«إنتوا مش قلتوا لي إن ده مش ممكن يحصل أبدًا؟!»

كان الحديث مؤلمًا وكان الزجاج في العينين قد بدأ يلين وينصهر... فنفخ في النار أكثر وهو يميل مرة أخرى إلى الأمام:

«بدل المرة ألف، مليون، ديشليون مرة وانتوا تقولوا لي إن نجوم السما أقرب للمصريين من عبور الكنال أو اقتحام خط بارليف!!»

تململ نبيل في جلسته وتذكر الشوان نصيحة الريس زكريا:

«اضرب ولاقي يا شوان. اضرب ولاقي ولا تقطعش الحبل!!»

«إزاي عملوها يا نبيل فهمني؟»

كان قد تغافل عن النصيحة التي تذكرها فبدت له عينا الريس زكريا وهما ترسلان إليه نظرة عتاب... أحس بالخجل وقال بصوت خافت:

«أنا من يومها لا عارف أنام ولا آكل ولا أشرب ولا أنا عارف للدنيا طعم».

زفر نبيل زفرة حارة فها هو يفصح عن ألمه، اضطربت في العينين نار من القسوة والغضب والحزن والألم والحقد والمرارة والعذاب، خليط مروع كنتاج بركان يضطرم بما يستعر في داخله وها هو دوره يأتي - حتى وإن كان مقدرًا له أن يموت - لكي يرى اللوعة التي ذاق من قبل مرها وعلقمها وهو يغادر بيته وشارعه ومدينته ومرتع طفولته وصباه... وهو يغادر العمر كله، وهو يحمل أمه وزوجته على كتفيه ويرحل إلى المجهول، تلاحقت الصور في مخيلته... السيارة وكوم اللحم وكوم العفش والقرشين والدموع والدمار والخراب والقنابل تعبر القناة تحمل الموت، والمدينة تخلو من الأهالي، قوافل السيارات وشمس يونيو الحارقة وطريق السويس الصحراوي والسهوم البادي في العيون والألم الممزق للأحشاء في صمت والنظرات الملتاعة كالصرخات النائحة و... و... ووداعًا يا جبل عتاقة... فمتى يكون اللقاء مرة أخرى؟

في تلك اللحظات قرر جمعة الشوان أن يبدأ المعركة، لا مع نبيل وإنما مع خوفه.

كسا وجهه بالهم وفي قلبه فرحة مزغردة، ثم تلاحقت منه الأسئلة:

«أمال المعلومات اللي كنت باديها لكم عملتوا بيها إيه... أمال الطيارات والصواريخ والقواعد ووجع القلب ده كله كان ليه... بقى أنا أعرض رقبتي للمشنقة علشان هم يعبروا؟!»

يصمت قليلًا وكأنه يستحلب اللذة... ثم يصيح:

«فهمني يا نبيل إيه اللي حصل!!»

ولا يأتيه من نبيل سوى الصمت وابتسامة باهتة. ولقد كان جمعة الشوان قد تعلم على مدى خمس سنوات، ومنذ أن التقى بإبراهام وجاك في ميناء انتويرب البلجيكي أن الصمت في هذا العالم السري له معنى... فما الذي يضمره له نبيل؟؟

■ ■ ■

عندما توقفت السيارة المرسيدس الفاخرة أمام السفينة «آرتا» الراسية على أحد أرصفة ميناء انتويرب في تلك الليلة التي التقى فيها الشوان بإبراهام وجاك، كان منتشيًا بألف خمر وخمر... كانت بقايا أبخرة الشقة الحمراء والغانيات السابحات في الضياء الملتهبة ومذاق الأحاديث والضحكات والذكريات، ما زالت جميعها تدثره بغلالة رقيقة من الراحة واللذة معًا... غير أنه عندما غادر السيارة وغسل الهواء البارد وجهه أفاق وتساءل كيف عرف إبراهام مكان السفينة وهو لم يخبره عنها؟!... على الفور تذكر جوجو.

ويوم أن جاءته جوجو في بلفاست دون أن يخبر أمها بمكانه أو بالميناء الذي يتحدث منه، قال لنفسه إن جوجو ابنة مليونير وإن مثل هؤلاء الناس في مثل هذه الدول يستطيعون بالتليفون أن يعرفوا أي شيء عن أي شيء في العالم... وإنها لا بد سألت فعرفت فجاءت.

غير أن الأمر هنا، في انتويرب، كان بالقطع يختلف... ولأنه كان يختلف فلقد كان فوق القدرة على «التسويح»... وإذا كان جاك ابن

مليونير هو الآخر فهو كان في استطاعته أن يعرف على أي سفينة يعمل، وعلى أي رصيف ترسو سفينته؟...

وعلى كل فلقد دعاهما الشوان- دعوة المجاملة تلك- لشرب فنجان من القهوة على ظهر السفينة، وكانت المفاجأة أنهما لبيا الدعوة دون تردد، صعدا سلم السفينة من خلفه واحتل إبراهام المقعد الوحيد في الكابينة بينما جلس جاك على حافة الفراش وظل الشوان واقفًا في مكانه!

كانت الكابينة ككل كبائن البحارة صغيرة ضيقة... على يمين الداخل دولاب يحوي ملابس الشوان وممتلكاته يلتصق به الفراش المثبت في الجدار والأرض... فوق رأس الفراش تلك النافذة المستديرة التي يطلق عليها البحارة من المصريين اسم «المنبليطة»، بجوار الفراش المقعد الوحيد الذي جلس عليه إبراهام يلاصق - في مواجهة الفراش وعلى مسافة نصف متر هي كل المساحة المتبقية من عرض الكابينة - الحوض... فوق الحوض مرآة ورف، على الرف يضع أكوابا، راح الشوان يغسلها بعد أن أوصل براد القهوة بالتيار الكهربائي.

كان جاك يتطلع بين الحين والحين إلى صورة جوجو المعلقة... من الدولاب كان جمعة الشوان قد أخرج رزمة الخطابات التي أرسلتها جوجو وقدمها لإبراهام كدليل على صدق ما قال، راح إبراهام وجاك يقرآن ويضحكان ويتهامسان ويتغامزان وكأن الأمر للتسلية ليس إلا... أما الشوان فلقد تشاغل بإعداد القهوة، ومن خلف زجاج نظارته السميك، كانت عيناه تخطفان المسافة نحو إبراهام بين الحين والحين

ليرى تأثير ما يقرأ عليه... ولقد كان جمعة الشوان في تلك الليلة على استعداد لأن يصدق أي شيء إلا أن يسرقْ إبراهام بعضًا من خطابات جوجو... ولقد حدث الأمر في لحظة بل لمحة... مجرد لمحة عين حانت منه وكان إبراهام يدس في جيبه عددًا من الخطابات التي يتظاهر بقراءتها جاك معه.

لماذا؟؟

دق السؤال في ذهنه كناقوس عالي الصوت متوهج الرنين فتوقفت الدنيا من حوله وبقيت فقط أصداء الناقوس تردد صدى لانهائيًا:

لماذا، لماذا، لماذا؟

لماذا يسرق إبراهام خطابات جوجو؟

ولقد كان هذا السؤال هو ما أرّق جمعة الشوان طوال الليل، فلم يذق للنوم طعمًا... غير أنه لم يكن يعلم في ذلك الوقت، أن هذه كانت البداية فقط، وأن عشرات بل مئات الليالي ستأتي عليه، دون نوم، وبالأرق والعذاب أيضًا. فكيف سيقضي الليلة مع نبيل؟

■ ■ ■

«نبيل... أنا عاوز أسهر!!»

كان هذا هو سبيله الوحيد للهرب من الصمت والعينين الزجاجيتين، ولقد أصبح الشوان موقنًا الآن يقينا لا يقبل الشك للحظة، أن ثمة شيئًا هامًا سوف يحدث... لقد كان الإسرائيليون قد عودوه كما كان قد عودهم على التدليل، على السهر واللعب ومطاردة الغواني والبحث

عن اللذة، كانوا قد عودوه على استجلاب الضحكات والهذر والبحث الدائم عن المتعة، رد عليه نبيل قائلًا:

«ليش ما سهرت بالأمس؟!»

صرخ الشوان:

«إنت اتجننت؟؟»

وجاءه الجواب صمتًا صارمًا... فعاد يهتف:

«إنت عاوزني أنزل روما؟»

رد نبيل بكلمات كقطع الصخر:

«أمال وين عاوز تسهر الليلة؟»

«حاسهر معاك... إنما لوحدي تبقى مصيبة!»

ولا سبيل إلا إلى إقناعهم بأنه هو هو لم يتغير، فهل يقتنعون؟

«افرض إن حد من المصريين اللي بقوا زي الرز في أوربا قابلني. رايح فين وجاي منين ووجع القلب لزومه إيه؟»

قال هذا وهو يشعر أنه وجد القشة التي سيتعلق بها:

«ثم... ثم أنا مش عاوز أشوف حد منهم؟»

ابتسم نبيل ابتسامته الغامضة فلاحقه الشوان:

«ولكن انت مش عاوز تقول لي ليه يا نبيل؟!»

«إيش بتريد أقول لك يا شوان؟؟»

«إزاي حصل اللي حصل؟!!... إزاي المصريين عبروا الكنال؟؟»

«يا الله بينا نسهر!!»

أحس الشوان وهما يغادران الفندق الآن... أن اللعبة تقترب من ذروتها، فارتجف...

وعندما حدث ما حدث من إبراهام، عندما وضع خطابين من خطابات جوجو في جيبه، تغافل الشوان، تغافل أو أن شيئًا غامضًا دفعه إلى التغافل... ربما كان هو الحرص... ربما كانت تلك الرغبة الشديدة في الحصول على عمل يتكسب منه رزقًا أوفر، غير أن الأمر كله كان يصب عند أمل طالما راود الشوان... وظيفة محترمة في شركة يستطيع أن يقفز بها ومنها إلى «وش الدنيا» مرة أخرى.

ولقد تصرف الشوان بعد ذلك بسهولة ويسر، ترك إبراهام يختلس الخطابات وتشاغل بإعداد القهوة ثم قدمها لهما وراح يتجاذب معهما أطراف الحديث، وكانا يؤكدان له جديتهما في البحث له عن وظيفة محترمة في دولة محترمة في إحدى فروع الشركة المنتشرة في كل أنحاء العالم... وعندما انصرفا كانا على موعد معه في الخامسة من عصر اليوم التالي... قال له إبراهام إنه سيمر عليه، وكان جاك يؤكد له أنه سيبعث ببرقية إلى المقر الرئيسي في أيسلنده يطلب فيها من أبيه أن يوظفه.

ظل الشوان واقفًا عند قمة السلم حتى غابت بهما السيارة، عاد إلى الكابينة وقد استغرق في التفكير... ورغم شكوكه التي أصبحت واضحة وإن لم يتضح الهدف منها تمامًا، إلا أنه في تلك الأيام لم يكن يشغله في الدنيا شيء قدر البحث عن عمل مناسب... وسط دوامة التفكير التي اجتذبته كان هناك سؤالان ظلا يلحان عليه في تلك الليلة واحد

إثر الآخر: كيف عرفت جوجو أنه كان يتحدث من بلفاست؟... وكيف عرف إبراهام وجاك أنه يعمل على السفينة «آرتا»؟!!

ولا يدري جمعة الشوان كيف كان يفكر في تلك اللحظات وهو مستلق على ظهره، مستغرق في السكون الذي يشمل الدنيا من حوله، معلق النظرات بسقف الكابينة... غير أن ثمة إحساسًا غامضًا ومثيرًا كان يستولي عليه في تلك اللحظات، إحساسًا بأن ثمة علاقة بين جوجو من ناحية وبين إبراهام وجاك من ناحية أخرى...

ولقد كان إحساسه هذا صادقًا... فلقد قادته هذه العلاقة المثيرة والغامضة إلى حيث كان يجلس الآن بجوار نبيل - ضابط المخابرات الإسرائيلي - في سيارته الصغيرة التي كانت تجري بهما في شوارع روما... صوب مدينة الفاتيكان.

كان السؤال الذي يحير جمعة الشوان أكثر من غيره هو: لم لا يريد «نبيل» أن يتحدث إليه في أمر الهزيمة التي لحقت بهم في أكتوبر 1973؟!... ولم يكن لديه سوى جواب واحد، أنهم يتجنبون الحديث معه في هذا الموضوع حتى لا يثيروا قلقه أو شكوكه، وحتى تأتي لحظة الانتقام منه، لحظة أن يواجهوه بالحقيقة سافرة. ولقد كان وجه هذا الضابط الإسرائيلي الجنسية العراقي الأصل لا تحمل ملامحه ما يوحي بالشر حقًّا، غير أن هذا الوجه ذاته في تلك اللحظة بالذات لم يكن فيه ما يطمئن.

هاهو يعود إلى الجحيم مرة أخرى، إلى السير على الحبل المشدود فوق نارين... أين هو وفي أي طريق يسير؟!!... المرئيات والأضواء

الملونة والشوارع التي تبدو وكأنها زينت بالمعروضات والبضائع، والناس يبدون كأنهم قدوا من معدن آخر، والسيارة تنهب الطريق.. تدور وتلف وتقف... تقف في الإشارات وتنطلق... و... و...

«إحنا رايحين على فين يا نبيل؟»

قال نبيل في اقتضاب:

«الفاتيكان!»

«ليه!»

«الناس بتروح الفاتيكان ليش يا جمعة؟!»

ولم يكن الشوان يعرف «ليش»، غير أنه ابتلع الرد ولزم الصمت، خطر له خاطر انقبض له قلبه، إن نبيل حتى الآن ورغم مرور أكثر من ساعتين على لقائهما، لم يسأله عن آخر نكتة كما تعود وتعودوا جميعًا منذ بداية اللعبة... لقد كان الحديث دائمًا ما يبدأ بينه وبينهم بعد السلامات والتحيات والأشواق بالنكت، لتعلو الضحكات وتظهر الدولارات ويزداد الدخل ارتفاعًا... حتى هؤلاء الذين كانوا يلتقون به لأول مرة، كانوا يطلبون الاستماع إلى آخر نكتة، وكان يطلب منهم الثمن... وهو يحمل هذه المرة - ككل مرة سبقت - عددًا من النكت المنتقاة... نكت تضحك ولا تثير... تضلل ولا تهدي... ربما... ربما كان الأمر راجعًا إلى إحساس «نبيل» نفسه بالمصيبة التي قفزت فوق رءوسهم من الضفة الغربية للقناة، وربما كان هذا الأمر الآن أصبح لا يعنيهم بعد أن اكتشفوا خداعه... وإذا كان الإسرائيليون يريدون به شرًا فهم ليسوا بالغباء الذي

يجعلهم يقدمون على هذا فقلب عاصمة مثل روما... فمتى... متى يقدمون؟... وكيف ستكون وسيلتهم للقضاء عليه؟

ولقد كان جمعة الشوان يعلم علم اليقين أن أمله الوحيد في النجاة في أن يكون طبيعيًّا... ألا يبدو عليه أي شيء مهما كان قلقًا أو خائفًا...

ولقد حاول، وها هو يحاول أن يكون طبيعيًّا... وعندما وقف أمام سيارة نبيل بعد أن غادر فندق «دياكونجرسا»... هتف ضاحكًا وهو يحشر نفسه في المقعد الأمامي:

«أمال فين الكاديلاك والمرسيدس يا بلبل؟».

أدار نبيل الموتور دون رد، فأردف الشوان:

«مش عيب تركب 127 ونمشي حافيين في شوارع روما؟».

ولقد كانت قفشة مثل هذه في الماضي كفيلة بأن تطلق الضحكات من حنجرة أكثرهم صمتًا كالعاصفة... لكن نبيل لم يضحك للقفشة، كل ما فعله أن ابتسم، التفت الشوان نحو نبيل، وكانت ملامحه لا تزال صخرية متجهمة. هم بالحديث عندما فاجأه هذا بالسؤال المنتظر:

«إيه آخر نكتة يا جمعة؟!»

تنفس الشوان الصعداء وصاح محاولًا تصنع المرح:

«معاك فلوس؟»

قالها وضحك وحده... ولقد كان ثمن النكتة دائمًا خمسة وعشرين دولارًا أمريكيًّا، كان قد تعلم أن للنكتة – أية نكتة – دلالة سياسية أو اقتصادية، وقد أصبح عليه، قبل أن يسافر كي يلتقي بأحدهم، أن يطبخ

عددًا لا بأس به من النكت التي توحي بشيء غير الحقيقة، وتصرف النظر عما يريدون معرفته، ذات مرة أمدهم بعدد لا بأس به من نكت طبخت جيدًا ووصلت الحصيلة إلى مائتي دولار... اعتدل في جلسته وقال نكتة ضحك لها نبيل ضحكة قصيرة رغم أنها كانت من هذا النوع الذي يجلب أموال الإسرائيليين بسهولة، نكتة ابتسم لها الريس زكريا عندما سمعها من الشوان، ودق المائدة التي كانت تفصل بينهما بإصبعه وهو يغمغم:

«مش كفاية، دور لهم على نكت تانية!!».

وهكذا فعل نبيل - وكأن الرئيس زكريا كان يقرأ المستقبل - فلقد سأل الشوان عن نكتة أخرى...

«يبقى الحساب خمسين دولار!!»

هكذا قال، وهكذا كان يبدأ العمل معهم... وهكذا كانوا يدخلون إلى لب الموضوع بالحديث عن المال... وإذا كان لا بد له أن يكون طبيعيًّا فعليه كما تعود دائمًا أن يطيع الريس زكريا، وأن يكون طبيعيًّا وعلى سجيته مهما كان الموقف حرجًا... ولقد قال جمعة نكتة أخرى، غير أنه لم يقل النكتة الثالثة إلا بعد أن نقده نبيل الخمسين دولارًا، وبعد أن رأى الورق الأخضر السحري... فمال على نبيل وهو يتململ من ضيق السيارة قائلًا:

«بالمناسبة... أنا محتاج لفلوس قوي!»

نظر إليه نبيل بجانب عينه فعرف معنى النظرة وصاح هو:

«مانت عارف أنا بأخرج من مصر بإيه؟»

رماه نبيل بنظرة أخرى فعاد هو إلى الصياح:

«هم العشرين دولار مفيش ولا قرش زيادة!!»

ابتسم نبيل ابتسامة من توقع كل كلمة، غير أن الشوان لم يكن - في مثل تلك اللحظات التي يكون فيها المال هو محور الحديث - تعنيه نظرات أو ابتسامات...

«أنا مش مستغني عن نفسي... أنا ما بقاش مديون في مصر وأسافر ومعايا عملة صعبة!!».

وفي ميـدان سان بيتر بالفاتيكان توقفت السيارة وهبط نبيل منها وكان لا بد للشوان أن يحذو حذوه...

ولكن... إلى أين؟

نظر حوله وكان الميدان في هذا الوقت من الليل يبدو خاليًا تماما، أضواؤه خافتة... اعتراه الخوف من جديد، وكأن التاريخ يعيد نفسه، كأن الزمن لا يمضي ولم يمض... فلقد ذكره ذلك الإحساس بالرهبة، بإحساسه يوم أن ركب مع إبراهام السيارة المرسيدس الأنيقة الفارهة ولم يكن يعلم إلى أين سيذهب به.

وعندما هم جمعة الشوان بمغادرة السيارة في ميدان سان بيتر أوقفته عينا نبيل الزجاجيتان وكانتا تلمعان في الظلام.

■ ■ ■

في اليوم التالي – في ميناء انتويرب – جاءه إبراهام في الخامسة تمامًا... كانت شكوك الشوان قد تأجلت أو تبددت أمام رغبته العارمة في الحصول على وظيفة محترمة، كان إبراهام وحده فسأل الشوان عن «جاك» فجاءه الجواب بأنه في انتظار الرد على البرقية، وأنه سيلحق بهما... ركب الشوان إلى جواره وانطلق إبراهام بالسيارة مبتعدًا عن السفينة... في الطريق إلى البوابة عبر دروب الميناء رأى الشوان ربان السفينة وكان يسير في ذلك الطريق المؤدي إلى المدينة على قدميه، طلب الشوان من إبراهام أن يأخذا الربان معهما لكنه رفض، رآه الربان في السيارة الفارهة، فلوح له لكن إبراهام ضغط على مفتاح البنزين كي تندفع السيارة بسرعة مبتعدة... طوت السيارة شوارع انتويرب وأمام أحد المشارب الفاخرة توقفت... كان عليهما أن يتناولا كأسين وأن ينتظرا النتيجة التي سيأتي بها جاك فور وصول الرد من «أيسلنده»... هكذا قال له إبراهام فكاد الشوان يسأله لم سرق خطابات جوجو بالأمس، لكن دافعًا خفيًّا منعه من ذلك فلقد كان مشغولًا بمن سيأتيه بالموافقة... في داخله يقين غريب بأن جاك سيأتي بالموافقة، يقين لا يدري مبعثه... وكان هذا هو ما حدث تمامًا، دخل جاك إلى المقصف متهللًا وتقدم من الشوان مصافحًا في حرارة:

«تهانيَّ... لقد قبلوا العرض».

تهلل إبراهام ورقص الشوان مرحا فها هو الفرج أخيرًا قد جاء. قال جاك إنه خاض معركة عنيفة لكي يحصل على الموافقة... سأله الشوان:

«وأين سيكون مقر عملي؟!»

ضحك جاك وقال إن هذه هي المفاجأة... تبادل إبراهام وجاك حديثًا غامضًا وكان الأول يبدو دهشًا لما حدث ولا بد أن الشوان أوتي حظًّا من السماء... قال لجاك «برافو» ولم يعرف الشوان عن أي شيء كانا يتحدثان... عاد الشوان يلح عليهما فسأله إبراهام وقد تهللت أساريره:

«كنت تقول بالأمس إنك تريد بلدًا من الاثنين إما أمريكا وإما السويد!!»

«حدث هذا!!»

أجاب جاك:

«سيكون مقر عملك في مكان أحسن من أمريكا والسويد معًا!!»

صاح الشوان:

«لا بد أن يكون المكان في الجنة إذن!!»

وغرق الاثنان في عاصفة من الضحك، لكنهما قالا إن هذه مناسبة لا بد من الاحتفال بها... غير أن ثمة شيئًا قبل الاحتفال لا بد من إنجازه حتى ينهي الجميع عمل اليوم.

عندما ركب معهما الشوان السيارة مرة أخرى داخله شعور غامض، رغم الفرحة الغامرة بالقلق فسأل:

«إلى أين؟؟»

«فندق الكونتننتال!!»

«ولماذا؟»

قال إبراهام:

«لأني أسكن هناك!»

في إحدى غرف فندق الكونتننتال تركاه وحده... كانت الأحداث تجري بلا توقف، في الغرفة وجد مكتبًا و على المكتب كان هناك ورق وقلم، وكان المطلوب منه أن يجلس إلى المكتب، وأن يكتب كل شيء عن نفسه!!

«كل شيء؟»

«نعم... كل شيء»

«مثل ماذا؟»

مال عليه إبراهام وكان جاك يقف عند النافذة متأملًا الطريق:

«مثل سنك، عنوانك في السويس والقاهرة، اسمك بالكامل واسم زوجتك، أقاربك وقريباتك، وأزواجهم وصديقاتك، عنوان هؤلاء وأولئك، مرتباتهم وطبيعة وظائفهم والأماكن التي يعملون بها، جيرانك ومعارفك، التليفونات وعناوين السكن في القاهرة والسويس معًا!!»

صمت الشوان محملقًا في وجه إبراهام ثم سأل:

«لم كل هذا؟»

«ما الذي يطلبونه منك في القاهرة إذا تقدمت لشغل وظيفة ما؟!»

«يطلبون مسوغات التعيين!!»

«ولأنك غريب هنا فإن هذه تعتبر مسوغات التعيين!!»

أومأ إبراهام لجاك فتحرك هذا نحو الباب، كان الشوان ذاهلًا في تلك اللحظات يموج صدره بآلاف المخاوف، أخرج إبراهام مائة دولار أمريكي قدمها للشوان وهو يقول:

«حتى لا تحتاج إلى شيء!»

ثم تناول القلم والورق وكتب عنوانًا دفع به إلى الشوان وهو يردد:

«عندما تنتهي من كتابة المعلومات، اترك كل شيء هنا ولسوف نلتقي في منتصف الليل في ملهى بلوستار!!»

«أين يقع هذا الملهى؟»

دفع إليه بالورقة قائلًا:

«هذا هو العنوان!»

تحرك إبراهام وجاك نحو الباب، فهتف الشوان وقد تذكر شيئًا:

«لكنني لا أستطيع كتابة هذه المعلومات بالإنجليزية!»

قال إبراهام وهو يفتح الباب استعدادًا للخروج:

«اكتب بالعربية، إن لدينا مترجمين لكل لغات العالم!!»

ثم اختفيا وتركاه وحده!!

الفصل الثاني عشر

كانت لحظات غريبة تلك التي عاشها الشوان وحده في تلك الغرفة المغلقة عليه في فندق الكونتننتال بميناء انتويرت البلجيكي... لم يكن هناك ما يثير الشك حقًّا فلقد كان كل شيء يبدو طبيعيًّا للغاية، وعندما تتقدم للعمل بإحدى الشركات فلا بد لهذه الشركة أن تعرف عنك الكثير، وفي بلاد برة تصبح مثل هذه المعلومات التي طلبها جاك وإبراهام من جمعة الشوان أمرًا طبيعيًّا، وعلى الرغم من هذا فإن ثمة إحساسًا غريبًا غامضًا كان يجتاح الشوان وهو يمسك بالقلم ويجلس إلى الورق وتمضي الدقائق وهو لا يستطيع أن يكتب شيئًا!!

كان يشعر أنه الآن يقف في مفترق الطرق. هكذا أحس وهكذا حدثته نفسه وحدثه قلبه... وها هو لا يزال حتى الآن يقف على البر، فأي الطريقين يختار؟!

كان إبراهام قد طلب منه أن يكتب أسماء المعارف والأصدقاء – المهمين بس! – ولقد كانت هناك شكوك، نعم لكنها شكوك غامضة مختلطة... ثم... ثم إن هذه كلها تتضاءل، ولا سبيل لإنكار هذا، أمام رغبته تلك الملحة في الحصول على عمل يتكسب منه رزقًا وفيرًا... هو يحب المال، هذا حق وليس فيه عيب، ثم... ثم مَنْ مِنَ الناس لا يحب الفلوس؟!

في النهاية... أمسك الشوان بالقلم والورق وراح يكتب كل شيء عن نفسه، تمامًا كما طلب إبراهام... كتب كل شيء عن نفسه وعن أهله وأصدقائه ومعارفه... والعناوين وأرقام التليفونات والمكانة الاجتماعية... لم يكذب سوى كذبة واحدة... فلقد كتب ضمن الأسماء اسمًا وهميًّا لعقيد وهمي في سلاح الصواريخ المصري، وقال إنه ابن عمه، وكان - بذلك - يريد أن يعطي للعائلة أكبر قدر من الأهمية في نظر هؤلاء الذين يطلبون مصوغات تعيينه.

عندما انتهى الشوان من الكتابة أسرع بمغادرة الفندق، كان عليه كما طلب منه إبراهام وجاك أن يلتقي بهما في ملهى «بلوستار» - أي النجمة الزرقاء - في منتصف الليل تمامًا...

كان أول ما فعله جمعة الشوان بعد مغادرته الفندق هو البحث عن أحد مكاتب تحويل العملة التي تنتشر عادة في الموانئ. وكان يعرف هذا المكتب القائم في محطة السكة الحديد في إنتويرب... أغلب الظن أن الشوان قد قطع المسافة من الفندق حتى محطة السكة الحديد سيرًا على الأقدام، فلقد كان في حاجة إلى المزيد من التفكير، كما كان في حاجة إلى المزيد من التوفير أيضًا... في جيبه مائة دولار أمريكي أراد أن يحولها إلى فرنكات بلجيكية... هناك، وفي الطريق من الفندق إلى المحطة، كان ذهنه يعمل بعنف بالغ. الطريق أمامه كثيف الضباب وثمة رائحة غير عادية تزكم أنفه... ولقد تقبل من جوجو ما هو أكثر من ذلك غير أنه كان يعزي هذا إلى الحب... لعب الشك في صدره إذن، وكان كلما أمعن التفكير كبرت شكوكه وتضخمت، ثم تدعمت هذه الشكوك عندما اكتشف وهو في محطة السكة الحديد أنه مراقب.

وتوقف.

كان في طريقه إلى نافذة البنك الصغير عندما لمح جاك وهو ينظر إليه من بعيد!!

ربما جاء جاك إلى المحطة مصادفة. فهو هو نفسه – أي الشوان – لم يكن يعلم أنه آت إلى هنا إلا بعد مغادرة الفندق... ربما... ربما... ربما... وكان لا بد أن يقطع الشك باليقين، فتصنع السير على غير هدى، فراح وجاء، دخل إلى الكافتيريا وخرج منها، وعندما وقف أمام الصراف ليحول الدولارات إلى فرنكات كان اليقين قد ملأه ولم يعد هناك أي مجال للشك في أن جاك يراقبه من بعيد!!

فلماذا؟

أخذ الفرنكات من الصراف وتوجه إلى الكافتيريا وجلس وطلب فنجانًا من القهوة السوداء، وقبل أن تأتي القهوة كان جاك يقف أمامه مبتسمًا متهللًا:

«هالو جمعة... متى أتيت إلى هنا؟!»

وعادت شكوكه في يقينه من جديد فسقط في الحيرة... فلو أن جاك كان يراقبه لما جاء إليه الآن، وها هو الفتى يجلس إليه ويقبل دعوته على فنجان من القهوة، قال جاك إنه كان على موعد في المحطة مع فتاة لكنها لم تأت، شرب قهوته وانصرف على عجل لكنه سرعان ما عاد من جديد ليدعو الشوان إلى «مرقص» وليس هذا شأن من يراقب إنسانًا، وإن بعض الظن إثم. قال جاك إنهما سيجدان في المرقص عددًا لا بأس به من الفتيات... دلفا إلى المكان وجالسا فتاتين إحداهما في

العشرين والأخرى في حوالي السادسة والعشرين من عمرها، مضت ساعة وقفز جاك مستأذنًا فصاح به الشوان أن يدفع الحساب قبل أن ينصرف فهو الداعي... ضحك جاك وضحك الشوان ومضت دقائق وانفلت بعدها الشوان مستأذنًا من الفتاتين فلقد كان الفأر يلعب في عبه رغمًا عنه وكان لا بد له أن ينفرد بنفسه ليحسب الحسبة ويفكر في الأمر بروية... راح يضرب في شوارع إنتويرب على غير هدى وكانت الساعة قد بلغت العاشرة وما زال أمامه ساعتان على موعده معهما في منتصف الليل في ذلك الملهى «بلوستار»، التقى فريقًا من البحارة كانوا يجوبون الطرقات فانتحى جانبًا وزاغ منهم... كانت لحظات غريبة تلك التي عاشها الشوان في تلك الليلة، كان وحيدًا وحيدًا، ماذا لو كان في الأمر شيء؟ - هكذا راح يحدث نفسه - ماذا لو لم يكن إبراهام وجاك سوى... سوى... ورفض ذهنه أن يكمل، وتوقف تفكيره فهو لا يعرف بل هو لا يريد أن يعرف، وربما تحطم حلمه العظيم في عمل يدر عليه رزقًا يقيه غوائل الزمن القادم، بما لا يعلمه أحد إلا الله!!

في تلك اللحظات كان جمعة الشوان يشعر شعورًا غامضًا بأنه إذا خطا خطوة واحدة أخرى فلن تكون بعدها رجعة عن شيء مجهول ورهيب... وأن هذه الخطوة ربما كانت بداية رحلة طويلة لا يعلم ما يكتنفها من أخطار إلا الله... رحلة قد تقوده إلى مصير مجهول وربما مفزع... رحلة تقوده إلى «ميدان سانت بيتر» بمدينة الفاتيكان المقدسة حيث كانت عينا ضابط المخابرات الإسرائيلي «نبيل» الزجاجيتان تلمعان في ضوء الليل ببريق غريب ومخيف.

❖ ❖ ❖

كان السؤال الذي حير جمعة الشوان في تلك الليلة – وربما ما زال يحيره حتى اليوم – هو: لماذا قاده نبيل إلى ميدان «سان بيتر» بالفاتيكان؟

لم يكن هناك سوى مجموعات من السياح المتناثرين هنا وهناك، رفع الشوان رأسه وراح يدور بعينيه في تماثيل القديسين التي تحيط بالميدان من فوق ذلك السور الشامخ... سارا جنبًا إلى جنب ولم يكن هناك حديث يتبادلانه... غير أن الحديث بينهما في السيارة كان قد توقف عند النقود فلم لا يستأنفه؟:

«قلت إيه يا نبيل؟»

التفت إليه هذا دون رد...

«أنا بأقول لك إني محتاج فلوس!!»

هكذا تعود دائمًا معهم وكان عليه ألا يغير من عاداته شيئًا، أخرج نبيل من جيبه رزمة من الأوراق المالية أعطاه منها ثلاثمائة دولار، دسها الشوان في جيبه وتحسسها واطمأن أنها استقرت في حوزته ثم وضع يده في ذراع نبيل وهمس:

«أنت ناوي تسهرني في كنيسة؟»

وضحك نبيل هذه المرة... ضحك من أعماقه فتنفس الشوان الصعداء وعادت إليه ثقته بنفسه، قال نبيل وهو يتأبط ذراع الشوان سائرًا به نحو السيارة: «يا الله بينا»...

ومنذ أن تمرس الشوان على اللعبة لم يكن يسأل كثيرًا، فالأسئلة مهما تكن فلن تجد – في هذا العالم المركب المتشابك – إجابات إلا بقدر ما

تحتاج إليه، لكنه في تلك الليلة أراد أن يكسر كل القواعد، فصاح وهما يصعدان إلى السيارة:

«على فين؟!»

قال نبيل:

«البلاك كات!!»

ودق قلب الشوان فرحًا... لا لأنه يعرف أن ملهى «القط الأسود» هو واحد من أكبر مدارس الجنس واللذة في أوربا، ولكن لأن هذا بالذات كان يشير إلى أنهم ما زالوا يتبعون معه نفس الأسلوب. أو - وعاد الشك والخوف يغزوانه من جديد - أنهم يطمئنونه ويخدعونه حتى تأتي اللحظة الحاسمة فمتى تأتي؟!!

كان الشوان الآن يعرف الكثير من مدارس الجنس واللذة، أو كما تعودوا أن يطلقوا عليها «بيوت المتعة»، والتي كانت إسرائيل قد أنشأت منها العشرات في جميع أنحاء أوروبا خصوصًا بعد نكسة 1967، لجذب الشباب العربي من كل مكان إلى حيث الجنس والخمر والمخدرات والمتعة في أبشع صورها... وكان الريس زكريا عندما يروق له المزاج ويضع يده في يد الشوان ويأتي صوته خافتًا كالهمس واضحًا كالصراخ يحكي لجمعة ما كانت تفعله هذه المدارس وتلك البيوت ببعض شباب العرب حكايات طويلة... غير أن الريس زكريا كان يبدو مهمومًا وهو يحكي تلك الحكايات، ويزداد همه وحزنه وهو يذكر أسماء بعض الذين اصطادتهم هذه البيوت فسقطوا وخانوا وتجسسوا كان يبدو متألمًا أشد الألم، حتى لقد صاح فيه الشوان ذات مرة في ضيق:

«إنت عاوز تفهمني إنك بتزعل لما تمسك جاسوس يا ريس زكريا؟!»

في تلك المرة انبثقت من عيني الريس زكريا نظرة كانطلاقة الصاروخ. نظرة ارتجف لها الشوان غير أنه لم يتراجع وطلب ردًّا على سؤاله، فقال الريس زكريا:

«أنا إيه مصلحتي في إني أخسر مواطن يا شوان، أنا مصلحتي إيه في كده؟!!»

▪ ▪ ▪

ولقد كان ملهى القط الأسود - كعادته - يموج بما فيه من موسيقى وضحكات وأضواء، وكانت رائحة العطور تعبق المكان بسحر خفي... شربا وأكلا واستمتع الشوان وأراح ذهنه المكدود فيما كان يعرض على الناس من فنون الحب والرقص والغناء... ولقد مضى بهما الوقت حتى انتصف الليل فمال عليه نبيل قائلًا:

«مش كفاية كده؟»

«كفاية إزاي؟»

«لازم تنام بدري، عندنا شغل بكره!»

صاح فيه الشوان، مستنكرًا:

«من غير درس؟!»

سأله ضابط المخابرات الإسرائيلي:

«لازم درس يعني؟»

كانت دروس الجنس في ملهى القط الأسود داخلية وخارجية فأراد أن يكون متنسبًا... أدخله الإسرائيليون إلى هذا الملهى يوم ظنوا أنهم بالجنس مع المال سوف يسيطرون عليه سيطرة لا فكاك له منها... في كل مرة كان يأتي فيها إلى أوروبا أو يزور إسرائيل كان يحرص الحرص كله على الإغراق في طلب اللذة، صاح في وجه نبيل محتجًّا:

«طب اشتغل من بكره إزاي وأنا جعان؟»

وهكذا يجب دائمًا أن يبدو أمامهم، عابدًا للمال سائل اللعاب أمام اللحم الأبيض... ولقد كان الشوان في حقيقة الأمر راغبًا عن مجالسة أحد، رغم النشوة والكئوس المترعة إلا أن الشك في صدره كان يدور بألف سؤال ولم لا يكون نبيل ليس سوى وسيلة لبث الطمأنينة في نفسه حتى يتمكنوا منه... الدليل على ذلك أنه – حتى الآن وعلى غير عادة – لم يسأله عن شيء. لم يستفسر عن شيء... ولقد دفع ضابط المخابرات الإسرائيلي في تلك الليلة ثلاثمائة وثمانين ألف ليرة إيطالية ثمنًا للعشاء والشراب و... و... والدرس الفارع الطويل الناهد الصدر الذهبي الذي اصطحبه الشوان معه إلى الفندق «دياكونجرسا»!!!

كم كان الشوان مشتاقًا وهو ينتقي تلك الغادة الفارهة الطول، الشقراء العسلية العينين للحظة حب حقيقية... ذلك الحب الذي طال الشوق إليه، ذلك الإحساس الساري الغامر الفياض بالطمأنينة والراحة، كان الآن وهو يمارس الحب يشعر وكأنه يمارس البيع والشراء، يشعر بالعطش يلهب حلقه، عطش للحظة، لقطرة، بعدها يموت لحظة يستشعر فيها الارتواء ولو بنظرة صادقة!

غير أنه عندما دلف إلى غرفته بالفندق وأغلق الباب خلفه، ووقعت عيناه على المرأة التي صحبته، توقف أمام فكرة بدت له غريبة ومفزعة. ما الذي يدريه أن هذه المرأة قد جاءت معه لتقتله؟

سرت القشعريرة في بدنه... كان أبسط ما يمكن أن يتخيله أنه لن ينام طوال الليل!!

■ ■ ■

وصل جمعة الشوان إلى ملهى «بلوستار» قبل منتصف الليل بعشر دقائق.

وعندما دلف إلى المقهى في تلك الليلة كانت شكوكه لا تزال تداعب عقله، لكنه كان في نفس الوقت قد اتخذ قرارًا.

فإذا كان على يقين من أن علاقة ما تربط بين جوجو من ناحية وبين إبراهام وجاك من ناحية أخرى، وإذا كانت جوجو قد أعطته الحب وأغرقته بالمال... وإذا كان جاك وإبراهام قد حولا البحر كله إلى طحينة... وبدآ معه نفس البداية ومنحاه مائة دولار أخرى قبل أن يفعل شيئًا... فلم لا يستغل كل هذا ويحصل على ما قد يعطونه له من مال حتى يتبين له الأمر كله؟!!

كان – منذ أن رأى إبراهام بالأمس يختلس عددًا من خطابات جوجو – قد أصبح يقارن رغمًا عنه بين ما يفعله إبراهام وجاك وما كانت تطلبه منه جوجو... بالرغم منه كان يقارن وكانت المقارنة دائمًا ما تؤكد تلك العلاقة الخفية بينهما!!

كان قد اتخذ قراره إذن بأن يساير الأحداث ليحصل على أكبر قدر ممكن من الربح... لكنه بيقين لا شك فيه، كان يعرف وهو يتخذ قراره هذا أي خطوة كان يتخذها، أي طريق يقرر السير فيه، وإذا كان الشوان لم يكن يقدر خطورة قراره هذا حق قدره إلا أن كل ما كان يعرفه أنه في حاجة إلى المال. وها هو المال يأتيه من حيث لا يحتسب، فهل يرفض النعمة؟!

ما إن خطا إلى ملهى «بلوستار» حتى رأى إبراهام أمامه. كان إبراهام يتحدث إلى مدير المحل في ذلك الممر الضيق الذي يقود الداخل من الباب إلى حيث القاعة الهائلة التي تعج بكل ما يبهج النفس...

غير أن جمعة الشوان تجاهل إبراهام، لم يذهب إليه، بل انثنى إلى حيث كانت دورة المياه، غاب هناك لدقائق ثم عاد.

وكان إبراهام لا يزال هناك، فاتجه نحو القاعة وهو يتجنب النظر إليه حتى إذا مر به، اعترضه هذا صائحًا: هالو جمعة... ألا تذكرني؟

قال الشوان باسمًا:

«كيف لا أذكرك؟»

«إنك حتي لم تلق عليَّ تحية المساء؟!».

قال الشوان وهو يتخذ سمة رجال الأعمال:

«لأن موعدي معك في الثانية عشرة وما زال هناك دقائق قبل أن يحل الموعد!!».

ابتسم إبراهام وهو يلتفت إلى مدير المحل قائلًا:

«ألم أقل لك إنك ذكي ولماح؟!»

وقضى الشوان مع إبراهام وجاك ليلة أسطورية في البلوستار... ترك نفسه للطريق فراح ينزلق فيه وكان يعرف ما الذي سوف يفعله فيما هو قادم من أيام... التقت بهم في الملهى سيدة ليست من بنات الليل ولا هي من بنات الملهى نفسه... صحبتهم هذه السيدة التي لا يعرف الشوان لها اسمًا، ثم صحبته بعد السهرة إلى مسكنها لتسكنه حتى الصباح بين ذراعيها في نعيم تمرغ فيه بنصف وعيه... ذلك أنه، ويا للعجب، تذكر جوجو... منذ أن دلف إلى البيت تذكر جوجو وكان طعم المر ينساب في حلقه، فرغم كل شكوكه، ورغم كل ما قاله لنفسه، ورغم كل ما أحس به تجاه تلك الفتاة التي التقطته ذات يوم من إحدى حانات ميناء يقع على الشاطئ الغربي لإنجلترا، إلا أنه كان يتشبث ببقايا أمل في أن يكون الحب، ولو كاذبًا، هو الذي ربط بينهما!!

الرجل منا قد يدفع حياته ثمنًا للحظة حب صادقة... فإذا ما اكتشف ذات يوم أنه عانى من وهم. كان هذا بمثابة حكم على القلب فيه بالإعدام... فهل يعود إلى الحياة كائن ذهبت عنه الحياة؟

في صباح اليوم التالي عاد جمعة الشوان إلى السفينة. وفي ظهر اليوم التالي وعندما كان الناقوس على ظهر السفينة «آرتا» يدق إيذانًا بموعد الغداء، جاء من يخبر جمعة الشوان أن إبراهام يقف على الرصيف في انتظاره. هرول إلى حيث كان إبراهام يجلس خلف عجلة القيادة في المرسيدس الفاخرة، فجلس بجواره وهو يسأل في لهفة:

«هل لديك أنباء جديدة؟!»

«في المساء ستعرف مقر عملك الجديد!!»

رقص قلب الشوان أملًا وأردف إبراهام:

«ولكن عليك من الآن وحتى آتيك قبل الغروب مباشرة أن تفتعل أسبابًا لترك السفينة!!»

أصاب الشوان الجزع، ولقد كان هذا تمامًا هو ما ألحت به جوجو عليه:

سأل: «اليوم؟»

«لأنك سوف تتسلم عملك اليوم!!».

«وماذا لو رفض القبطان؟!»

«هذه مهمتك وعليك أن ترغمه على القبول!!»

«وماذا لو لم يعطني حسابي ولي في السفينة أجر بضعة أشهر؟!»

«سأعطيك ضعف مالك عنده!!»

«وما الذي يضمن لي أنك ستنفذ وعدك؟!»

قال إبراهام:

«وما الذي يدفعني إلى خداعك؟»

غير أن الشوان- بتلك الحاسة الغريبة لديه - لم ينفذ شيئًا من هذا، عاد إليه حرصه القديم فلم يفتعل مشاجرة ولم يطلب مغادرة السفينة... كانت جوجو تطلب منه أن يترك عمله في إلحاح وها هو إبراهام يفعل نفس الشيء... ولقد رفض الشوان طلب جوجو رغم كل المغريات، فهل كان إبراهام يستطيع ما لم تستطعه جوجو؟!!

عند الغروب عاد إبراهام...

هبط إليه الشوان وفي صدره عشرات الأسئلة، لقد هاجر بحثًا عن الرزق. وها هو الرزق يأتيه من حيث لا يحتسب... غير أنه كان يشعر عن يقين أن قصوره هذه العالية التي كان يبنيها كلما جلس إلى إبراهام أو كلما كان يجلس مع جوجو كانت تشمخ فوق رمال متحركة... ولقد سأل إبراهام عما فعله في السفينة فقال له: إن القبطان رفض في إصرار أن يستغني عنه، ورفض أن يعطيه جواز سفره...

دخلا مطعمًا وطلب له إبراهام طعامًا وشرابًا فعافت نفسه الطعام والشراب فلقد كان القلق يطويه طيًّا... ترى: أي مكان اختاروه لمقر عمله الجديد؟!!... وهل... هل هناك عمل حقًّا، أم أن الحكاية ما زالت لها ذيول سوف تجر بعضها جرًّا؟!

هل اختاروا له ميناء من تلك الموانئ الكبيرة العامرة بالأرزاق؟!... إنهم لو فعلوا ذلك فلسوف يترك عمله بالسفينة ولسوف تتبدد شكوكه ولسوف يعرف كيف يدبر أموره ويحلب الهواء مالًا سائلًا... كان يحلم وهو جالس إلى جوار إبراهام، وكم تمنى في أعماقه أن يختاروا له ميناء إنجليزيًّا حتى يصبح قريبًا من جوجو، ولسوف يعمل ليل نهار ويمسك بالوظيفة بيديه وأسنانه ولكن أين؟

وعندما سأل الشوان عن مقر عمله الجديد كان ما قاله إبراهام هو آخر مكان يخطر بباله:

«ستكون مدير مكتبنا في مصر!!»

ودق قلب الشوان بعنف... دق بعنف بالغ!

كانت هذه هي المرة الأولى التي يغيب فيها عن الوطن. كان يفتقد التراب والأهل. ولكن... إذا كان الأمر أمر عمل، فلم يشرف على المكتب في القاهرة فيحاسبوه بالمصري، ولم لا تكون الوظيفة في بلد أوروبي فيجمع من المال في عام ما سوف يجمعه في القاهرة في أعوام؟!

غير أن شيئًا ما خطر بباله، شيء جعله يرتجف رعبًا، نظر في عيني إبراهام وكان هذا ينظر إليه باسمًا، في العينين بريق لا يخفى عليه، فيهما خبث لا ينكره إلا طفل رضيع، في النظرة وحشية، وفي الابتسامة ذئبية مفترسة، ترى ما الذي يريدونه منه؟!

مع الحنين المتسلل من أعماقه إلى أرض الوطن، كان ثمة خوف يعربد في كيانه كله، خوف مثل هذا الخوف الذي اجتاحه بعد تلك الليلة العاصفة التي قضاها مستيقظًا، بلا نوم مع المرأة الصاروخ، وقد كان يظن أنها لبت رغبته كي تقتله، تلك كانت ليلة اختلط فيها المر بالعسل اختلاطًا غريبًا، هو ليس قديسًا ولا يريد أن يكون، هو جمعة الشوان اللاعب على الحبال فوق نارين لكل منهما سعيره الخاص، وإذا كان قد قدر له أن يموت فليغترف من الحياة كل ما فيها وحمدًا لله أن الريس زكريا يشجعه على هذا، غير أن الاعتراف يستلزم نوعًا من الغياب عن الوعي، قليل من الغياب عن الوعي، بعض من الانغماس في اللذة، ولكن كيف؟!

عندما انصرفت المرأة في الصباح وكان قد تظاهر أمامها بالنوم، وما إن أصبح في الغرفة وحده حتى استعد لساعات من النوم العميق يعوض

بها ساعات الليل، وما إن دخل الفراش حتى دق الباب وكان الطارق هو ضابط المخابرات الإسرائيلية «نبيل»... دلف هذا إلى الداخل وأغلق باب الغرفة جيدًا وأسدل الستائر على النافذة والشرفة، واستدار نحو جمعة الذي كان ينظر إليه ذاهلًا، كان يحمل عندما دخل حقيبة سوداء، حملها إلى المائدة، وفتح أقفالها وهو يقول:

«أظن نشتغل بقى يا جمعة!»

■ ■ ■

ولو أن أحدًا طلب منه ذات يوم أن يقص هذا الذي يحدث له فماذا يمكنه أن يقول؟!... كيف يصف ذلك الرعب المقيم والقائم وهو يتصور أن نبيل يفتح حقيبته السوداء تلك كي يخرج منها مسدسًا ركب عليه كاتم للصوت وأن الأمر لن يستغرق منه أكثر من ثوان ينهي بعدها مهمته ويغادر الغرفة مطمئنًّا كي يستقل أول طائرة إلى تل أبيب تاركًا إياه في الغرفة جثة هامدة... كيف يصف ذلك الحذر الذي يسري في أوصاله فكأنه معلق بين سقف الغرفة وأرضها!

غير أن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة التي تصورها، ولقد كان ساذجًا لحظة أن فكر أن نبيل سوف يطلق عليه الرصاص، فذلك أمر يهون. الكارثة أنهم سوف يعذبونه أولًا، نعم... فها هو نبيل يخرج من الحقيبة أوراقًا ومستندات وخرائط يتعرف عليها فورًا فهو كاتبها وهو راسمها وهو محررها بخط يده لا بيد آخرين. تلك خطاباته التي كتبها بالحبر السري فلقد حانت ساعة الحساب... ودائمًا ما كان «الريس زكريا» يهون عليه الأمر ويقول إنه قادر على خداعهم وإنه أذكى منهم

وقد يكون الأمر كذلك، ولكن... هل يستطيع مع ذلك الرعب الذي تملكه أن يصمد؟!!

الحبل المشدود فوق سعيرين ولكل سعير ناره ولكل نار لهيبها وأقل خطأ قد يودي به إلى ما لا يمكن حسبانه... اندلعت الحرب في أكتوبر الماضي وعبر الجيش المصري قناة السويس وكم كان سعيدًا في تلك الأيام، وكم كان فخورًا وكم تمنى لو أنه وقف وسط الشارع وصرخ في الناس إنه واحد من هؤلاء الذين عبروا القناة رغم أنه يقف وسطهم... وها هو نبيل يفرد الخرائط، ويفتح الخطابات ويسأله عما كتبه في الشهور التي انصرمت من أكتوبر حتى الآن... ها هي لعبة القط والفأر تبدأ وعليه أن يشحذ كل ذكائه وكل ما يملك من حرص وانتباه، ناداه نبيل فاقترب... كانت الخرائط فوق المائدة والخطابات إلى جوارها... قبل أن يفتح نبيل فمه بكلمة، أشار جمعة إلى الأوراق متسائلًا:

«إيه ده؟!»

«مش حاتشتغل؟!»

جلس الشوان فوق مقعد ووضع ساقًا فوق ساق وقال:

«لا... مفيش شغل!!»

«ليه يا جمعة؟!»

«أما نتفق الأول ونشوف إيه حكايتكم معايا!!»

هكذا كان يجب أن يبدأ.

«نتفق على إيه؟!»

«على الحساب اللي لي عندكم؟!»

«حسابك؟»

هب الشوان واقفًا واندفع نحو نبيل في انفعال مصطنع:

«انتوا مش وعدتوني بلنش... فين اللنش؟»

«إنت خدت فلوس كثيرة يا جمعة!!»

«كثيرة؟... يكون في علمك، فلوسكم دي كلها خسرتها في القمار!»

وصاح نبيل في غل وقلق:

«قمار... ليه لعبت قمار يا شوان... إحنا قلنا لك ميت مرة ما تلعبش قمار أبدًا!!»...

«ما قدرتش... غصب عني!»

«إزاي ما قدرتش... افرض إن البوليس قبض عليك؟»

كانت هذه هي تعليماتهم إليه... ألا يلعب الميسر وألا يدخن المخدرات وألا يخوض المعارك وأن يبتعد عن المناطق المشبوهة... كان عليه - كما على كل جاسوس - أن يبتعد تمامًا عن الشرطة وعن الشبهات، ولقد كان الشوان يعلم عندما ذكر أنه لعب وخسر نقوده أنه يستفز نبيل، لذلك فما إن زعق فيه هذا حتى راح يدور في الغرفة كالحبيس وهو يصيح في ضابط المخابرات الإسرائيلي:

«طبعًا... ما انتو أصلكم على البر، إنت بعيد في أمان، لكن أنا اللي في فم الأسد وفي وسط النار!»

قال الشوان هذا وهو يتظاهر بأنه غاضب وأنه يلهث، ولقد أقسم ذات يوم للريس زكريا أنه من الممكن أن يصبح ممثلًا من طراز فريد فهو لم يكتشف هذه الموهبة في نفسه إلا عندما تعامل مع الإسرائيليين... صمت للحظات ثم عاد يستطرد:

«تفتكر الحرب لما تقوم ويحصل فيها إللي حصل ده... تفتكر لما المصريين يعبروا القناة وياخدوا خط بارليف ويغوطوا في سينا، تبقى أنا حالتي هناك شكلها إيه؟!!»

ويصمت الشوان قليلًا وهو يلهث. يرقب وجه الضابط الصامت ثم يعود إلى الصياح:

«أنا كنت حاتجنن. كان دماغي حايطير، احمد ربنا إني لعبت قمار وبس يا راجل!!»

ها هي ثقته بنفسه تعود إليه من جديد وها هي نبضات قلبه تنتظم أخيرًا!

«طب إنت عاوز إيه دلوقت؟!»

«عاوز اللنش اللي انتوا وعدتوني بيه... وعاوز كمان عربية!»

وهدر نبيل:

«يعني إيه الكلام ده؟!»

قال الشوان في حسم:

«25 ألف دولار!!»

هم نبيل بالحديث لكن الشوان تقدم منه وهو يدقق نظراته في العينين الزجاجيتين:

«اللنش بتاعي اللي في السويس مين اللي غرقه؟!»

هم نبيل مرة أخرى بالحديث لكن رغبة الشوان في تعذيبه كانت أسبق:

«إنتوا مش قلتم إنكم عبرتم للضفة الغربية ودخلتم السويس؟!»

كان وجه نبيل يبدو مربدًّا غاضبًا. لكن جمعة أردف ممعنًا:

«شفتوا اللنش بتاعي والا لأ؟!»

«دي كانت حرب!»

هكذا صرخ نبيل فعاد الشوان يصيح فيه:

«حرب والا مش حرب أنا مالي... اللنش بتاعي غرق وانتوا إللي غرقتوه، أنا عاوز واحد بداله!!»

«طيب ليه بتطلب عربية وإنت معاك عربية!»

«تمام... بس تعالى اتفرج عليها!!»

«السيارة جديدة يا جمعة!!»

«جديدة لما يكون استعمالها عادي. لكن انتوا مش بترحموني يا نبيل... روح السويس، تعالى من السويس، روح الإسماعيلية، شوف الوحدات، انزل إسكندرية، اطلع بورسعيد... كل ده مش استهلاك... بقى أنا هناك أحط راسي في المشنقة علشانكم، وبعدين عاوزين تطلعوني من المولد بلا حمص؟... يفتح الله يا بلبل!!».

بدا نبيل حائرًا أمام تصميم الشوان، نظر إليه الشوان وقد أصبح موقنًا الآن أن نبيل بالذات لا يضمر له سوءًا، غير أن هذا لا يمكن أن يجعله مطمئنًّا إلى نواياهم...

وهاهو يلعب بواحد من ضباط المخابرات الإسرائيلية، ها هي قامته تعلو، ولا بد أن الريس زكريا سيكون فخورًا به:

«قلت إيه يا نبيل؟»

«نشتغل أولًا وبعدين نبعت للبيت نسأله!!»

«البيت البيت البيت. أنا مالي ومال البيت، أنا عاوز حقي!»

«أنا ما أقدرش أقرر يا جمعة... البيت هو اللي يبيت في المسائل دي!»

«مش البيت هو اللي وعدني بالحاجات دي؟!»

«نشتغل النهاردة وبكرة نبعت نسألهم!!»

«يعني إيه؟»

«يعني المعلومات اللي إنت بعتها لنا دي، مش مفهوم منها حاجة!!»

كاد جمعة الشوان، في لحظة سيادية عظيمة، يستلقي على قفاه من الضحك... كان يعلم، قبل أن يخبره نبيل بذلك، أن ما أرسله من معلومات غير مفهوم فعلًا. وأنه لا يساوي ثمن الورق الذي كتب عليه... وكانت هذه لعبته الأخرى... فهل يستطيع الانتصار فيها؟

الفصل الثالث عشر

ها هي لعبة القط والفأر تبدأ، وإذا كان الشوان قد أتقن هذه اللعبة منذ أن علّمه الإسرائيليون الكتابة بالحبر السري ومنذ أن التقى بالريس زكريا وقَبِلَ السير على الحبل المشدود فوق جحيم وجحيم... إلا أن الأمر - هذه المرة - بالقطع كان مختلفًا تمامًا!!

كان الريس زكريا دائمًا ما يمده بالمعلومات التي يرسلها إلى الإسرائيليين... معلومات عسكرية وأخرى اقتصادية، وثالثة اجتماعية... معلومات كان المفروض أن الشوان - كجاسوس- يجمعها من هنا وهناك... وإذا كانت اللعبة - بهذا الشكل - منذ البداية مركبة، فإن الأمر لم يكن يتوقف عند حد إرسال معلومات طبخت داخل هذا المبنى الغارق في الصمت والغموض في حدائق القبة، بل كان لا بد له أن يتعداه حتى يكتمل الخداع ويشمل أسلوب كتابة الخطابات نفسها...

ولا أحد في هذا العالم يستطيع أن يعرف، لا أحد يعرف كيف طبخت هذه الخطابات وتحت أية مقاييس، ولا كيف كانت تكتب وتلفق وتطوى في داخلها عشرات الخدع التي تتفق وتركيب الشوان النفسي والعقلي وقدراته على المشاهدة والمقارنة والتحليل... لا أحد

يستطيع أن يعرف... وأغلب الظن – بل من المؤكد – أن جمعة الشوان نفسه لم يدرك – حتى اليوم – ما الذي يحدث بالتحديد... غير أن الثابت تمامًا أن كل المعلومات التي دست على المخابرات الإسرائيلية من المخابرات المصرية سواء قبل حرب أكتوبر 1973 أو بعدها، قد أخذ بها الإسرائيليون!!

هذا ما كان الشوان يعرفه تمامًا... يعرفه بالتجربة والدهشة كلها... وهذا ما كان – بذكائه الفطري وقرون استشعاره التي دربت مع الزمن – يتأكد له يومًا بعد يوم كلما ازدادت أهميته وقدرته على فرض شروطه على الإسرائيليين. ولقد تعلم جمعة الشوان كيف يكتب خطاباته بالحبر السري حقًّا، غير أن الأمر لا يمنع أثناء الكتابة التي لها أصول وقواعد من حدوث خطأ يجعل المعلومة مشوهة أو الكلمات مبتورة... أو... أو... أو عشرات الأخطاء التي كان الشوان – دائمًا- ما يقع فيها... ويضطر ضابط المخابرات الإسرائيلية إلى تصحيحها أو استكمالها عند حضور الشوان إلى أوربا!!

كان الشوان في ذلك الصباح – في فندق دياكونجرسا – مجهدًا متعبًا بحق فلقد انقضى اليومان الأخيران في عذاب لم يذق مثله من قبل، أصبحت أعصابه مشدودة كأوتار تكاد تتمزق، أخرج نبيل من حقيبته الخطابات والخرائط وفردها فوق المكتب ونادى عليه، فلقد كان هناك بالتأكيد ما يحتاج إلى إيضاح في عشرات الخطابات التي أرسلها إليهم والتي كانت موضوعة الآن فوق المكتب تحمل طوابع بريد مصرية، وأختامًا لمكاتب بريد مصرية.

هذه اللحظات بالذات كانت تحتاج من الشوان إلى كل انتباهه، إلى كل هدوئه، إلى كل أعصابه... فمن أين يأتي بهاوهو يشعر وكأنه يحمل فوق كتفيه بعد هذا اليوم الذي انقضى ألف رجل... غير أنه تقدم من المكتب متظاهرًا بالاستعداد... وضع نبيل أحد الخطابات تحت عينيه وهو يسأل:

«إيه اللي مكتوب في الجواب ده يا جمعة؟!»

ويغالب الشوان كل تعبه وإرهاقه وهو يتغابى متسائلًا:

«هو تاريخ كام؟»

فإذا ذكر له نبيل التاريخ صاح فيه:

«بقى ده معقول... معقول تسألني عن حاجة شفتها من ست أشهر... هو أنا فاكر أنا اكلت إيه امبارح».

ساعة بعد ساعة وخطاب بعد خطاب. وها هو السلك المشدود فوق بحر الجحيم يمزق لحم قدميه تمزيقًا... كان بين نارين: نار الضغط عليه لكي يتذكر، ونار الحرص على أن يتجنب ما لا يجب أن يقال... كان الريس زكريا إذا ما أتى الشوان بمعلومة رأى أن تحجب حذَّره قائلًا:

«لحد هنا وتقف، ما تقولش حاجة!!»

وتمضي الشهور، شهور ليست كشهور الناس، شهور مليئة بالرصد والجمع والأخبار واللقاءات والخطابات والخطط والتوتر... ويصبح عليه أن يتذكر في لحظة الخطر الذي حذره منه الريس زكريا... فكيف؟

آه من عذاب العقل الضاري عندما تختلط فيه الأمور... الممنوع والمسموح به... هذا يحذر وذاك يضغط، يضغط، يبتز، يعتصره اعتصارًا لا رحمة فيه، يأخذ منه أقصى ما يستطيع... و... ويمضي اليوم، ويأتي اليوم التالي ويصبح على الشوان أن يعود إلى اللعب من جديد، وبأوراق مختلفة يصبح عليه أن يتحول من إنسان إلى كتلة متوترة من القلق والانتباه معًا... ذلك أنه إذا ما وصل نبيل، وقبل أن يلقي عليه تحية الصباح يسأله في لهفة:

«البيت رد ولّا لسه؟!»

ويأتي رد البيت على غير هواه. فيثور، يغضب، ولقد كان عليه أن يثور ويغضب ويهدد بقطع العلاقات، هكذا كانت التعليمات، لكن الغريب في الأمر أنه كان يجد ثورته حقيقية وغضبه حقيقيًا، فإذا به يضرب الأرض بقدمه، فلن يأخذ ولن يقبل أقل من 25 ألف دولار... يقول هذا ثم يصيح:

«ادوني حسابي. أنا مش عاوز اشتغل!!»

عبثًا يحاول ضابط المخابرات الإسرائيلي أن يسترضيه:

«انتوا مش قلتوا لي إني لو حبيت أمشي آخد المكافأة اللي لي واتوكل على الله؟!»

«أيوه!»

«طب أنا بقى عاوز المكافأة... وانتوا من سكة وأنا من سكة ويا دار ما دخلك شر»

«يا جمعة!»

«خلاص... ادوني المكافأة وتذكرة لليونان ولحد كده وكتر خيركم!»

«واشمعنى اليونان؟»

يصيح الشوان منفعلًا:

«أدوَّر على أكل عيشي... أشوف لي بلد تلمني أنا مستقبلي خلاص راح منكم لله... منكم لله خربتوا بيتي!»

وإذا دموعه شلالات لا تتوقف وإذا جسده يرتجف بالبكاء الحار!!

وإذا جمعة الشوان يستخدم واحدة من أفضل ملكاته... ذلك أنه، في أي وقت، في أي يوم، وسط أية ظروف، كان يستطيع، إذا ما طلب منه أو تطلب الأمر ذلك، أن يبكي كمن فقد ولده... يبدأ الأمر تمثيلًا كان قد تعود عليه، فإذا ما ارتفعت حرارة المشهد، انهمرت دموعه أنهارًا، وإذا بلاده أغنية حزينة على لسانه الباكي، وإذا زوجته حبيبته هجرها وآذاها وخانها من أجل هؤلاء الذين يسومونه العذاب الآن، ويقترون عليه ويمنعون عنه حقه ولنشه - !!!- وإذا نبيل - ضابط المخابرات المتمرس - يربت على كتفه محاولًا استرضاءه اقتناعًا أو إفلاتًا من موقف إلى ما يجب عليه أن ينجزه، وإذا به يقسم - !!- أن يرسل للبيت برقية يؤيد فيها طلبات جمعة!!

الغريب في الأمر، أنه في كل مرة كان جمعة يبكي فيها - تمثيلًا - كان يشعر براحة غريبة وكأنه أزاح من فوق صدره كابوسًا جثم فوقه طويلًا... فمم كان يبكي جمعة، أو ممن؟!

وتمضي بعد ذلك ساعة وبعض ساعة. ومهما حاول المماطلة والهرب والتملص فلا بد للعمل أن يبدأ، ولا بد له أن يقف مع نبيل أمام الخريطة، ويقرأ نبيل من الخطاب معلومة، ثم يعود إلى الخريطة متسائلًا عن مكان وحدة من وحدات الجيش:

«يا نبيل... إنت عاوزني أعرف إيه؟»

وينفعل نبيل:

«إنت رحت طريق مصر السويس؟!»

«رحت وشفت وكتبت لكم على كل اللي شفته، أمال اللي في الجواب ده إيه».

«طب إزاي مش عارف تحدد المكان على الخريطة؟!»

«مش تقول لي الأول مصر فين، في وشي ولا في ضهري؟!»

قفشة يطلقها الشوان لنفسه وبعد وصلة بكاء حامية، قفشة له وحده، لعالمه الخاص في داخله، لضحكاته الرنانة بالسخرية وهو الساذج صاحب الدمعة القريبة يسخر من ضابط المخابرات الإسرائيلي، وعندما كان نبيل ينكفئ على الخريطة وهو يشرح الاتجاهات في انفعال، كان الشوان يتساءل بينه وبين نفسه: كيف انتصر علينا هؤلاء الناس ذات يوم... كيف؟

في اليوم الثالث لم يأت نبيل وحده، جاء معه رامي!!

قال نبيل إنه مضطر للسفر... وقبل أن يبدأ رامي العمل سأله الشوان عن المال، ابتسم هذا وقال:

«ابسط يا عم... البيت قرر لك مكافأة هايلة!»

«حاتدوني فلوس؟!»

«حانفتح حساب سري في سويسرا!!»

ويكاد الشوان يصرخ... وقع المحظور وعليه أن يخوض معركة أخرى... يكاد عقله ينفجر فكيف كان الريس زكريا يعرف - مقدمًا - ما سيقوله ضباط المخابرات الإسرائيلية؟!

وطوال خمس سنوات وهو يحاول أن يعرف كيف يستطيع ضابط المخابرات المصري أن يتنبأ في بعض الأحيان بما سيقوله الإسرائيليون بالحرف... هذه المرة وقبل أن يغادر القاهرة بأيام، قال له الريس زكريا:

«حايحاولوا يفتحوا لك حساب سري في بنك من بنوك سويسرا!!»

وها هي النبوءة تتحقق...

«على رقبتي!»

«ليه يا بو خميس... حد طايل؟»

«أنا ما بقاش مديون لشوشتي في مصر وافتح حساب سري في سويسرا»

هكذا يبدأ الحوار، وهكذا يبدأ اللعب من جديد... الحبل المشدود والمحظور والممنوع وعليه ألا يقتنع... غير أن رامي ليس كنبيل، فهذا نوع من الضباط يعرف كيف يتعامل مع عميله... رامي هذا الأنيق الباسم، صاحب العينين المرحتين الواثق من نفسه، المصري الطباع، الفهلوي... ولكن: إلى متى؟؟

وعندما أيقن رامي أن لا أمل في إقناع الشوان بفتح حساب سري في سويسرا لم ينفعل، فقط أطلق عليه نظرة كأنها رصاصة، ثم ابتسم قائلًا:

«وهو كذلك يا سيدي، ابعت للبيت الليلة!»

«أنا عاوز حقي، يا إما عاوز المكافأة بتاعتي وسلام عليكم!!»

«مش نشتغل يا جمعة والا حانقعد نفاصل بعض؟!»

في اليوم السابع وافق البيت على أن يعطي للشوان ما يريد، بشرط أن ينتهي من التدريبات!

«تدريبات إيه تاني؟»

لم يكن رامي في اليوم السابع قد جاء وحده، كان معه سامي المصري، أتفه من التقى به الشوان من ضباط المخابرات الإسرائيلية، سامي المصري المضحك المرتعب، الذي يشبه المرحوم عبد السلام النابلسي.

«يا لله بينا يا أخي جهز شنطتك قوام!!»

«على فين يا سامي؟!»

«هيص يا عم... جاردن هاوس!!»

ما إن سمع جمعة باسم الفندق الجديد حتى عاوده الخوف... كالصدمة الكهربائية، عاوده كالزلزال المفاجئ اجتاحه اجتياحًا... كان الأسبوع الذي انقضى قد غسل مخاوفه بذلك الحرص الشديد الذي بدا عليهم، غير أنه الآن كان يقف أمام «رامي» و«سامي» ذاهلًا عن كل شيء!

كان الاثنان يقفان أمامه صامتين، باسمين: ها هي الخطة تنفذ بإحكام... ها هم يدخلون على قلبه الطمأنينة سبعة أيام حتى إذا اقتادوه إلى حيث يريدون أطاع... وها هم يطلبون منه الانتقال إلى «جاردن هاوس» حيث الغرفة فيه فيللا قائمة بذاتها... حيث يصبح القتل سهلًا والاغتيال كتدخين سيجارة، التخلص من الجثة أمر بالغ السهولة، فهل... هل دنت ساعته؟؟

■ ■ ■

لم يكن أمام جمعة الشوان سوى أن يطيع... ها هي الرحلة الطويلة توشك على الانتهاء... الرحلة التي بدأت يوم أن التقى بجوجو والتي خطا خطوته الأولى فيها يوم أن قال له «إبراهام» وهو يقود سيارته المرسيدس في شوارع «انتويرب» إن الشركة قد وقع اختيارها عليه ليصبح مديرًا لمكتبها في «القاهرة».

في تلك الأيام كان يكفي أن يأتي ذكر مصر على لسان أحد حتى تتدفق المشاعر في قلبه كالطوفان... عندما قال له إبراهام ما قاله لم يرد، لم ينطق، كان الآن يلقاه وحده ولم يعد هو يسأل عن جاك... ساد الصمت بينهما لحظات ثم التفت إبراهام نحوه متسائلًا:

«ألا تشعر بالشوق لبيتك وزوجتك؟!»

«بالتأكيد؟»

قالها صادقًا بطبيعة الحال، كانت مصر كلها قد أوحشته، وكانت الشهور قد مضت به طويلة وهو يذرع موانئ الشمال على ظهر السفينة «آرتا»... العودة إلى مصر حلم يصبو إلى تحقيقه، غير أن الشك لم يعد الآن شكًّا. كان قد أصبح يقينًا لا سبيل إلى إنكاره. فليأخذ حذره الآن إذن.

«وما الذي سأفعله في مصر؟»

هكذا تساءل فرد عليه إبراهام:

«قبل كل شيء لا بد أن تجد لنا مقرًّا!»

كان المنطق طبيعيًّا، قال جمعة:

«سيكلفكم هذا كثيرًا!»

«المال لا أهمية له... المهم أن تجد مكتبًا في وسط المدينة في شارع من شوارعها الهامة مهما كلفك الأمر».

«وما هو نوع العمل الذي سيمارسه هذا المكتب!»

أوقف إبراهام السيارة وكانت تسير بحذاء البحر... يذكر الشوان جيدًا ذلك المكان الذي توقفا فيه، البحر يمتد إلى ما لا نهاية، والطريق خال والسيارات فيه قليلة، وكانت الشمس وقتها تنحدر نحو الغرب، صوت إبراهام يأتيه عميقًا واضحًا أشد ما يكون الوضوح.

«إنك من السويس... أليس كذلك؟»

«طبعًا!»

«في السويس سفن غارقة في الميناء وعند مدخل القناة منذ حرب 1967».

«هذا صحيح».

«هذه السفن، ستطرح للبيع في مناقصات عالمية، والشركة تريد أن تشتريها، أو تشتري بعضها على الأقل!!»

«وما هو المطلوب مني!»

«كل المعلومات عن هذه السفن، الطول، العرض، الغاطس، الحمولة، المكان الذي غرقت فيه، عمقه، مقدار ما يظهر منها، حجم الإصابة التي أصيبت بها... كل شيء، كل شيء، حتى إذا دخلت الشركة في إحدى هذه المناقصات، كانت لديها معلومات كافية عن السفن كلها!!»

صمت جمعة الشوان وكان عقله يعمل بسرعة... كان ما يقوله إبراهام لا غبار عليه لو أن البلد لم تكن في حالة حرب... غير أنه يبقى شيء واحد لم يدركه هذا الرجل الجالس بجواره في السيارة... إن معنى طرح السفن في مناقصات عالمية هو - أولًا - تعويمها، وهو - ثانيًا - تطهير قناة السويس، وهو - ثالثا - عودة الحياة والملاحة إليها... فهل... هل انتهت الحرب بين مصر وإسرائيل، أم أن هناك شيئًا آخر، شيئًا له رائحة تزكم أنفه وتملؤه بالشك من جديد؟!

عاد إبراهام إلى الحديث من جديد:

«ستدفع لك الشركة كل المصاريف، مصاريف الانتقال والسفر والفنادق، وإذا احتاج الأمر لأن تدفع أي مبلغ لا تهتم، هذا فوق مرتبك الشهري!!»

«وكم ستدفعون لي؟!»

«إن مستوى المعيشة في مصر أرخص منه بكثير عن أوربا!»

بدأت المساومات وعليه أن يأخذ أكبر قدر من المال:

«كم ستدفعون؟!»

«مائتي دولار كل شهر، ومكافأة كبيرة لكل معلومة ذات قيمة!»

حسب الشوان الحسبة في رأسه بسرعة، في تلك الأيام كان الدولار بثمانين قرشًا ولا بأس بمائة وستين جنيهًا في الشهر وهو في بلده وفي بيته!

«غير أن المطلوب منك شيء واحد!!»

«ما هو؟!»

«ألا تكتب شيئًا، وألا تسأل أحدًا سؤالًا مباشرًا... أن تعرف المعلومات وتحفظها في رأسك ثم تأتي إلى أوربا كل أربعة أو خمسة أشهر، وسأعطيك عنوانًا... فإذا ما التقينا، أدليت إليّ بما حصلت عليه من معلومات!»

في لحظة تبدد التردد واتخذ الشوان قراره الأخير:

«أو. كي... أنا موافق!»

«حسنًا... عليك أن تترك السفينة فورًا لتسافر إلى مصر!!»

«وإذا لم يوافق القبطان؟»

قال إبراهام:

«لا بد أن تترك السفينة اليوم لأنها ستبحر بعد يومين إلى كوبنهاجن!!»

«كوبنهاجن؟!»

هكذا تساءل الشوان فلقد كان يعلم كما يعلم كل أفراد الطاقم أن السفينة ستبحر بعد ذلك إلى ألمانيا، قال إبراهام:

«لا... ستبحر إلى كوبنهاجن!!»

كيف عرف إبراهام؟... من أين أتى هذا الرجل بمعلومات عن السفينة لم يكن - حتى القبطان نفسه - يعرف عنها شيئًا... غير أنه مع اتخاذه القرار الأخير، كان قد قرر أيضًا ألا يتساءل بعد ذلك!

عاد إلى السفينة وكان لا بد من افتعال مشاجرة... كان وكأنه في حلم، الخوف والرهبة والقلق والرغبة في العودة إلى مصر وقد طالت غيبته عنها!

اكتشف بعد وصوله إلى السفينة أنه خائف دون أن ينتبه إلى خوفه هذا، ولم يعد لديه أدنى شك أن هذا الرجل، أن جوجو، أن كل من التقى به منذ وطئت قدماه أرض بريستول كان يدفعه نحو... نحو... ولم يستطع ذهنه لهول الأمر، أن يقترب من الكلمة المروعة، ولم يكن

له ملاذ سوى العودة إلى أرض الوطن، إلى مصر، إلى أحضان فاطمة، إلى... إلى رحم أمه حيث الأمان، حيث الحماية.

وساعده توتره وقلقه على افتعال مشاجرة مع ضابط السفينة الأول، شرع في وجهه سكين المطبخ وراح يطارده في ممرات السفينة، تجمع الرجال وتكاثروا عليه و انتزعوا السكين من يده وطيبوا خاطره واستدعاه القبطان وطيب خاطره هو الآخر!

«لا بد أن أترك السفينة الآن!»

هكذا قال للقبطان. فرد هذا عليه:

«إننا سنبحر بعد غد إلى ألمانيا، وبعد بضعة أيام سنصل إلى قناة كيل... وفي ألمانيا تستطيع أن تغادر السفينة لأني هناك سأستطيع التصرف!!»

كان حديث القبطان منطقيًا، ولم يكن هناك مفر من الإذعان... ذات لحظة كاد يخبره أن السفينة لن تبحر إلى ألمانيا بل إلى كوبنهاجن، غير أنه تمالك نفسه وأمسك لسانه، وعبثا، عبثا حاول إقناع الرجل بإطلاق سراحه.

في اليوم التالى جاءه إبراهام وقال له الشوان إن السفينة ستبحر إلى ألمانيا، فهز إبراهام رأسه نفيا وأكد له أنها ستبحر إلى كوبنهاجن!!

وأبحرت السفينة بالفعل إلى كوبنهاجن، وعندما وصلت إليها كان الوقت ظهرًا، وعندما كانت تقترب من الرصيف وصيحات البحارة تملأ المكان والحبال تمتد من السفينة إلى اليابسة، كان جمعة الشوان يقف في المؤخرة عندما سمع من يناديه:

«جمعة... جمعة!»

التفت نحو الرصيف وكان إبراهام هناك... لم يعد يشعر بالفرحة، لم يعد يشعر بتلك الأهمية الفائقة التي شعر بها يوم أن وجد جوجو تنتظره في «فوج واي»...

كان يعرف حقيقة الأمر ويشعر بمزيج من الخوف والتوتر... وعندما رست السفينة تمامًا هبط الشوان حيث التقى بإبراهام الذي طلب منه اللحاق به، بعد نصف ساعة خارج الميناء، ثم أخرج من جيبه خطابا قدمه إليه وهو يقول:

«إذا قدمت هذا الخطاب إلى القبطان فسوف يسهل لك مغادرتك السفينة!!»

أخذ الشوان الخطاب ونظر إليه ذاهلًا. فتحه فدق قلبه في عنف بالغ. كان الخطاب آتيًا من مصر، كان يحمل طوابع بريد مصرية وأختامًا مصرية... و... في الداخل وجد الشوان خطابًا من شقيقته سامية، وكانت سامية تخبره أن أمه مريضة وأن حالتها خطيرة!!

لم يكن للشوان شقيقة اسمها سامية، لكن الأمر بدا متقنًا أشد ما يكون الاتقان إلى الحد الذي كاد الشوان يسأل نفسه فيه إن كانت له شقيقة أنسته إياها الأحداث... رفع رأسه نحو إبراهام وعلى شفتيه ألف سؤال، ولكن... لكن إبراهام كان قد اختفى!!

■ ■ ■

انتقل الشوان إلى فندق جاردن هاوس في روما وقد توترت أعصابه... وفوق الخوف والترقب والقلق وانتظار اللحظة الحاسمة، كان هناك شيء ما جعله ينفر من هذا الضابط الإسرائيلي المسمى «سامي المصري».

وأن تكون جاسوسًا أو عميلًا أو عميلًا مزدوجًا أو حتى «إيش بالذي» فإن الذي يربطك بعملك هذا هو قدر هائل من الاحترام لضابط المخابرات الذي تتعامل معه... ولقد تعامل جمعة مع حشد من ضباط المخابرات الإسرائيليين وضابط مصري واحد أطلق على نفسه اسم «الريس زكريا»... وكانوا على مستوى التعامل، فأنى له أن يحترم شيئًا مثل «سامي المصري» هذا؟!

وقد كان فندق «جاردن هاوس» واحدًا من تلك الفنادق التي بنيت بأسلوب خاص يجعل كل غرفة فيه مسكنًا قائمًا بذاته مستقلًّا عن كل ما حوله... دخل الشوان إلى غرفته الجديدة وأفرغ حقيبته... والتفت نحو ضابط المخابرات الإسرائيلي وقال باستخفاف:

«عاوزني أتدرب على إيه تاني؟!»

«التصوير والتحميض!!»

«طب ما أنا اتدربت على الحاجات دي من زمان!»

«لأ، دي حاجة جديدة!»

وكما كانت لكتابة الخطابات قصص كان للتصوير قصص أخرى. ولقد تعلم الشوان مع الزمن أن اللعب وسط هؤلاء الناس شديد الخطورة، لكنه يعطي لمن يمارسه لذة تفوق كل لذة... كان قد تدرب

على التحميض والتصوير وتسلم كاميرا شديدة الحساسية ومساحيق ومعجونًا لتجهيز محلول التحميض... وكان قد استطاع أن يدخل بكل هذه الأشياء إلى مصر، لكنه أبدًا، لم يلتقط في مصر صورة واحدة:

«ليه ما ستعملتش الكاميرا يا شوان؟!»

«مين اللي قال؟!»

«أمال فين الصور؟!»

«حرقتها!!»

ويكاد ضابط المخابرات الإسرائيلي - أيًا من كان - أن ينشق من الغيظ، بينما جمعة الشوان يحكي له عن الأماكن التي صورها، والصور التي التقطها، والمناطق التي مسحها بالكاميرا... كان يحكي ويصف ويوغل في القصص والوصف وهو يتلذذ بذلك الغيظ الذي يفرد جناحيه على وجه ضابط المخابرات، كان يؤلف القصص عن الصور التي التقطها للمواقع والأسلحة والمعدات والدبابات والرادار... و... و...

«ورجعت الشقة ومعايا تلات أفلام وفي كل فيلم ستة وتلاتين صورة!!»

«وحمضتها؟»

«كلها!»

«والنتيجة؟»

«ميه الميه!»

«وليه ماجبتهاش معاك؟!»

«وهو أنا مجنون؟!»

«يعني إيه الكلام ده؟»

«أنا مش مستغني عن نفسي!!»

«بقى ده معقول يا جمعة؟!»

«يعني لو مسكوني وأنا خارج بيهم في الجمرك، حاتقدر إنت تطلعني؟»

«أمال أخدت الكاميرا ليه؟»

«وهو أنا إللي قلت لكم ادوها لي... أنا ما كنتش عاوز كاميرات، كفاية عليّ الحبر السري!»

«إنت تعرف الصور دي مهمة قد إيه؟»

«طبعًا عارف!!»

«طب ليه اتخلصت منها؟!»

«خايف... مرعوب... أنا لما قطة بتمشي جنبي بترعبني دلوقت!»

«أمال ما بتخافش ليه لما تكتب جواب؟»

«الجواب أنا بارميه في البوسطة. لو اتمسك مش حايعرفوا مين اللي باعته، مصر فيها عشرين مليون جمعة... إنما الصور حاتبقى معايا وأنا خارج، لو انضبطت، أقول لهم: مش بتاعتي إزاي؟!»

وهكذا كانوا في النهاية يجدون أنفسهم أمام طريق مسدود. وفي الغرفة الجديدة بجاردن هاوس انتهى التدريب على التحميض مرة أخرى... بعد يومين كان يجوب شوارع روما وهو يصور كل ما تقع عليه عيناه... عاد إلى الفندق وحمض الأفلام وكانت النتيجة باهرة، طلب منه سامي المصري أن يسافر في اليوم التالي إلى نابولي وأن يصور كل ما يعن له وهو في القطار... أخذ معه ستة أفلام وركب القطار الذي قطع المسافة من روما إلى نابولي في ساعتين ونصف ساعة، لم يترك شيئًا إلا صوره... كان الواجب المكلف به أن يصور الميناء، كل شيء فيها، وأن يحذر أثناء التصوير من اكتشاف أمره... ولقد دخل الشوان الميناء وراح يلتقط الصور وانهمك في التصوير حتى اقترب منه رجل الشرطة ووضع يده فوق كتفه:

«اعطني هذه الكاميرا سنيور!!»

دون تفكير قدم الشوان الكاميرا إلى الشرطى.

«هل معك أفلام أخرى؟!»

وسقط قلب الشوان في قدميه، كان جيبه مليئًا بالأفلام وكانت كلها تحمل صورًا لا يلتقطها سائح - أيًا من كان - صور لا تهم أحدًا في هذا العالم، سوى الجواسيس.

■ ■ ■

ما إن قرأ الشوان هذا الخطاب الذي سلمه له إبراهام حتى انتابه الجنون... كان كل ما يعنيه الآن أن يعرف ما يدور حوله... كان مترددًا في مغادرة السفينة، كان متشبثًا بالمثل القائل: عصفور في اليد خير من

عشرة فوق الشجرة، اختفى إبراهام وعليه أن يلتقي به بعد نصف ساعة خارج الميناء، كان عليه أن يحسم أمره... عندما صعد إلى حيث وجد القبطان وقدم له الخطاب مبديًا تأثره، طيب القبطان خاطره عندما علم بمحتوى الكتاب لكن جمعة طالبه بجواز سفره فلقد اعتزم السفر إلى القاهرة في نفس اليوم!!

غير أن القبطان رفض، بل أصر على الرفض، إن السفينة ستبحر بعد ذلك إلى الاتحاد السوفيتي، ثم تعود إلى ألمانيا، وفي ألمانيا فقط يستطيع الشوان أن يغادر السفينة، صرخ:

«هل ستبحر إلى الاتحاد السوفيتي؟!»

«غدًا مستر شوان!!»

انقضى النصف الساعة كدهر... كان الوقت وقت غداء لكن الشوان لم يذق طعامًا، غادر السفينة وكان إبراهام ينتظره خارج الميناء... ما إن رأى الشوان حتى استدار ومضى في طريقه، تبعه في صمت فلقد أصبح الآن يعرف ما يجب عليه دون سؤال أو توجيه، دلف إبراهام إلى كافتيريا قريبة من الميناء وهناك التقيا، كان الشوان قلقًا، ولم يكن هناك سبب حقيقي لقلقه، ما إن جلس إلى إبراهام حتى سأله:

«ما قصة هذا الخطاب؟»

«طلبت من صديق يعرف العربية أن يكتبه لأساعدك على مغادرة السفينة!»

وقتها فقط تنفس جمعة الصعداء... لم يكن الآن في حاجة إلى بينة بعد كل الذي كان، لم يسأل إبراهام كيف جاء بطوابع البريد المصرية والأختام... اختصر الطريق وقص عليه ما كان من أمر القبطان فقال له إبراهام: إنه لن يستطيع اللحاق به في روسيا، غير أنه إذا ما عاد إلى ألمانيا فلسوف يجده في انتظاره... أعطاه عنوان فندق اسمه «كولومبوس» في مدينة «برمن هافن» وكان عليه إذا ما وصلت السفينة إلى هامبورج أن يذهب إلى هذا الفندق ويسأل عنه، إن لم يجده فعليه أن يسأل عن غرفة محجوزة باسم «جمعة الشوان».

وافق الشوان وقد داخلته راحة غامضة فلقد تأجل الأمر لأسابيع، لعب شيطانه برأسه فسأل إبراهام فجأة:

«هل تذكر ليلة أن دعوتك إلى السفينة!»

«أذكر طبعًا!!»

«لماذا اختلست ثلاثة من خطابات جوجو؟!»

قال جمعة هذا وهو ينتظر من الرجل أن يدهش، أو يصمت لثوان كي يعد الجواب، لكن الغريب في الأمر أنه وجد إبراهام وكأنه كان في انتظار السؤال، فلقد هتف الرجل:

«برافو جمعة... هذه هي المرة الثانية التي تبدي فيها ذكاء يوجب الاحترام!»

«ومتى كانت المرة الأولى؟!»

قال له إبراهام: إن المرة الأولى كانت في الملهى الليلي عندما لم يبادله التحية لأن الموعد كان باقيًا عليه عشر دقائق... ثم برر ما فعله بأن أسلوب جوجو أعجبه، وأنه أراد أن يقتبس بعضًا من جمله كي يكتبها لصديقة له، ثم أردف وهو يميل نحو الشوان:

«ألا تريد أن تسهر سهرة حمراء!»

ضحك الشوان قائلًا:

«في شقة حمراء؟!»

«إني أدعوك إلى ليلة أسطورية!»

وقضى الشوان في تلك الليلة سهرة ملتهبة، ثلاث نساء وأربعة رجال ويصل الفجور في لحظات إلى حد الجنون!!!... غير أن كل شيء لم يعد الآن كما كان، أصبحت كل اللذائذ لديه... بلا مذاق على الإطلاق!!!

....

....

أبحرت السفينة إلى الاتحاد السوفيتي، ثم عادت إلى المياه الألمانية من جديد... كانت الأيام تمضي بجمعة الشوان زاحفة خانقة، ولأول مرة في حياته كان يشعر أن العالم من حوله قد انقسم إلى عالمين، وأن الدنيا التي عرفها وخبرها وعركها لم تعد دنيا واحدة بل اثنتين... كان هناك عالم خارجي، وآخر يصخب في داخله... دنيا عرفها، ودنيا أخرى كان يسعى إليها كلما اقتربت السفينة من ميناء هامبورج الألماني!!

كان جمعة قد حاول مرة أخرى مع القبطان كي يعطيه جواز سفره، غير أن القبطان كان عند كلمته، فلقد رفض إعطاءه الجواز إلا والسفينة مقلعة من هامبورج، عبثًا حاول جمعة أن يثنيه عن قراره... عندما رست السفينة على الرصيف كان إبراهام هناك في انتظاره، قص عليه جمعة ماحدث بينه وبين القبطان، فلوى إبراهام شفته قائلًا: إن معنى هذا أن جمعة لن يغادر السفينة قبل الواحدة بعد منتصف الليل... دهش جمعة لما قاله إبراهام فسأله:

«ولماذا الواحدة بعد منتصف الليل إبراهام؟!»

«لأن السفينة ستغادر هامبورج في ذلك الوقت!».

قال إبراهام هذا ثم انصرف... وقبل أن تقلع السفينة، أبر الربان بوعده وسلمه جواز سفره، غادر السفينة وهو يحمل حقيبته الوحيدة، وظل واقفًا على الرصيف يرقب رحيلها، فكأنه وليد ترحل عنه أمه!!

....

....

تلك لحظة من اللحظات الغريبة في حياة جمعة الشوان، كانت السفينة تمضي مبتعدة نحو بوغاز الميناء، وكان الرصيف، كلما انقضت دقيقة يخلو من الرجال الذين كانوا يملئونه - منذ دقائق - بالحركة والصيحات والحياة... ولقد سأل نفسه، لقد أبحرت السفينة، فماذا لو لم يظهر إبراهام؟!

■ ■ ■

وكم من مواقف وجد نفسه فيها طيلة السنوات الخمس التي قضاها في هذا الجحيم، وكم من مخاطر خاضها وكان قلبه يرتجف رعبًا!... ولو أنه الآن، وهو يقف أمام ذلك الشرطي الصارم الوجه في ميناء نابولي، نظر إلى الخلف، لأصيب بالهلع... غير أنه الآن قد أصبح مدربًا...

وعندما سأله الشرطي عن اسمه، قال دون أن يتردد لحظة:

«يعقوب منصور!»

«من أي دولة أنت؟»

«أنا إسرائيلي»

«أين جواز سفرك؟»

في بساطة من يرشف من فنجان قهوته قال كاذبًا:

«في السفارة في روما، تستطيع أن تسأل بالتليفون، أو تتصل بالقنصلية في نابولي!»

حملق فيه الشرطي وقلب الكاميرا بين يديه متسائلًا:

«ألم تلتقط هذه الصور؟!»

أشعل الشوان سيجارة وابتسم:

«لقد نقلت من تل أبيب إلى السفارة الإسرائيلية في روما حديثًا وهذه هي زيارتي الأولى لإيطاليا... ألا يحق لي باعتباري سائحًا أن التقط بعض الصور لبلادكم الجميلة؟!»

هز الشرطي رأسه في ضيق وأعاد إليه الكاميرا وهو يقول:

«هذه المناطق ممنوع التصوير فيها... لا تفعل هذا مرة أخرى وإلا سببت المتاعب لرؤسائك!!»

عاد الشوان في نفس الليلة إلى روما... ولقد كان هذا ما لقنوه إياه، كان يعلم أن في السفارة الإسرائيلية جواز سفر إسرائيليًّا يحمل صورته ويحمل اسم «يعقوب منصور»... جواز سفر لا يحمله ولا يراه إلا يوم أن يركب إحدى طائرات شركة العال وهو في طريقه إلى «البيت»... إلى إسرائيل. وإذا كان الاطمئنان قد عاد إليه الآن، وإذا كان إحساسه بالخوف بدأ يتلاشى تدريجيًّا كلما وجد لهفتهم على استبقائه وإرضائه، وإذا كان شبح الموت الذي هدده طويلًا قد اختفى، فإنه في تلك الليلة وهو جالس إلى سامي المصري في فندق «جاردن هاوس» يقص عليه ما حدث له في نابولي قد شعر فجأة أنه يهوي من حالق...

كانت عشرة أيام قد انقضت منذ أن جاء إلى روما... وكان سامي المصري يضحك ضحكته تلك التي تستفز احتقارك وهو يقول:

«جمعة... البيت عاوزك!!»

كانت الجملة واضحة وضوحًا لا يقبل الشك لحظة، بل كانت صارخة... كانت مثل رصاصة سددت إلى جمجمته على حين غرة فاخترقتها، كانت قد بددت كل إحساس لديه بالأمن أو الطمأنينة وبعثت من جديد كل مخاوفه، عملاقة، رهيبة، تزلزل كيانه تمامًا... ورغم هذا فلقد تساءل:

«البيت؟... طب... طب وهو البيت عايزني ليه؟!»

«عاوزك ضروري... ولازم تسافر بكره الصبح!!!»

وهوى الشوان من حالق، هربت دماؤه... هكذا بلا إنذار سيسافر في الغد إلى إسرائيل... فهل يلحق به الريس زكريا هناك؟!

الفصل الرابع عشر

«على رقبتي!!»

«ليه يا جمعة؟!»

«أنا ما روحش إسرائيل!».

كان يعلم أن اللحظة آتية لا ريب فيها، ها هم يطلبون منه الذهاب إلى إسرائيل وهناك يستطيعون أن يفعلوا به كل شيء ولا يستطيع حتى أن يستنجد صارخًا... غير أنه وسط كل ما اعتمل في نفسه أحس بسكينة غريبة تغزو صدره... تذكر حديث «الريس زكريا» في ذلك المكان المنعزل على النيل الذي كانا يلتقيان فيه أحيانًا، حيث الهدوء والسكون والقوارب الشراعية تسبح فوق سطح المياه بلا صوت، وكان صوت الريس زكريا وكأنه يأتي من بعد سحيق:

«غالبًا حايطلبوا منك أن تروح إسرائيل المرة دي!!»

الجهاز الثمين والرغبة في الحصول عليه وأبعاد اللعبة الخطرة تأخذ مسارًا مختلفًا... كان سامي المصري يتحدث الآن بلا انقطاع لكنه لم يسمع من حديثه شيئًا، وصاح ضابط المخابرات الإسرائيلية غير مصدق:

«إزاي تقول لأ... دي أوامر البيت ولازم تطيع يا جمعة!!»

«أوامر البيت عليك أنت، إنما علي أنا لأ!»

انتابته فجأة رغبة عارمة في التحدي، قبل أن يفتح سامي فمه بكلمة عاجلة:

«أنا مش فاهم البيت عاوز مني إيه؟»

«فيه حاجات لازم تتدرب عليها!»

«هو أنا حافضل طول عمري أتدرب، كفاية اللي أنا اتدربت عليه لحد كدة!»

«أنت ليهِ مش عاوز تروح البيت؟»

«افرض واحد فلسطيني شافني مش حايروح يقول لهم؟!»

«اشمعنى ما حدش شافك قبل كده؟!»

«المرة دي ممكن الطوبة تيجي في المعطوبة وأروح أنا في شربة ميه!!»

في غضب سأل سامي المصري:

«إيه معنى الكلام ده؟!»

في تحد رد عليه جمعة الشوان:

«أنت ما بتفهمش؟... معناه إني مش حسافر إسرائيل!!»

كان وقع ما قاله الشوان في الغرفة كانفجار قنبلة، ساد السكون واربدت ملامح ضابط المخابرات الإسرائيلي، وفرد الشوان ساقيه

في استرخاء وتحد، فماذا بعد الموت؟؟... وإذا كان يعلم حتى وهو في القاهرة أنه سيسافر إلى تل أبيب، أراد أم لم يرد سيسافر... برغبته سيسافر ورغمًا عنه سيسافر؛ لأنه لابد وأن يسافر، فلم لا يفعل ما شاء... ذلك أنه أمام القبر تتساوى كل الأشياء، فليذهب إذن إلى حتفه بنفس راضية!!

غير أن الحديث بعد لحظات صمت دامت قليلًا كان لا بد وأن يأخذ مسارًا آخر... كان كلاهما الآن يجلس أمام الآخر يشحذ ذهنه لمباراة كان الشوان يعلم نتيجتها، الضابط الإسرائيلي والشاب المصري، الذكاء المدرب والذكاء الفطري الملقن من الريس زكريا في القاهرة، وأيًا من كان هذا الضابط فهو من ضباط المخابرات الإسرائيلية في تل أبيب. قال سامي المصري بعد حوار هادئ استغرق ثواني إن أحدًا في إسرائيل لا يمكن أن يراه، وأن أمنه فوق كل اعتبار.

«طب أصدقكم إزاي، مانتوا قلتوا لي إنكم مش ممكن تتغلبوا!»

كلما أراد التراجع دفعه -من أعماقه - إحساس غامر بمزيد من التحدي، وعاد سامي المصري يتحدث ويقنع ويلحف... وكان لا بد للشوان أخيرًا أن يقتنع ويوافق، فوافق... وعلى الفور أخرج سامي المصري تذكرة طائرة إلى زيورخ، قدم له التذكرة وهو يقول:

«بكره لازم تأخذ تأشيرة دخول لسويسرا!!»

قالها سامي المصري وانصرف، وكان الشوان الآن في عجلة من أمره فلقد كان لا بد له وأن يلتقي بالريس زكريا، هكذا اتفقا وهكذا كان عليه أن يسعى إلى لقاء ضابط المخابرات المصري تحت أنف المخابرات

الإسرائيلية التي كانت بالقطع تضعه تحت عينيها في كل لحظة بالليل والنهار!!

مضت عشر دقائق بعد مغادرة سامي المصري للشوان. فاتجه هذا نحو حقيبته وأخرج منها دبلة معدنية، هي صورة طبق الأصل من الدبلة التي وجدها يوم وصوله في حمام فندق دياكونجرسا، دسها في أصبعه، انطلق من الغرفة لا يلوي على شيء.

هو الآن أصبح يعرف كيف تتم اللقاءات السرية وكيف يعرف إن كان مراقبًا أم لا...

هو الآن إنسان آخر غير هذا الذي غادر السفينة ذات يوم في أواخر عام 1968 في ميناء هامبورج ساعيًا وراء هدف مجهول... فهل فكر يومها أن كل هذا سوف يحدث؟... هل كان يظن أن الطريق بهذه الصعوبة والوعورة؟!!

■ ■ ■

يومها عندما وقف أمام ضابط الجوازات الألماني بجواره حقيبة قديمة ممزقة الأوصال ملفوفة بحبل قديم بشعة المنظر، كان يبدو كالفرخ المبلول، ففي تلك الأيام كان الفدائيون الفلسطينيون قد انتشروا في جميع أنحاء العالم يعربون عن سخطهم بالقنابل والدم... وكان دخول واحد من العرب إلى أي بلد أوربي يحتاج إلى الكثير من الحيطة والحذر... حاول الشوان إقناع ضابط الجوازات بالسماح له بالدخول إلى ألمانيا، ولكن هذا كان يبدو مستحيلًا، لحق به وكيل السفينة الألماني ومد له يد المساعدة فاقتنع الضابط أن يسمح له بثمان وأربعين

ساعة على أن يكون معه ألف مارك وكانت قيمة مايحمله الشوان أكثر من ألفين من الماركات... أغلب الظن أن الوكيل كان واحدًا من عملاء إبراهام فلقد تطوع لتذليل كل شيء وتطوع لتوصيل الشوان حتى باب فندق «كولومبوس» في بلدة اسمها «بريمن هافن» أعطاه الشوان مائة مارك فانطلقت بهما السيارة لساعة ونصف ساعة حتى وصلا بعدها إلى «بريمن هافن» في الثامنة والنصف صباحًا فتركه الوكيل أمام باب الفندق واختفى...

نظر الشوان إلى الفندق فانتابه الفزع. كيف يدخل فندقًا كهذا بحقيبة برزت أمعاؤها كتلك التي كان يحملها، تردد طويلًا ثم ترك الحقيبة في الخارج ودخل إلى حيث استقبله موظف الفندق ببرود شديد... أيقن أن هذا البرود سوف يذوب عندما يسأل عن إبراهام وما إن جاءه الرد حتى هربت دماؤه فلقد قال الرجل في برود متغطرس:

«ليس لدينا أحد بهذا الاسم!!»

في ثقة شديدة قال الشوان:

«إن هناك حجزًا باسم جمعة الشوان!»

قلب الموظف في الأوراق أمامه وهز رأسه نفيًا وقال: إن حجزًا بهذا الاسم أيضًا لم يتم!!

سقط قلب الشوان بين ضلوعه... ها هو المحظور قد وقع، رحلت السفينة وذاب إبراهام وتبخر الأمل فما الذي كانوا يريدونه منه... أحس وكأنه يسبح في الفضاء، كان يقف أمام الرجل كالمتسول... أعاد على الرجل الاسم وكرر السؤال ولكن بلا جدوى... طلب من الموظف أن

يحجز غرفة بالفندق ولم تكن هناك غرف خالية، طلب منه مساعدته في حجز غرفة في فندق آخر فقال له الموظف الألماني بصلف:

«إن كل فنادق المدينة كاملة العدد!!»

التفت نحو الحقيبة الملقاة في الخارج، وتقدم برجاء أن يتركها في الفندق ريثما يجد لنفسه مكانًا، فأشار الموظف بطرف أصبعه إلى أحد الأركان... حمل الشوان الحقيبة ووضعها فيه، ثم انطلق في شوارع المدينة هائمًا على وجهه لا يدري إلى أين!!

■ ■ ■

كان كل ما عليه أن يضع الدبلة المعدنية على الحوض الأوسط حمام فندق «جاردن هاوس»... تمامًا كما وجدها في حمام فندق دياكونجرسا... وعندما غادر الفندق بعد ذلك كانت الساعة التاسعة تمامًا، استقل سيارة أجرة وطلب من السائق أن يذهب به إلى إحدى نافورات روما، في التاسعة والثلث توقفت السيارة عند النافورة، هبط الشوان من التاكسي وراح يتسكع كما يفعل هؤلاء الذين يريدون قضاء وقت طيب... على الجانب المقابل من النافورة كان ثمة مقعدان حجريان على أحدهما يجلس شاب أشقر الشعر وسيم الوجه، وكان يميل على فتاة تجلس على المقعد المجاور هامسًا... ويبدو أن الشاب أطلق نكتة فلقد ضحكت الفتاة ضحكة عالية وشاركها الفتى ضحكها وهو ينقل ساعته من معصم يسراه إلى معصم يده اليمنى، حركة عادية لا تعني شيئًا غير أنها كانت بالتحديد هي ما يبحث عنه جمعة الشوان... دار حول النافورة دورة ثم انفلت يعبر الطريق، وشأن كل الذين يقرصهم

الجوع، فجأة اقتحم محلًّا للبيتسا كان على مسيرة ثلاث دقائق ونصف دقيقة من النافورة، عندما طلب الشوان فطيرة بالأنشوجة دقت الساعة التاسعة والنصف، مع الفطيرة طلب الشوان كأسًا من النبيذ... كان قلبه الآن يدق فرحًا، أمسك بالشوكة بيده اليمنى والسكين بيده اليسرى شأن الذين يستعملون يدهم اليسرى أو شأن الذين لم يتعودوا الأكل بالشوكة والسكين... ثم غرس السكين فيما تبقى من فطيرة البتسا وسعل وأفرغ كأس النبيذ في فمه دفعة واحدة وطلب كأسًا أخرى. ثم قال بالشوكة والسكين - ولا أحد يدري كيف - ربنا معانا كلنا يا ريس زكريا... ثم دفع حسابه وانصرف!!!

■ ■ ■

تنبه الشوان من تجواله في شوارع بريمن هافن وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة مساءً، لم يكن يدري إلى أين، ولم يكن أمامه سوى العودة إلى الفندق لعل وعسى... عندما عاد إلى الفندق كان موظف الاستقبال قد تغير، على استحياء تقدم من الموظف الجديد، وسأل عن مستر إبراهام وقلبه يدق بالأمل... ما إن سمع الموظف باسم إبراهام حتى تهلل صائحًا:

«لقد سأل عنك بالتليفون منذ دقائق... ألست الهر جمعة الشوان؟!»

كادت الدموع تطفر من عيني الشوان، تنفس ملء صدره وهو يهز رأسه إيجابًا، عاد الموظف يقول:

«إنه يضع غرفته يا سيدي تحت تصرفك، كما أن هناك حجزًا آخر باسمك!!»

كان التعب يهد جسد الشوان من كثرة ما تسكع، فقال:

«هل يمكنني الصعود إلى الغرفة الآن؟!»

نادى الموظف على صبي الفندق الوسيم الذي جاء ملبيًا:

«رافق الهر شوان إلى الغرفة رقم19».

تقدمه الصبي بخطوات فتعثرت قدمًا الشوان وعيناه تزحفان نحو الحقيبة وقد تدلت أمعاؤها في خجل، رطن الموظف بالألمانية مع الصبي فحمل الصبي الحقيبة ولم يستطع - رغم تظاهره بالاحترام - أن يخفي امتعاضه، تساءل الشوان وهو يتبع الصبي: من أين علم الموظف أن هذه حقيبته؟!... فتح الصبي باب الغرفة ووضع فيها الحقيبة وانصرف دون انتظار لبقشيش، أغلق الشوان الباب ووقف وسط الغرفة ذاهلًا غير مصدق، مرت به لحظات ظن فيها أنه يحلم، كانت الغرفة خالية تمامًا من الأثاث، لا شيء سوى أرض تغوص فيها القدم حتى تختفي، وجدران عالية خالية وفي ركن الغرفة التليفون ولا شيء آخر غير هذا... عندما استرد نفسه من دهشته تحرك إلى التليفون وأدار القرص على الزيرو، رد عليه صوت فقال الشوان: إن خطأ قد حدث، وإن الغرفة بالقطع ليست غرفته، سأله الصوت:

«أليست رقم 19 يا سيدي؟!»

«نعم»

«إذن فهي غرفتك».

«لكنها عارية من الأثاث تمامًا!!»

بعد دقيقة واحدة كان موظف آخر ينقر على الباب، فتح له الشوان الباب وهو يشير إلى الغرفة الخالية:

«أين سأنام إذن!!»

ابتسم الموظف وهو يتقدم من لوحة بها أزرار وراح يضغط على الأزرار واحدًا بعد الآخر فإذا الغرفة كالحلم، كفيلم سينمائي تنقلب رأسًا على عقب، إذا بالجدران تفتح وإذا بالفراش يخرج وإذا القاعة فسيحة وإذا المائدة توضع وإذا الإضاءة تتغير وإذا هو في حلم جميل أعجزه عن النطق فلم يستطع أن يشكر الموظف الذي حنى له رأسه في سرعة وانصرف!!

■ ■ ■

كانت هذه هي تجربته الأولى معهم، ولقد ظل الشوان لدقائق بعد انصراف الموظف يضغط على الأزرار فيختفي الأثاث ويضغط عليها فيعود كما كان... وخلال خمس سنوات كان قد أصبح إنسانًا آخر فكم تغير... وها هو يسعى إلى السفارة السويسرية ويطلب تأشيرة دخول فيأخذها في دقائق، كان الآن يعلم يقينًا أنه بدأ رحلة الموت، رحلته إلى حيث بئر عميقة لا قرار لها، في نهاية الرحلة هناك الأمل الذي استمده من «الريس زكريا» بالحصول على «البطة»... «البطة» هي هذا الجهاز الملعون الذي يضع رأسه من أجله فوق كفه... جهاز إرسال ثمين كان

لا بد لمصر من الحصول عليه، الحرب الخفية في هذا العالم تدور بعنف بالغ ولكنْ في قلبه إحساس غامر بالرضا...

عندما قال له سامي إنهما سيسافران في الغد انفجر التحدي في صدره مرة أخرى:

«إنت مالكش دعوة بيه، إنت تسافر لوحدك!!»

«ليه يا جمعة؟!»

«افرض أن فيه واحد مصري في المطار، وأن الواحد ده شافني معاك، يقول إيه؟!»

كان الموقف غريبًا وأغلب الظن أن ضابط المخابرات الإسرائيلية قد وقع في مأزق... كان أمام حالة غريبة، فلو أنه قدم تقريرًا بما حدث بينه وبين الشوان فكأنه يكتب تقريرًا يؤكد عدم صلاحيته لأن يكون ضابطًا للمخابرات، فكيف يسمح لعميل بأن يعامله بهذا الأسلوب؟ وكان حديث الشوان عن الأمن منطقيًا فمن يضمن له ألا يراه مصري يركب الطائرة إلى زيوريخ في صحبة ضابط مخابرات إسرائيلي... أصبح الإتيان بجهاز الإرسال الآن هدفًا في حد ذاته، أخبره سامي المصري بأنه حجز له غرفة في فندق «جاردن روز»... وصل الشوان إلى زيوريخ في يوم سبت وكانت المدينة شبه خالية والمحلات مغلقة والمطر ينهمر بغزارة فائقة... عندما استقر الشوان في غرفته بفندق «جاردن روز» راح يتطلع إلى الطريق عبر النافذة وكان منظر المطر ساحرًا... دق الباب فأيقن أنه سامي المصري فابتسم ابتسامة خبيثة وهو يستقبله متسائلًا:

«قل لي يا سامي، أنا مسافر تل أبيب بكره بصحيح!»

«طبعًا يا جمعة!»

انفجر الشوان في وجهه صائحًا:

«وكمان بتقولها؟»

نظر إليه سامي وكأنه ينظر إلى عفريت، فعاد الشوان يصيح:

«إزاي حاسافر كده؟؟»

ظل سامي محملقًا فيه دون رد، وعاد الشوان يقول:

«انت عاوزني أركب طيارة شركة العال من مطار زيورخ بوش مكشوف، من غير مكياج، من غير حتى برنيطة، من غير دقن؟»

هم ضابط المخابرات الإسرائيلي بالحديث لكن الشوان راح يضرب كفا بكف:

«يعني المضيفة في المطار حاتقول على المسافرين على طائرة شركة العال التوجه إلى البوابة رقم كذا، آخد أنا بعضي وأروح أركب... صادفت واحد مصري شافني، حايقول إني مسافر مصر على طيارة إسرائيلية يا سامي؟!»

هكذا أسقط في يد سامي، وكان الشوان يقول لنفسه الآن: «إن المحكوم عليه بالإعدام، يسألوه: نفسك في إيه؟!»... ولم تكن له أمنية الآن، وقبل سفره إلى إسرائيل، إلا استفزاز هذا الضابط وتحقيره... ولقد سأله سامي المصري عما يريد، فقال الشوان في صلف:

«شوف لي دقن، شوف لي برنيطة... شوف لي أي حاجة أغير بيها شكلي والسلام!!»

عندما هم الضابط المسكين بمغادرة الغرفة، صاح فيه الشوان منذرًا:

«لو الدقن والبرنيطة ماجوش لحد بكرة الصبح مش حاسافر!»

هز الرجل رأسه موافقًا ثم اختفى، وما إن أغلق الباب حتى انفجر جمعة الشوان في الضحك. ولم يكن ضحكه ضحكًا عاديًّا، بل كان ضحكًا مركبًا... كان يضحك؛ لأن شيئًا لم يعد يعنيه في هذا العالم، وما دام قد أدى واجبه نحو الجميع، فلا بأس إذا ما جاء الموت ولكل أجل كتاب... وكان يضحك؛ لأنه كان موقنًا أن ضابط المخابرات الإسرائيلي سامي المصري، لن يستطيع أن يشتري لا القبعة ولا الذقن؛ لأن اليوم كان يوم سبت، وكل المحلات مغلقة!

■ ■ ■

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة صباحًا بقليل عندما هب الشوان من نومه جالسًا في فراشه الوثير... فتح عينيه مضطربًا وكان إبراهام يجلس على حافة الفراش، سأل الشوان:

«أين أنت أيها السيد؟!»

اعتذر إبراهام عن عمل مفاجئ شغله، كما اعتذر عن عدم التبكير في حجز الفندق، ثم طلب من جمعة أن يعود إلى النوم من جديد، لأنهما في الغد سيعودان إلى هامبورج مرة أخرى. قال الشوان:

«ليست لدي سوى إقامة لثمان وأربعين ساعة فقط!»

غمز إبراهام بعينيه وهو يقول متباسطًا:

«في الغد سوف ندبر كل شيء!»

رماه الشوان بنظرة عتاب فابتسم إبراهام قائلًا:

«ولابد لك من إجازة بعد رحلتك هذه، وقبل عودتك إلى مصر!»

غادره إبراهام وغرق هو في الفراش الوثير، كان، عندما دثرته الأغطية في المساء، قد تذكر كل هؤلاء الذين تركهم وراءه في مصر، ليست فاطمة، وليست والدته ولا مصطفى... ولكن هؤلاء الذين تركوا المدينة العريقة وتبعثروا في كل مكان، في بني سويف، وفي الواسطى، وفي القاهرة، وفي مدينة نصر و... و... ولا يدري لماذا تذكر صديقه الذي كانت مشكلة المشاكل لديه - بعد التهجير - أنه أعد الفول لأولاده بكل الطرق الممكنة ولم تعد هناك طرق جديدة لإعداد الفول... كان يكسب قبل الحرب ألوفًا في كل شهر، دمرت الحرب كل شيء وأصبح يتقاضى تسعة جنيهات من الشئون الاجتماعية ولديه تسعة أولاد... هؤلاء يجوعون الآن وهو غارق في فراش يطوي جسده بالدفء والراحة، فماذا يريد منه إبراهام؟!!

في السابعة صباحًا كانت السيارة تطوي بهما الطرق طيًّا عائدة إلى هامبورج، طوال الطريق الذي استغرق ساعة ونصف ساعة، كان الحديث يجري بينهما وديًّا... قبل أن يصلا إلى هامبورج ببضعة كيلو مترات التفت إبراهام نحوه قائلًا:

«أمامك إجازة لمدة ثلاثة أيام ستطير بعدها إلى القاهرة لتبدأ عملًا سوف يكون شاقًّا يا جمعة!»

قال الشوان:

«لست في حاجة إلى إجازات فأنا أريد السفر الآن!!»

«لو أنك رأيت الفندق الذي حجزت لك فيه لما قلت هذا؟!»

كان الفندق يحمل اسم «هانزا»، صاحبه يهودي رحب بالشوان هو وزوجته ترحيبًا حارًّا وقدما له كل ما كان يطلبه فلقد كان الحساب مدفوعًا، لقد كان الفندق يتوسط ذلك الحي الذي اشتهرت به هامبورج والذي يعج بالنساء والباحثين عن المتعة من الرجال... وكان أول ما فعله إبراهام عند وصولهما إلى هامبورج هو شراء حقيبة جديدة وأنيقة وضع فيها حقيبة الشوان ذات الأحشاء البارزة... أخرج ثلاثمائة دولار قدمها للشوان ثم غمز بعينيه وهو يقول إن لنساء هامبورج مذاقًا خاصًّا، قبل أن يصلا إلى الفندق أعطاه إبراهام عنوانين أحدهما في إنجلترا والثاني في سويسرا.

«عندما تصل إلى أوروبا في أي بلد، في أي مدينة، فقط أرسل برقية على أحد هذين العنوانين».

«ما الذي أقوله في البرقية؟»

«لا شيء أكثر من: جمعة وصل إلى مدينة كذا بدولة كذا في فندق كذا».

«وبعدها؟»

«سيتصل بك مندوب الشركة في اليوم التالي على الأكثر».

«ما اسمه؟».

«جاك».

«دائمًا؟»

«دائمًا سيكون اسمه جاك!»

قبل أن يغادر الشوان السيارة أمام الفندق قال إبراهام:

«سيسعد المدام أن تشتري لها بعض الهدايا!»

بعد ثلاثة أيام كان جمعة الشوان قد تخلص من حقيبته القديمة وكان قد اشترى هدايا لفاطمة وحصل على تذكرة فوق طائرة ستنقله إلى مصر... وعندما صافح إبراهام لم يكن هذا يعلم ما الذي كان يدور في رأس الشوان ولم يكن الشوان يعلم أن هذه هي المرة الأخيرة التي يرى فيها إبراهام.

■ ■ ■

جاء الصباح على الشوان ولا يدري كيف جاء... ها هي اللحظات تمرق بسرعة مخيفة، مضت الليلة ولم ينقطع المطر وما هي إلا ساعتان أو أكثر قليلًا ويصبح معلقًا في الجو في طريقه إلى تل أبيب... لا نوم ولا يقظة ولا أحلام، لا شيء، لا شيء على الإطلاق... استبدت به الهموم فإذا كل شيء يساوي كل شيء، وإذا الحياة تساوى الموت... وإذا مصر هي الأبد وهي الأزل، وإذا ناسها الطيبون غير كل ناس عرفهم في طول الدنيا وعرضها، وإذا كان العمر واحدًا والرب واحدًا، فليكن... دق الباب وكان سامي المصري هو الطارق:

«فين البرنيطة؟»

هكذا بادره الشوان، فأجاب:

«ما لقيتش، النهاردة الأحد!»

«فين الدقن؟!»

«ما لقيتش!!»

«يبقى أنا مش مسافر».

صاح سامي المصري في ذعر... كان واضحًا أنه يشعر أنه وقع في فخ:

«إزاي ما تسافرش وكلهم في البيت منتظرينك؟!»

«إذا كنتوا انتم مش خايفين علي، أنا لازم أخاف على نفسي!!»

«إزاي أشتري برنيطة والمحلات قافلة؟!»

«اتصرف يا أخي. هو انت مش ضابط مخابرات؟؟»

كان هذا فوق الاحتمال وفوق التصور، غير أن رد سامي كان أكثر هرولة من مشيته:

«أتصرف إزاي قول لي؟!»

«اشتري لي برنيطة من بتوع الشيالين، وإذا كان ثمنها دولار، إدي لصاحبها عشرة!!»

ولم يكن أمام سامي المصري سوى الطاعة!!

أسرع الشوان يستعد للسفر ورغبة وحشية تنتابه في السخرية من هذا الضابط... كان إحساسه بالتفوق غامرًا فتعجب كيف يهزمنا ناس هذا واحد من ضابط مخابراتهم... وعندما عاد إليه سامي بقبعة الحمالين

استلقى الشوان على قفاه من الضحك بالفعل، دهش سامي لضحكاته وسأله عن سببها فقال الشوان:

«إنت صدقت؟؟... فيه بني آدم محترم يلبس برنيطة شيالين... دي تقول للي مش واخد باله خلي بالك... أما انت مسخرة صحيح!!»

ليحدث ما يحدث الآن، ليقتلوه، ليمزقوه إربًا... ها هو على استعداد لملاقاة الموت، وضع المعطف على كتفيه وألقى على نفسه نظرة سريعة في المرآة وحمل حقيبته وقال:

«يالله بينا»

مد له سامي المصري يده وفيها جواز سفره الإسرائيلي، دس الشوان الجواز في جيبه دون أن ينظر فيه قائلًا:

«يعني أنا من دلوقتي بقيت يعقوب منصور؟!»

هز سامي رأسه إيجابًا... ومد يده للشوان مودعًا... لكن جمعة تجاهلها!!

في مطار زيورخ تقدم أحد أفراد طاقم طائرة شركة العال المسافرة إلى تل أبيب من جمعة الشوان في احترام شديد متسائلًا:

«مستر يعقوب منصور؟؟»

«نعم أنا».

«جواز السفر من فضلك!»

قدم له الشوان جواز سفره الإسرائيلي الذي يحمل اسم يعقوب منصور، أحس لحظتها أنه لا يسير فوق الأرض بل يسبح في الهواء،

دق قلبه وبردت أنفاسه... غاب الرجل لدقيقتين ثم عاد وقد أنهى كل الإجراءات:

«من هنا يا سيدي».

في احترام شديد قاده الطيار إلى باب جانبي، وبعد دقائق كان الشوان يصعد سلم الطائرة وكان أول الراكبين. قاده الطيار إلى الدرجة الأولى وكان هو الراكب الوحيد فيها طوال الطريق... و... طوال الطريق لم ير الشوان سوى المضيفة التي قامت على خدمته وحده.

دارت المحركات.

نظر الشوان من النافذة.

سبح صوت المضيفة في جو الطائرة المعطر تقول باللغة العبرية:

«سيداتي آنساتي سادتي... يسر شركة العال أن ترحب بكم فوق طائرتها المتجهة إلى تل أبيب... ولسوف تطير على ارتفاع... و... و...».

ولم يسمع الشوان شيئًا بعد ذلك!!

الفصل الخامس عشر

في تلك الأيام البعيدة كان جمعة الشوان أبسط من هذا بكثير... كان وهو يركب الطائرة من هامبورج إلى القاهرة عن طريق ميونيخ أثينا، يفكر فيما يمكن أن يفعله، كانت الأفكار رغم كل ما مر به من تجارب، رغم جوجو وماري والعروض المغرية، رغم إبراهام وجاك والعروض الغامضة، كانت الأفكار بسيطة، تسير في مجرى واضح!

كان قد قرر أن يبلغ السلطات المصرية عما حدث له وعمَّا طلب منه، لم يأت القرار عفويًّا هذا صحيح، جاء بعد معاناة وأخذ ورد، غير أن المشكلة التي كانت تواجهه أيامها كانت: لمن يبلغ الأمر؟

هكذا كانت المشكلة بسيطة، هل يذهب إلى قسم الشرطة؟!... هل يبلغ المباحث العامة؟!... أم يذهب إلى المخابرات؟!...

وهو - في حقيقة الأمر - لم يكن يدرك الفرق بين هؤلاء وأولئك، ولذلك كانت مشكلته وهو يطل على القاهرة التي بدت له من الجو لأول مرة كالمدن الأسطورية، إلى أين يذهب ويلقي الحمل من فوق كتفيه، وتنتهي بعدها الحكاية ويعود إلى سيرته الأولى؟

▪ ▪ ▪

وها هو الآن يركب الطائرة إلى تل أبيب... خمس سنوات فقط هي الفرق بين رحلتيه، خمس سنوات أدخلته في تلك الدوامة الرهيبة التي كانت تجتاحه اجتياحًا وهو يطل من نافذة الطائرة... كان يجلس في الدرجة الأولى وحده، تقوم على خدمته مضيفة تلبي أي حركة تبدر عنه، ويعامل من الطاقم باعتباره راكبًا من نوع خاص!!

في البداية تقدمت منه المضيفة الإسرائيلية وتبادلت معه الحديث في ود وأدب، لقد مل هذه الخدعة الصغيرة فهي تسأله من أين وإلى أين وهل هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها إسرائيل، وكان يجيب كما تجيب الآلة... كان يجيب بتلك الأشياء التي لقنوه إياها وهو موقن بل متأكد أن هذه المضيفة ليست سوى عميلة للمخابرات الإسرائيلية، كماهو موقن تمامًا أنه منذ أن وضع قدمه في طائرة شركة العال، أنه أصبح في أرض إسرائيلية... هو الآن تحت رحمتهم، فهل يمكن أن تصل إليه يد الريس زكريا القابع في مكان مامن الكرة الأرضية يتابع خطواته ويترقب نتائج مغامرته هذه المجنونة...

....

....

ما أبشع الفرق بينه الآن وهو يأكل في طائرة العال كل ما تقدمه له المضيفة، وهو موقن أن هذا هو «آخر زاده»، وبينه هو نفسه وهو يركب الطائرة التي تدور حول القاهرة وقد عافت نفسه الطعام والشراب لفرط ما كان يعتمل في نفسه من شوق لفاطمة وأمه ومصطفى... في تلك الأيام الخوالي كان يفكر في فاطمة بشوق عارم، وهو الآن لا يفكر إلا

في فاطمة والمولود القادم من الغيب مثل حلم قارب أن يتحقق... ترى: هل فتحت فاطمة الخطاب قبل الموعد!

إنها - أبدًا - لن تفعل هذا، وهي - أبدًا- لا تفعل إلا ما يقوله... غير أن الأمر لا يمنع من أن يأكل القلق قلبها فتقدم على ما لم تتعود عليه... في تلك الأيام الخوالي كان يتخيل - وهو في الطائرة - منظرًا لها - وقد كانت طفلة صغيرة - وهي تمارس الفرحة بما جلبه لها من هدايا. وهو الآن يتحدث مع نفسه ذلك الحديث الداخلي: «يا بت أنا كان نفسي أجوزك لراجل اطّمن عليكي معاه!»... ولأنها ابنة خالته فلقد كان يعرف أن حياته ستكون فيما هو قادم من أيام، على كف عفريت... إحساس غامض كان لكنه تحقق الآن فهل فيه شيء يتنبأ بالمستقبل؟!... في تلك الأيام كان قلبه مفعمًا بالرضا كان - رغم كل ما مضى به - يعلم أنه في صباح اليوم التالي سوف يتطهر، يستحم مما حدث، ثم يعود إلى حياته تائبًا متمتمًا إن الله غفور رحيم... لكنه الآن ينتظر ما سيفعلونه به منذ أن تصل الطائرة إلى أرض مطار اللد... آه يا تلك الأيام المشحونة بالتجربة والعنف والمال والمغامرة، وكأن الدماء نفسها قد تغيرت في عروقه. وكأن الجالس الآن فوق مقعد الطائرة، ليس الشوان الذي يعرفه بل رجلٌ آخر من طينة غير الطينة ومن ينبوع غير الينبوع... فهل تنتهي الرحلة هنا أم ترى قد قدر له أن يعود إلى مصر يومًا، وأن يعود الشوان الذي عرفه من جديد؟...

أسند رأسه إلى مسند الطائرة وراح يسترجع الأيام.

***

انقضت الرحلة من هامبورج إلى القاهرة في لمح البصر، منذ أن غادر إبراهام وذهنه ينطلق في حرية. ها هو الآن في مفترق الطرق، المال والجاه والعز والدولارات وهؤلاء قوم لم يكذبوا في كلمة وعدوه بها. فهل يصبح الصدق في الوعد سلاحًا للقتل لكي يتشرد أهل السويس أكثر ويعاني أهل مصر المزيد من العذاب؟... رغم كل شيء فهم لم يطلبوا منه شيئًا سوى معرفة كل شيء عن السفن الغارقة في «الكنال»، وهناك آلاف من الناس يعرفون كل شيء عن تلك السفن... وبدلًا من التشرد والضياع والبحث عن عمل جديد، لم لا يؤمن للمستقبل أيامه وكفى ما يلاقيه هو وأهل السويس من تشرد... ولقد أضاء ذهنه ذات لحظة بفكرة بدت له في أول الأمر غريبة وإن كانت، بعد إعمال الفكر، تبدو معقولة... بل إنها تبدو وكأنها مخرج من كل أزمة وكفى الله السوايسة شر القتال في هذا المجال!

وإذا كان قد عاد من الخارج بقرشين لا بأس بهم، فهو بالرغم من كل شيء، فقد قتر على نفسه ولم ينفق من مرتبه قرشًا، هذا عدا ما أخذه من جوجو وما منحه إياه إبراهام في الأيام الأخيرة... وإذا كان الأمر كذلك، وبحسبة بسيطة، فإن ما يملكه الآن يكفي ليفتتح به كشكًا لبيع السجائر والحلويات، وهو يعرف نفسه جيدًا، وإذا كان الكشك مشروعًا صغيرًا، فإنه نقطة انطلاق سوف يأتي الرزق بعدها وفيرًا!

عند هذه النقطة تنفس الصعداء، وبدلا من المقارنة والتردد حسم أمره... ولسوف يبلغ السلطات في مصر - أيًا ما كانت - عما حدث له، فإن لم يكن في الأمر ما يريب، يا دار ما دخلك شر... سوف يرتاح ضميره ويستمر في عمله... أما إذا كان في الأمر ما يريب، فلسوف يرفع

الحمل عن كاهله، ويمشي بين الناس خفيفًا لا يثقل ضميره ذنب، ويبدأ بالكشك والله المستعان!!

عندما احتكت عجلات الطائرة بأرض مطار القاهرة الدولي دق قلبه وارتج مع ارتجاج الطائرة العملاقة... ما إن وقف على سلم الطائرة حتى سرت في جسده قشعريرة دفعت بالدمع إلى عينيه، وإذا المرئيات - من خلف الدمع - تتماوج وتتداخل...

كان المطار مظلمًا!!

هناك... حيث كان منذ ساعات قليلة، كانت البلاد والمطارات مضيئة، بل مشتعلة بالأنوار والناس فيها يعيشون في أمان... ولكن، هناك أيضًا من يريدون منه أن يساعدهم على استمرار الظلام والإظلام في بلاده... آه... آه يا أرض الوطن الغالي، آه يا معاني الكرامة، كلام يقال ويتردد في الأغنيات فإذا هو في القلب حقيقة ساطعة، آه يا صرخة العذاب المكبوتة وسط مطار مظلم وإجراءات مشددة وحرب هزمنا فيها... آه... آه يا سويس وأنت جريحة بألف قنبلة، بآلاف القنابل، بالليل المدلهم بالدماء والأشلاء وأنين المشردين ودموع المهجرين... فكيف؟!... كيف يخون هؤلاء حتى ولو مات جوعًا؟!!

وإذا الذكريات مرئيات تترى على ذهنه... جوجو وماري والحديث بالعبرية والحلم الزائف بحب أكثر زيفًا... إبراهام وجاك واخضرار الدولارات نظير معلومات عن سفن غارقة!

كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل عندما انتهت الإجراءات، وخرج من المطار كي تستقبله الساحة... سار حتى أقرب سيارة أجرة، ألقى بنفسه فيها:

«ميت عقبة يا ريس!»

«حمدا لله على السلامة يا سيد!»

«الله يسلمك!»

ها هو الوطن يرحب به، فليرد التحية وليستفسر فلربما وجد إجابة عن سؤال!

«إيه أخبار البلد؟... »

الطريق من المطار إلى المدينة مظلم، وما زالت أضواء السيارات زرقاء.

«بقى لك كتير متغرب يا فندي؟!»

«ثمانية أشهر!»

«الحمد لله على السلامة، آهو زي ما أنت شايف كده!!»

وعاد الصمت يلف السيارة إلا من هدير الموتور... لم يرد الرجل على سؤاله فلقد اكتفى بما قال وكأنه يحيله إلى الواقع، وإذا الشوان يذرف الدمع رغمًا عنه، وإذا السيارة تقطع شوارع المدينة، تنحرف يمينًا إلى حي الحسين... الفاتحة لحفيد الرسول، تنزلق بعدها إلى شارع الأزهر، ثم تنثني يسارًا إلى شارع 26 يوليو!

«هي البلد لسة مضلمة؟».

ولا يأتيه رد... ليس سوى الصمت الحزين وهو آت من حيث يعيش الناس لذائذ الحياة فينعمون... تخترق السيارة حي الزمالك، وتعبر كوبري الزمالك وتوغل داخل الحي الشعبي... و... و...

«هنا... على إيدك هنا يا أسطى!»

فتحت فاطمة الباب وقد انتابها الرعب:

«مين؟!»

«إزيك يا فاطمة؟!»

تراجعت إلى الوراء خطوة:

«أنت مين؟!»

«إنا مين؟... إنت جرى لعقلك حاجة؟»

وتأتيه الصرخة بالشوق كله، باللهفة بالعذاب:

«جمعة!»

ومن الداخل تعلو صيحة أمه:

«جمعة!»

ويصحو مصطفى من نومه، يفرك عينيه ذهولًا:

«جمعة!»

ويغرق وسط الأحضان والدفء وتسيل الدموع مدرارًا...

«إنت ما عرفتنيش يا فاطمة!»

«لأ!!!»

«إزاي؟!»

ولم يكن يعلم أن وزنه قد نقص ثلاثين كيلو جرامًا كاملة... وأنه كان قد تحول من رجل إلى هيكل عظمي... لم يكن يعلم أنه فقد الكثير كي يجيء بما يستر الحياة لشهور قليلة!!

آوت أمه ومصطفى إلى فراشهما، وبقيت فاطمة معه:

«مالك يا جمعة!»

«سلامتك يا فاطمة!!»

«إنت مخبي عني حاجة؟!»

«سيبيني أنام شوية علشان عندي مشوار مهم الصبح بدري!!»

....

....

وضع رأسه فوق الوسادة لكن النوم - أبدًا- لم يأخذه، وعندما ألقى بنفسه داخل التاكسي في صباح اليوم التالي، لم يكن يعرف إلى أين... انطلق السائق بالسيارة وقال:

«على فين يا أستاذ؟»

«المخابرات!!»

التفت السائق نحوه في دهشة ووجل، عاد الشوان يسأل:

«إنت تعرف فين مبنى المخابرات؟!»

«ده في كوبري القبة!!»

«طب اطلع بينا على هناك!!»

■ ■ ■

أضاءت في الطائرة لوحة ممنوع التدخين، ثم لوحة اربطوا الأحزمة، ثم جاء صوت المضيفة يعلن:

«سيداتي سادتي... نحن الآن فوق مطار اللد...... ... !!»

نظر الشوان من نافذة الطائرة ولم يكن يشعر بشيء على الإطلاق، كان وكأنه تحول إلى مقعد كالذي يجلس عليه سواء بسواء، تنفس ملء صدره وطلب من المضيفة كأسًا من الويسكي، وعندما جاءت به، ابتلعه دفعة واحدة!!

■ ■ ■

عندما غادر الشوان التاكسي أمام مبنى المخابرات، داهمه خوف غريب... ما له هو ووجع القلب هذا؟!

تساءل: لم لا يكفي على الخبر ماجورًا وكأنه لم يلتق بإبراهام أو بجوجو. لم لا يتجاهل الأمر كله فلا يسأل عن السفن ولا يرسل معلومات وكأن شيئًا لم يحدث؟!

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تخطر فيها له مثل هذه الأفكار... تلفت يمنة ويسرة فبدا له الشارع طويلًا مقفرًا، وقف لثوان يرقب الدنيا فإذا بها دنيا صامتة ساكنة، ثمة سيارة هنا أو سيارة هناك، ثم لا شيء سوى السور الممتد والأشجار والمبنى في الداخل يبدو غارقًا في الغموض...

تقدم نحو الباب وجلًا. من خلف غرفة زجاجية، طالعه وجه حارس يرتدي ملابس خضراء... انتظر أن يتقدم منه الحارس، أن يسأله إلى أين، لكن عيني الرجل ظلتا مثبتتين عليه في صمت... وكأن مغناطيسًا يجذبه، كأن شيئًا خفيًّا يدفعه... ساقته قدماه إلى حيث تقدم الرجل لاستقباله:

«أفندم؟!»

«ممكن أقابل حد من المسئولين من فضلك!!»

دق الرجل نظراته في عينيه فتوقفت كل أعضائه في ثبات متوتر!!

«اسم سيادتك؟»

«جمعة الشوان!»

«الاسم الثلاثي من فضلك!»

«جمعة عبد الغني الشوان!!»

«معاك بطاقة؟»

وأخرج له الشوان بطاقته، ألقى الرجل عليها نظرة وعدل من وضع الحزام الذي يحمل المسدس في خصره:

«اتفضل».

عاد الرجل إلى الغرفة الزجاجية فدخل الشوان خلفه، وقف في منتصف الغرفة فأشار الحارس إلى مقعد جلس عليه دون تفكير... البطاقة في يد وسماعة التليفون في اليد الأخرى والصمت شامل والسكون مطبق والرجل يدير قرص التليفون ويتحدث، لم يكن

يهمس... كان يتحدث فقط بصوت خافت... لكن الشوان لم يسمع شيئًا... نظر الحارس إلى البطاقة وعاد إلى الحديث ثم تحركت شفتاه حركة سريعة وأعاد السماعة ووضع البطاقة في درج مكتب صغير!

كان كل شيء يتم بدقة غريبة... عاد الرجل يتصل بالتليفون غير أنه ما إن وضع السماعة هذه المرة حتى انفتح في الغرفة باب خلفي ظهر منه حارس آخر يرتدي نفس الملابس ويحمل نفس المسدس، تقدم الحارس الجديد من الشوان قائلًا:

«اتفضل معايا!!»

في تلك اللحظات كان الشوان يشعر بالندم الشديد. كان خائفًا، ربما لأن لهؤلاء الناس لغة خاصة، غير أنه كان واثقًا من حركة شفتي الحارس وهو يتحدث في التليفون، إنه كان يتحدث العربية فكيف لم يسمع... خرج من الغرفة خلف الحارس الآخر واخترق حديقة... الحديقة بها زهور... هم بتوع المخابرات بيعرفوا في الورد؟... هكذا تساءل بينه وبين نفسه!... في ممر وسط الحديقة سار، كان ثمة باب كبير أمام عينيه وكانت الخطوات تسير به نحو الباب لكنه فجأة انثنى خلف مرشده فإذا هو يخترق بابًا بدا وكأنه انفتح في الحائط فجأة... سار في دهليز نصف معتم وكان الجو في الدهليز رطبًا... لا أحد. لا أحد هناك على الإطلاق، لا أحد ولا شيء سوى وقع الأقدام فوق أرض نظيفة، دار حول سلم صغير وراح يستعيد ما سوف يقوله... خطا خطوة، فإذا هو في فناء غريب الشكل، ثمة رجل يصلح سيارة... مر خلف الحارس إلى جواره فلم يرفع الرجل رأسه، بل لم يبد عليه أن شعر أو أحس أن

هناك من كان يمر إلى جواره... أنا اسمي جمعة الشوان، جمعة عبد الغني الشوان... دخل بابًا وصعد سلمًا وانثنى إلى اليسار وهبط سلمًا آخر فإذا به في فناء آخر... الصيحات والضحكات وكان هناك حراس ورجال وكأنه في مدينة مسحورة... أنا يا فندم قابلت في بريستول بنتًا اسمها جوجو... طالعه وجه رجل ضاحك العينين أصلع الرأس وكانت يده ممتدة:

«أهلًا وسهلًا»

صافحه الشوان والتفت نحو الحارس الذي أتى به لكنه لم يجده... كانت الغرفة التي وقف فيها أمام الأصلع الباسم متوسطة الاتساع. ثمة مكتب صغير وأربعة أجهزة للتليفون... دق جرس أحدها فرفع الأصلع السماعة وضحك:

«موجود يا فندم، أوامرك يا فندم!»

وضع الأصلع السماعة وابتسم ابتسامة واسعة وقال للشوان:

«الحمد لله على السلامة!!»

سقط قلب الشوان بين ضلوعه... كيف عرف هذا الرجل أنه كان مسافرًا... تقدم منه الأصلع في ود شديد، اقتاده إلى سلم جانبي، صعد بضع درجات ثم نفذ خلفه إلى ممر... سار في الممر فإذا وقع الخطوات كدبيب عمالقة، انثنى الأصلع إلى اليسار قائلًا:

«اتفضل يا أستاذ جمعة!!»

أحس الشوان - ربما لأول مرة في حياته - أنه «محتاس»، دخل إلى غرفة رمادية. كل شيء فيها رمادي... المكتب والمقاعد والأريكة والجدران، حتى التليفون الغريب الشكل كان رماديًّا...

«تشرب إيه؟»

التفت الشوان نحو الأصلع في فزع:

«نعم!!»

كانت ابتسامة الأصلع قد اتسعت وعيناه الضاحكتان قد ازداد فيهما الضحك:

«شاي ولا قهوة؟».

«شاي!»

قالها الشوان بحكم العادة.

«ولا تحب أجيب لك حاجة ساقعة؟».

«شاي!!»

«دقيقة واحدة!»

خرج الأصلع وأغلق الباب خلفه، ابتعد صوت قدميه تدريجيًّا حتى ذاب في الصمت... ران السكون على المكان فكأنه انتقل إلى الأبدية وكأن الصمت تحول إلى عدم، سمع بأذنيه دبيب قلبه، راح يجول بعينيه في المكان فما رأى شيئًا... مكتب رمادي ومقاعد رمادية وجدران رمادية، مسحت عيناه المكان بحثًا عن شيء يخرق الصمت ويكسر

اللون، زحفت عيناه فوق الجدار فطالعته صورة الرئيس جمال عبد الناصر.

هب جمعة الشوان واقفًا!!

هب وكأنه يريد أن يستنجد بصاحب الصورة، كان الوجه باسمًا والعنق مشرعًا والرأس - رغم كل شيء - مرفوعًا... انتفض جمعة الشوان واستأنس بصوته، وجد نفسه يتحدث إلى الصورة، يتحدث إليها بصوت مرتفع:

«أنا يا ريس على إيدك آهو عملت اللي عليّ... أنا ما اعرفش إيه الناس دول ولا مين الناس دول إنما أنا قلبي على البلد وانت عارف!»

انتبه الشوان إلى أنه يحدث صورة عبد الناصر بصوت مرتفع فلم يتوقف عن الحديث، في داخله إحساس غامض وغريب بأن عبد الناصر، في أي مكان كان في ذلك الصباح، كان يستمع إليه وكان يصدقه... ولقد تساءل الشوان عن سبب خوفه الغريب هذا الذي كان يجتاح جوانحه رغم أنه لم يخطئ، ورغم أنه جاء بقدميه كي يحكي ما حدث، أو يبلغ عما حدث دون أن يرتكب جرمًا ودون أن يكمل أربعًا وعشرين ساعة في الوطن الذي غاب عنه لثمانية أشهر!

ولا يدري الشوان ما الذي كان يقوله لعبد الناصر عندما انتبه إلى دقة على الباب فانتفض والتفت، طالعه الأصلع بعينيه الواسعتين وابتسامته المرحبة السعيدة وكان يحمل صينية فوقها كوب من الشاي:

«أنا قلت أجيب لك الشاي بنفسي يا سيد جمعة!»

تقدم منه جمعة كي يتناول الكوب قائلًا:

«أنا متشكر جدًّا!»

«حمدا لله على السلامة!!»

للمرة الثانية يقول الرجل هذه الجملة فمن أين عرف أنه كان مسافرًا... كانت هي المرة الأولى التي يدخل فيها جمعة الشوان هذا العالم الغريب، ولم يكن يدري وهو يرشف الشاي ويدخن سيجارة أنه سوف يصبح ذات يوم جزءًا من هذه التركيبة، وأن هذا الأصلع بالذات سوف يصبح واحدًا من أقرب أصدقائه إلى نفسه، ولقد خال ذات لحظة أن هذا الرجل قد ولد وابتسامته معه لا تفارقه، كأنها ولدت معه، كأنها جزء من تكوينه العضوي كيده أو أنفه أو ذراعه... هي ابتسامة لم تختف طيلة سنوات سوى مرة واحدة، عندما كان الأصلع يتحدث إلى جاسوس قبضوا عليه... يومها، اكتشف جمعة الشوان، أنه لولا تلك الابتسامة، لدب الرعب في قلب كل من ينظر إلى هذا الرجل!!

فجأة... فتح الباب.

التفت جمعة نحو الباب فسقط كوب الشاي من يده فوق الأرض وتحطم بعد أن أغرق الشاي سرواله...

«إزيك يا جمعة!»

كان الواقف أمامه هو آخر إنسان كان جمعة ينتظر أن يراه في هذا المكان، كان الواقف أمامه هو «الريس زكريا» - بتاع اليونان!! - بلحمه ودمه... ذلك الذي التقى به في أثينا منذ ثمانية أشهر، ذلك الذي اشترى

منه ساعة يده، ذلك الذي طالما ألح عليه أن يعود إلى الوطن... ذلك الذي اتهمه جمعة ذات مرة، بأنه يريد أن يثبط عزيمته، وأن يحطم مجاديفه!!

ارتبك جمعة، بل ارتج حتى الأعماق، فمن يصدق أن هذا الشاب الأنيق في غير تبذل، المنسق الشعر والملابس معًا، الباسم وكأنه لا يحمل همًّا، هو الريس زكريا ذو الطاقية الصوفية في اليونان؟!...

نظر جمعة إلى الكوب المكسور والشاي المسكوب وكاد ينطق لولا أن وجد يد الريس زكريا ممتدة إليه فالتقطها في لهفة والدمع يكاد يظفر من عينيه:

«إزيك إنت يا ريس زكريا!»

بعد أن صافحه الريس زكريا فتح الباب ونادى بصوت شديد الخفوت:

«عوض!»

دهش جمعة، فلولا أنه كان في نفس الغرفة لما سمع النداء، غير أنه لم تمض سوى ثوان حتى ظهر فتى يرتدي ملابس رمادية اللون:

«أفندم!»

«الكباية وقعت من الأخ جمعة!»

«حاضر يا فندم!»

اختفى الشاب، ونظر زكريا إلى الشوان وكانت ابتسامته تملأ وجهه:

«إيه الأخبار!»

قال الشوان وكلماته تتسابق فوق لسانه:

«أنا وصلت إمبارح الساعة اتنين بعد نص الليل، يعني النهاردة الفجر نمت لي ساعة زمن ولا استحملتش، قلت آجي أقول على اللي حصل!».

«وأنا كنت متأكد إنك حاتعمل كده!»

وعندما عاد عوض لتنظيف المكان توقف الحديث، حتى إذا انصرف، عاد الحديث مرة أخرى وكان جمعة هو البادئ:

«سيادتك بتقول إنك كنت عارف إني حاعمل كده؟!»

«طبعًا»

«معنى كده إنك كنت عارف كل حاجة!».

نظر إليه زكريا نظرة مغموسة في بحر عتاب... وتذكر جمعة جلساته مع زكريا، تذكر نصائح زكريا، تذكر كيف رفض منه كل قول وكل نصيحة، غاضت الابتسامة من وجهه وتهدلت ملامحه وقال:

«عندك حق يا ريس زكريا... إنت نبهتني وأنا اللي رفضت!».

«اللي فات مات يا جمعة، إحنا ولاد النهاردة!».

«شوف يا بيه... إنت عارف إني سافرت على المركب آرتا اللي......»

وبدأ جمعة يحكي قصته منذ أن غادر أثينا حتى وصل إلى القاهرة قبل فجر نفس اليوم بقليل.

كان الريس زكريا يجلس مستمعًا، بين الحين والحين كان يسأل سؤالًا فإذا ما أجاب جمعة لزم الصمت، بعد أن مضت دقائق قليلة، وقبل أن يخوض جمعة في الحديث دق الباب وفتح ودخل عوض يحمل صينية عليها كوب من الشاي وفنجان من القهوة... عندما انتهى جمعة من سرد قصته كانت ثلاث ساعات قد انقضت وكان قد دخن ثلاثين سيجارة، حتى إذا انتهى من حكايته نهض زكريا إلى التليفون ورفع السماعة وأجرى مكالمة تليفونية... وكاد جمعة أن يفقد عقله!

كان الريس زكريا يتحدث في التليفون أمامه، ولم يكن يهمس، وكانت الغرفة خالية والصمت مخيمًا، ورغم هذا فإن جمعة لم يسمع كلمة مما قاله الريس زكريا، ما إن انتهى الريس زكريا من حديثه حتى أعاد السماعة إلى مكانها، التفت نحو جمعة وسأله:

«تشرب شاي؟!»

وافق الشوان فأمر بكوبين من الشاي وراح يدردش معه حول بعض ما حكاه، وكانت دهشة جمعة شديدة عندما سأله الريس زكريا:

«هي جوجو شعرها لونه إيه؟!»

«جوجو شقرا يا ريس زكريا!»

زام الريس زكريا وهو يغمغم بصوت مسموع:

«تبقى صبغته!».

«هو سيادتك تعرفها يا ريس زكريا؟!»

قبل أن يجيب زكريا دق الباب ودلف موظف يحمل مظروفًا ذا لون أصفر سلمه للريس زكريا في احترام ثم انصرف دون كلمة... فض زكريا المظروف وأخرج منه صورة راح يتأملها باسمًا... كاد جمعة أن يجن فلم يكن يعرف ما الذي يدور أمام عينيه، ما لبث زكريا أن ألقى بالصورة فوق المائدة تحت عيني جمعة وهو يسأل:

«مش ده جاك؟!»

دق قلب الشوان بعنف، تهدجت أنفاسه بل تبددت، كانت صورة جاك ترقد أمامه على المائدة التي تتوسط المقعدين المقابلين للمكتب، رفع جمعة رأسه نحو الريس زكريا:

«أيوه هو يا فندم!».

«ده ضابط مخابرات إسرائيلي يا جمعة!».

لحظتها أحس الشوان بالدوار، بل... بل انتابته رغبة عارمة في البكاء، نظر إلى الريس زكريا وكان هذا يشعل سيجارة، وما زالت ابتسامته معلقة فوق شفتيه لم تبرحهما!!

■ ■ ■

كان هذا اللقاء مع الريس زكريا في مبنى المخابرات العامة المصرية هو الذي قاده إلى ما هو فيه الآن... فتح باب الطائرة الأمامي، والمخصص لركاب الدرجة الأولى ولم يكن هناك راكب فيها سوى الشوان!

في مطار اللد وأمام سلم الطائرة كان ثمة سيارة سوداء رهيبة المنظر تقف في انتظاره. أمام السيارة كان هناك أربعة أشخاص لم ير الشوان وجه أحدهم من قبل.

ها هي نبوءة الريس زكريا تتحقق.

عندما بدأ يهبط السلم تقدم منه ثلاثة من الأربعة فأيقن أن الرابع هو السائق.

كان أولهم أبيض الوجه ممتلئ الجسم وسيم الملامح. يضع على رأسه طاقية صغيرة من تلك التي يرتديها اليهود المتدينون... من خلفه كان هناك اثنان، واحد بلا ملامح عبثًا حاول الشوان أن يفسر أو يقرأ ملامحه ولكن هيهات، كان من ذلك النوع من البشر الذين تبدو وجوههم وكأنها شخوص جاءوا من عالم آخر... أما الثالث، فكان عربي الملامح أسمر الوجه نحيل الجسد... راهن الشوان نفسه منذ أن وقعت عليه عيناه أنه من أصل مغربي!!... صافحه الثلاثة بحرارة شديدة وتقدم أحدهم إلى المقعد الخلفي، صعد الشوان وراءه وصعد الوسيم من بعده وجلس الثالث بجوار السائق. وقبل أن يفتح باب الطائرة لباقي الركاب. كانت السيارة تنطلق بالراكب الغامض مغادرة مطار اللد.

....

....

ساد الصمت، وكان الشوان يجلس بين المتدين والصامت. تحدث المتدين ذو الطاقية أولًا:

«كيفك يا جمعة؟!»

«الحمد لله!»

«كيف المدام؟!»

«بخير!!»

«وكيف حال الوالدة؟!»

«والله عيانة وكل يوم عند الدكتور!»

تنهد الوسيم قائلًا:

«لك كتير ما بعت رسايل يا أخ جمعة!»

«إزاي ده... أنا لسة باعت جواب من أسبوع واحد بس!»

بدأت اللعبة من جديد وعليه أن يكمل الطريق:

«إيش آخر نكتة سمعتها في مصر؟!»

ضحك الشوان قائلًا:

«معاك فلوس؟»

«معلوم!!».

«طب أنا جعان!».

وانفجر الجميع في الضحك... وبدد الضحك من تلك السحابة الجاثمة فوق صدره بالقلق المميت. توقفت السيارة أمام أحد المطاعم المقامة على الطريق من المطار إلى المدينة. هبط المغربي وعاد بسلة

مليئة بالطعام... أكل الشوان وكان دهشًا لجوعه الشديد. قال نكتة فضحكوا، وقال نكتة أخرى وقبض خمسين دولارًا... سأله المتدين:

«سمعنا أن الحكومة كبست على المحل عندك؟»

«بتوع التموين الله يخرب بيتهم!!»

«تأكدت أنهم بتوع التموين فقط؟؟»

«هم لو ما كانوش بتوع تموين كان زماني هنا؟؟»

و... و... و... وتتالت الأسئلة وتتالت إجاباته ولقد كان لا بد لذهنه من أن يظل حاضرًا ومنتبهًا ويقظًا ولا يفوته حرف مما يقال... سألوه عن المطار وعن التفتيش فيه، عن شركة الطيران، عن الركاب، عن البلد، عن التموين، عن الشعب...

«شعب مين؟ الناس حاتطير من الفرحة!!»

«معلوم!!»

«ولما هو معلوم كنتم بتضحكوا عليّ ليه!»

ألقى بالقفاز في وجوههم قبل أن يبدءوا... كان قد قرر أن يلقي بنفسه في اليم، قبل أن يفتح أحدهم فمه كان هو يسأل:

«قبل أي حاجة وأي كلام أنا عاوز أعرف إيه اللي حصل... أنا سألت الإخوان اللي قابلتهم في روما ما حدش قال لي كلام مفيد... إزاي المصريين يعبروا، إزاي... وإزاي يقتحموا خط بارليف، إزاي... فهموني إزاي... لازم أعرف وأفهم والا انتوا في سكة وانا في سكة

ثانية... فاهمين. أنا في سكة تانية وآديني بأقولها من دلوقت علشان نتكلم مع بعض بصراحة!».

قال الشوان هذا وانفجر باكيًا!!

وكان هو أول المندهشين لبكائه... وجد نفسه يبكي... يبكي بحرقة... ينهنه. تسيل دموعه مدرارًا... ساد الوجوم... ذهلوا... هذا مصري يبكي لأن المصريين انتصروا... وظلوا جميعًا صامتين حتى توقفت السيارة. توقفت أمام إحدى عمارات شارع من أهم شوارع تل أبيب إن لم يكن هو الشارع الرئيسي فيها، ذلك هو شارع ديزنجوف.

كانت الجولة في شارع ديزنجوف داخل حلبة الموت ذاته. وطوال ثلاثة أسابيع وبينما المارة يسعون في هذا الشارع التجاري الذي يصب في البحر الأبيض المتوسط غير شاعرين بما يحدث، كان جمعة الشوان يعاني سكرات الموت وحده. وسط زبانية تولوه حتى النخاع بالتحليل والبحث.

■ ■ ■

كان الحوار بينهما قصيرًا. حوار سريع واضح المعالم... حوار بين الريس زكريا وبين جمعة الشوان، وكانت صورة عبد الناصر المعلقة في الغرفة هي الشاهد الوحيد.

ما إن انتهى جمعة من الكلام بعد أن حكى للريس زكريا كل ما مر به وكل ما حدث، وكل ما قيل له. وكل ما قاله، حتى تنفس الصعداء وأحس بالراحة تغمره من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، كان الريس زكريا قد شرح له الأمر في بساطة... كان وكأنه يجلس معه على أحد

مقاهي السويس. الحكاية أبسط مما تتصور، غير أن المطلوب منك هو الصمت... هل تستطيع أن تصمت؟

«طبعًا!!»

«لا... مش طبعًا. لازم تفكر كويس... مش لازم حد يعرف خالص. لا المدام ولا حتى أقرب الناس لك!».

«حاضر!!»

«برضه ما تستعجلش يا جمعة و خد وقتك في التفكير!!».

«أمرك يا فندم!!»

كان حماسه بالغًا في ذلك الوقت فما الذي فعله به الريس زكريا؟...

«على العموم... أنا عندي شوية شغل على ما اخلصهم وارجع لك تكون أنت كتبت لنا الحكاية!!».

«حكاية إيه؟!»

«اللي انت حكيتها لي»

«طب ما أنا حكيتها لك يا ريس زكريا!»

«وما له، اكتبها برضه، وبالتفصيل، الكتابة حاتخليك تفتكر حاجات بتضيع من الواحد وهو بيحكي!».

لزم جمعة الصمت لثوان، وعندما هم بالحديث أردف زكريا:

«وما تسيبش أي حاجة حتى ولو كانت من وجهة نظرك هايفة؛ لأن فيه حاجة تبان لك تافهة وهي تهمنا جدًّا!».

«حاضر يا ريس زكريا!»

هكذا قال في امتثال، عاد الريس زكريا يقول:

«وإذا حبيت تشرب شاي ولا قهوة، عندك الجرس، دوس على الزر ييجي لك عوض على طول!».

«وإذا السكر خلص؟!»

وانفجر الاثنان ضاحكين... ذلك أن عوض، في مرة من المرات التي جلب فيها الشاي أثناء حكاية جمعة التي طالت لثلاث ساعات، قال للريس زكريا إن السكر الموجود في البوفيه نفد، فنهض الريس زكريا وتحدث في التليفون وحل الأزمة... ولقد دهش جمعة ولم يعلق، وظل الموضوع عالقًا بذهنه حتى إذا قال زكريا ما قال، أطلق القفشة فاقترب كل منهما من الآخر أكثر... قبل أن ينصرف زكريا جاءه بورق وقلم، ثم غادره متمنيًا له التوفيق!

وهكذا جلس جمعة إلى المكتب وراح يكتب، راح يحكي من جديد، عندما احتاج لكوب الشاي طلب شايًا فجاءه مع الشاي صندوق من سجائره المفضلة... نظر الشوان نحو عوض متسائلًا، فابتسم هذا قائلًا:

«الريس زكريا هو اللي بعتها!»

دهش جمعة وتململ، فسأله عوض:

«فيه حاجة يا فندم؟!»

قال جمعة:

«هو اسمه هنا الريس زكريا برضه؟!»

وضحك عوض، كما ضحك جمعة وإن كانت المسألة لم تغب عن ذهنه حتى اليوم، فعبثًا؛ عبثًا حاول طوال السنوات الخمس التي انصرمت أن يعرف الاسم الحقيقي للريس زكريا!!

الفصل السادس عشر

عندما كان جمعة الشوان يغادر جهاز المخابرات المصري كان أمره قد اختلف تمام الاختلاف. كان خفيفًا... كان كمن ألقى عن كاهله بثقل جبل كامل، وكان الريس زكريا يتأبط ذراعه وهما يضحكان لنكتة أطلقها الشوان. بدت الأمور أبسط مما كانت بكثير. وعادت الممرات ممرات والناس ناسًا، وصاح الشوان وهو يمر بالأصلع محييًا فصاح هذا به مرحبًا... كان الريس زكريا قد طوى ما كتبه الشوان ووضعه في جيبه، غير أن شيئًا ما ظل في صدر الشوان يؤرقه ويجعله حائرًا في أمره... ذلك أن الريس زكريا لم يسأله عن النقود التي أخذها من جوجو أو من إبراهام... وهو لم يكن يدري إن كان من حقه أن يحتفظ بهذا المال أم أن عليه أن يرده إلى الوطن... كانت تلك لحظات غريبة اختلط فيها كل شيء بكل شيء، وكان على الشوان الآن أن يودع الرجل كي ينصرف، لكنه ما إن نهض من مقعده حتى هتف الريس زكريا وكأنه تذكر شيئًا:

«آه... بالمناسبة!».

قال الريس زكريا هذا فجمد الشوان في مكانه، سار الرجل إلى ركن الغرفة حيث كانت خزانة بسيطة صغيرة، عالج قفل الخزانة لثوان فانفتح الباب، مد يده إلى الداخل وعندما استدار نحو جمعة كانت يده تحمل

ساعة يد، ما إن رآها جمعة حتى أطلق صيحة هي مزيج من الفرحة والدهشة، قال الريس زكريا:

«أظن أنت لك أمانة عندنا!».

مد جمعة يده كي يأخذ الساعة التي باعها للريس زكريا ذات يوم في مقهى ميدان أمونيا في اليونان، يوم نفدت نقوده، تدافعت الأفكار في رأسه وتضاغطت الانفعالات في صدره واكتشف جمعة أن يده ترتجف بالساعة.

«مالك يا جمعة!»

أراد أن يداري ما به من انفعال فتذكر ثمن الساعة... مد يده إلى جيبه كي يرد للرجل ما أخذه منه، غير أن هذا هتف به:

«إنت بتعمل إيه؟!»

«زي ما رجعت لي أمانتي تاخد أمانتك!»

«أمانتي؟!»

«أيوه يا ريس زكريا... تمن الساعة!».

«آه......»

قال زكريا هذا وهو يحك ذقنه باسمًا... كان جمعة مدربًا على حسبة تحويل النقود منذ نعومة أظفاره، غمغم وهو يعد الأوراق المالية التي أخرجها من جيبه:

«تحبهم مصري ولا عملة صعبة يا ريس زكريا!»

«هم إيه دول؟!»

«تاني يا ريس زكريا. ثمن الساعة!».

«أنا ممكن آخده لو كنت أنا اللي دفعت الفلوس!»

نظر إليه جمعة دهشًا، سأل:

«أمال مين اللي دفعهم يا ريس زكريا؟!»

«مصر يا جمعة!»

ران الصمت بينهما وطال. أحس جمعة أنه يرتج حتى الأعماق، أحس وكأن زلزالًا يهزه بلا رحمة، أحس وكأن الدنيا قد أضيئت بآلاف، بل ملايين المصابيح، أحس بقلبه ينبض بحب هذا البلد كما لم ينبض من قبل... من خلال طبقة دمع غطت عينيه راح ينظر إلى وجه الريس زكريا، كان الوجه يتموج مع الدمع ويترقرق باسمًا... أحس جمعة في تلك اللحظة – ولأول مرة منذ أن ولد – أنه ليس وحده... ولم ينتبه بعد ذلك إلا والريس زكريا يربت على كتفه، وهو، جمعة الشوان، يمسح الدمع الذي أغرق وجهه!!

....

....

«فاضل حاجة يا بيه!»

«اسمي الريس زكريا يا شوان!».

ابتسم جمعة وكانت نفسه قد هدأت، وكان أيضًا قد وضع الساعة في معصمه.

«الفلوس!»

«فلوس إيه؟!»

«الفلوس اللي أنا أخدتها من جوجو ومن إبراهام؟!»

«مالها؟!»

«كنت يعني عاوز أسأل إذا...... ... »

وتوقف الشوان عن الحديث، لم يكن يدري ماذا يقول، أحس بالحرج لكن ابتسامة الريس زكريا طمأنته، مد الرجل يده نحو جمعة فصافحه هذا في حرارة.

«ما تقلقش يا جمعة... بس أهم حاجة إنك ما تجيبش سيرة لمخلوق!».

«ولو حبيت أشوف سيادتك؟!»

«أنا لما أعوزك حابقى اتصل بيك!»

في عناد سأل جمعة:

«ولما أعوزك أنا؟!»

ابتسم الريس زكريا مودعًا وهو يقول:

«برضه أنا اللي حاتصل بيك!!»

وعندما كان جمعة الشوان يركب التاكسي في طريق عودته إلى البيت، انتبه فجأة إلى شيء غريب. انتبه إلى أنه عندما دخل إلى هذا

المبنى كان يشعر بالوحدة القارسة... غير أنه الآن أصبح موقنًا أن له ظهرًا. أنه أصبح ينتمي إلى أمة!!

■ ■ ■

ولقد مضت بعد هذا اليوم أشهر طويلة، أربعة أشهر كاملة... كان الشوان يحيا فيها حياة طبيعية تمامًا، كان يلتقي بالصحاب ويعقد الصفقات ويقلب لقمة عيشه من هنا وهناك، ومع هذا وذاك، كان الآن قد امتلك «خميرة» لا بأس بها، فراح يحاول وسط غابة المال التي كانت تحيط به من معلمين وتجار، أن يبني لنفسه كوخًا يجعل منه نقطة انطلاق... وإذا كانت لعبة «البمبوطية» هي لعبة كل تجارة... فلقد كان الشوان يفهم في كل تجارة، في السيارات، في البويات، في الكاوتش، في الأراضي، في البيوت، كان كعادته قد عاد ابن بلد فهلوي يحلب الهواء لبنا صافيًا... حتى جاء عليه وقت نسي الأمر كله، نسيه أو تناساه لا يدري، غير أنه ذات يوم وجد الريس زكريا أمامه، بلحمه وشحمه وكان قد مضى أربعة أشهر فتذكره وكأنها أربع ساعات لم تمض منذ أن تركه في هذا المبنى الغامض في كوبري القبة.

ولولا لقاء الريس زكريا هذا. لما كان هو الآن يقف وقفته تلك... خلف نافذة زجاجية تطل على شارع من أشهر شوارع تل أبيب، هو شارع ديزنجوف... ولم يكن الشارع غريبًا عليه، كان قد خبره من قبل وعرف ما فيه... وهو يقع في قلب تل أبيب... حيث تنتشر المحلات والبنوك وتروج حركة البيع والشراء، وتكثر فيه اللغات والجنسيات والألوان وتتعرى فيه الصدور والظهور وتظل الأضواء حتى مطلع الفجر.

....

....

عندما انحرفت السيارة إلى شارع ديزنجوف تعرف عليه جمعة الشوان على الفور لكنه لم ينطق. توقفت السيارة أمام عمارة من عماراته الفخمة فهبط منها مع المتدين والمغربي والصامت، صعد الجميع في المصعد حتى الدور الثالث... كان الشوان الآن قد تعلم كيف تلتقط عيناه كل ما يدور حوله دون أن يلتفت أو يبدر منه ما يوحي بذلك... كان الإسرائيليون قد دربوه على الملاحظة وعلى ألا تفلت عيناه شيئًا، وكان المصريون قد استفادوا من ملكاته تلك حتى آخر قطرة... أمام إحدى الشقق وقف المتدين ودق الجرس... فتحت الباب غادة هي ذروة في الجمال ترتدي ملابس نقيب في جيش الدفاع الإسرائيلي. دخل الشوان والنقيبة ترحب به باسمة:

«أهلًا وسهلًا... نورت بيتك... نورت إسرائيل!!»

مال الشوان على المتدين وهو يرمق الجورب القصير إلى ما فوق الركبة وهمس:

«دانتو كفاية تودوا للمصريين جيش من دا علشان يسلموا!!»

اهتز جسد المتدين بالضحك فراح الشوان يلتهم ساقي الضابطة في نهم. صافحه المتدين قائلًا إن مستر داني رئيس الجهاز يود أن يزوره. قال الشوان: أهلًا وسهلًا، وقال: مع السلامة... ودعهم عند الباب واستدار نحو الضابطة ذات الجسد الصاروخي، ابتسمت له فابتسم لها وقال:

«الحمام جاهز؟»

كان يشعر بدبيب الموت يسري في عروقه منذ الصباح، غير أنه يشعر الآن بدبيب الحياة يتفجر فيها، بدت في عيني النقيبة نظرة دهشة فصاح:

«لازم آخد دش وأحلق دقني قبل ما يوصل مستر داني!»

ما إن قال ما قال حتى أسرعت الفتاة تعد الحمام، وراح الشوان - كعادته يعاين الشقة الفاخرة بعينيه... لم تكن شقة تلك التي دخلها، كانت آية من آيات الفن العصري، كان كل شيء فيها يتحرك بالأزرار... تقدم من الثلاجة وفتحها وكانت زاخرة بكل أنواع المشروبات والمأكولات، سار نحو البار ووجد أصناف الخمور لا يحصيها عد... اتجه نحو غرفة النوم وكانت الضابطة في الطريق إليه:

«الحمام جاهز!!»

قرصها في وجنتها وضحك هامسًا:

«آخد دش وأطلع أحاربك!!»

ضحكت وضحك، لكنه تحت الدش عاد يتذكر ما حدث.

■ ■ ■

كيف وجد الريس زكريا أمامه بعد مرور أربعة أشهر وكيف التقى به وكيف تصافحا وكيف دخل سيارة فولكس واجن وكيف وجد نفسه بحذاء النيل تتهادى به السيارة... هذا ما لا يعرفه...

في البداية كان الشوان يصاب أحيانًا بالدوار، كان يجد نفسه في الصباح في بيته وفي المساء دون ترتيب في أقصى الشمال الأوروبي

أو أقصى الجنوب المصري... كان الريس زكريا يتبادل معه الأحاديث في كل شيء. في التجارة في الصفقات، وفيما فعله طوال الشهور التي مضت، ولا يدري لم داخله إحساس غريب وغامض بأن الريس زكريا كان يعلم عنه كل شيء، لكنه لم يكن لديه ما يخفيه على كل حال فراح يتحدث ويقول ويحكي... كانت «البلية» قد لعبت معه أخيرًا. وكان يرغب في أن «يقب على وش الدنيا» بشراء سيارة، فوقع اختياره على نوع معين لكن الريس زكريا نصحه أن يصرف النظر عن هذا النوع، وأن يشتري ماركة أخرى، واكتشف الشوان بعد أيام أن سعر هذا النوع قد هبط في السوق فجأة... في طريق المعادي توقفت السيارة بجوار أحد باعة المثلجات، استدار نحوه الريس زكريا قائلًا:

«ما نفسكش تسافر بره؟!»

اعتدل الشوان في جلسته وخفق قلبه ولم يرد. جاء البائع بزجاجتين راحا يرشفان منهما وقد ران الصمت بينهما، مضت دقيقتان أو ثلاث، غمغم بعدها الريس زكريا قائلًا:

«طبعًا أنا عارف إن الحكاية مش سهلة!»

تلاقت نظراتهما. فأردف زكريا:

«إنما أنا عارف كمان إنك قدها وقدود!»

هتف جمعة وقد استعاد نفسه:

«طب والحاجات اللي هم طالبينها مني؟!»

«ما تنعاش همها!!»

«والـ...... ... »

«انسى!!»

«وإذا...... ... »

«كل شيء مقدور عليه!»

«طب وإذا...... »

قاطعه زكريا:

«فاكر العناوين اللي ادهالك إبراهام؟!».

«أكيد فاكرها بس بصراحة يا ريس زكريا... ...... »

عاد زكريا يقاطعه:

«العنوان بتاع لندن باسم واحد اسمه محمد سليم، مش كده؟!»

اعتصر الشوان ذهنه مغمغمًا:

«أظن كده!»

«آه ده عيب يا جمعة!»

نظر إليه جمعة في دهشة، كان يشعر في تلك اللحظات بالذات، أنه يخطو داخل نفق مظلم، هم بالحديث وقد داهمه الخوف، لكن زكريا استطرد:

«مش لازم تنسى حاجة أبدًا!»

كان هذا هو الدرس الأول، هتف:

«غصب عني!»

«غلط!»

«طب إزاي؟!»

«كل شيء بالتدريب يبقى ممكن!!»

صمت جمعة قليلًا، لكنه لم يجد بدًّا من الاستسلام:

«سيادتك عاوزني أعمل إيه؟!»

«اللي هم قالوا لك عليه!»

«هم قالوا لي لما تبقى جاهز اكتب لنا!»

«خلاص... اكتب لهم!»

«اكتب أقول إيه؟!»

«اكتب قول لهم يبعتوا لك تذكرة على إيطاليا لأنك مفلس ومحتاج فلوس!!».

ولقد كتب جمعة الشوان هذا الخطاب، كتبه واشترى طابع بريد وألقى بالخطاب في الصندوق وبدأ يحكي للناس، لأهله وأصدقائه، وحتى مصطفى أخيه، عن شركة السياحة التي سوف ينشئها، عن السياح الذين سوف يتوافدون على القاهرة... وطوال أسبوعين كان جمعة قد تحول إلى آلة لا تكف عن الحركة، كان يخرج في الصباح على باب الله فإذا ما عاد آخر اليوم بدا مهدود الحيل مكدودًا... قال بعض أبناء السويس الذين التقوا بمصطفى أو التقوا بأحد ممن يعرفون جمعة، إنهم سمعوا أنه زار السويس عدة مرات، وأنه دخل إلى الميناء، وأنه تفاوض على شراء لنش بسعر مناسب، وقال آخرون إنهم رأوه وهو يسير بحذاء القناة

عند مصبها في الخليج، وقال آخرون إنه كان يرتاد المقاهي ويجلس إلى الناس ويتحدث إلى المعارف عن شركته الجديدة...

نعم... في تلك الأيام قيل كلام كثير عن جمعة الشوان، أما جمعة فلم يقل شيئًا، لا لفاطمة، ولا لأمه، ولا لمصطفى... كل ما قاله أنه يتفاوض مع مندوبين لشركات سياحة أوربية لاستجلاب الأفواج الراغبة في زيارة الآثار المصرية في الجيزة وفي الصعيد حيث لا حرب هناك...

وكان من الممكن أن يصدق الجميع هذا غير أن أحدًا لم ير أيًا من هؤلاء المندوبين، خاصة، عندما قال بعض الذين كانوا يزورون السويس بانتظام بين الحين والحين، إن الشوان يعقد صفقات مريبة... وإنه من أجل هذه الصفقات، كان يريد شراء ذلك اللنش الذي تحدث مع الكثيرين من أبناء المدينة عنه!

قالوا هذا، ثم قالوا: وإلا، فما الداعي لأن يشتري لنشًا في ميناء توقفت فيه حركة الملاحة منذ حوالي عامين... ولا أحد يعلم سوى الله متى تعود الحياة إلى الميناء من جديد؟!!

غير أن كل هذه الأقاويل قد ارتدت إلى حناجر مطلقيها يوم وصل إلى الشوان خطاب من إيطاليا... كان هذا بعد أسبوعين من إرساله الخطاب الغامض إلى من يدعى محمد سليم في لندن، وكان في الخطاب تذكرة سفر من الإسكندرية إلى جنوا على ظهر الباخرة أسبيريا، قال الشوان: إن شركة السياحة التي يتفاوض معها قد أرسلت له التذكرة التي كانت تحوي أيضًا ثلاثين دولارًا كان من حقه أن يقبضها من مكتب الشركة في القاهرة.

....

....

كانا الآن يجلسان في هذا الركن الذي اختاره الريس زكريا، وكان الحديث بينهما يدور عادة في بساطة ووضوح ودون همس... ولقد تساءل جمعة الشوان ذات مرة: ماذا لو سمع حديثهما واحد من الذين يترددون على المكان؟... وابتسم الريس زكريا قائلًا:

«مش حايفهموا حاجة!!».

وقد تعلم الشوان في تلك الأيام القليلة كثيرًا. تعلم كيف يستمع وكيف يتسمع وكيف يحفظ، وتعلم أيضًا كيف يتجنب الخطأ... يومًا بعد يوم كان موعد السفر يقترب. كان الشوان الآن يعرف أنه ذاهب ليلتقي بضابط مخابرات إسرائيلي، لم يعد في الأمر شك، بل كان يقينًا، كان الريس زكريا قد أمده من الذاكرة بأسماء كل السفن الغارقة في ميناء السويس، وفي مدخل القناة الجنوبي. في لحظة فغر الشوان فمه دهشة وتوقف الريس زكريا متسائلًا:

«مالك يا شوان؟».

«أنت عاوزني أقولهم الكلام ده؟»

«ليه لأ؟».

كان الريس زكريا قد ذكر له اسم سفينة غارقة في مكان بعينه، وكان الشوان يعرف هذا يقينًا... كانت رحلاته المتعددة إلى السويس وأسئلته ولقاؤه بالناس قد أمدته بمعلومات لم تكن تخطر بباله... طلب منه

الريس زكريا أن يفعل ما طلبه الإسرائيليون منه بالضبط، وكان يحثه على السؤال، لذلك، فلقد هتف جمعة:

«بس المركب دي موجودة في المكان ده بالضبط يا ريس زكريا!».

نظر إليه زكريا في صمت وكأنه يختبر مقدار ذكائه:

«صدقني... أنا متأكد من اللي باقوله لك دلوقت!».

«وأنا كمان متأكد!».

هم الشوان بالسؤال لكن نظرة من عيني الرجل ألجمته فوقفت الكلمات في حلقه، عاد الريس زكريا يطلب منه أن يعيد ما أملاه عليه فأعاده، طلب منه أن يلتقي به قبل السفر فبدت في عيني الشوان نظرة مترددة.

«مالك يا جمعة!».

«بصراحة أنا خايف!».

«لازم تخاف!»

«طب وبعدين يا ريس زكريا؟!».

«إذا ما خفتش، مش حاتنجح!».

لاذ الشوان بالصمت وقد هربت نظراته إلى بعيد، مضت ثوان و عندما انتبه كان الريس زكريا ينظر إليه مبتسمًا:

«بتضحك ليه يا ريس زكريا؟!».

«لأني عارف انت بتفكر إزاي!»

هب جمعة واقفًا وهو يهتف مفرغًا بين يدي الرجل كل قلقه:

«ما هو أنا لو قلت لهم على مكان المركب واسمها و حمولتها وكل المعلومات اللي أنا جبتها من الكنال دي... أبقى جاسوس بحق وحقيق!».

هم الريس زكريا بالحديث: لكن جمعة أردف:

«هي كده يا ريس زكريا ولا لهاش اسم تاني!».

في صوت جامد كالصخر، قال زكريا:

«اقعد يا جمعة!»

وجلس جمعة!

مضت ثوان قبل أن يقول زكريا:

«أنا المرة دي حافهمك لأني عارف إنك تعبان... إنما بعد كده...... ...».

كانت نبرات الرجل تحمل تحذيرًا لا شك فيه فقال جمعة:

«أنا عاوز أفهم يا ريس زكريا، عاوز أتعلم علشان ما أغلطش!».

أشعل الريس زكريا سيجارة، ونهض يسير في الغرفة سائلًا:

«المركب دي جنسيتها إيه؟!»

«هولندي!»

«يعني الشركة اللي بتملكها هولندية؟!»

«طبعًا!»

«وضروري تعرف عنها كل حاجة!»

«أكيد!»

«حمولتها، طولها، عرضها... وكل المعلومات اللي انت جبتها دي!».

كان جمعة ينظر إلى الريس زكريا وذهنه يضيء بآلاف الأفكار التي كانت قد خفيت عليه:

«ما ترد يا جمعة!»

«مضبوط يا ريس زكريا!»

«تفتكر إسرائيل ما تقدرش تعرف كل حاجة عن المركب من هولندا!»

الآن، في تلك اللحظة، أحس جمعة الشوان أن ملايين المصابيح تضيء في ذهنه... وجد نفسه يصيح وهو ينهض إلى الريس زكريا:

«واليهود في نفس الوقت موجودين على الضفة الشرقية للكنال، يعني عارفين مكان المركب كمان!»

ابتسم زكريا وهو ينظر إلى جمعة في تشجيع، فإذا بجمعة يسأل:

«إذا كانوا عارفين، ليه خلوني أروح وأسافر وأتعب وأسأل وأجمع معلومات و... »

اتسعت ابتسامة زكريا وهو يقول:

«آهو ده اللي لازم تتعلمه بنفسك يأبو خميس!»

ولقد تعلم جمعة الكثير... علمته الأيام، كما علمته التجربة، كما علمه المصريون والإسرائيليون على حد سواء... وعندما نظر الريس زكريا في ساعة يده أدرك جمعة أن وقت الرحيل قد حان... كان عليه أن يسافر إلى الإسكندرية بعد يومين، وأن يستقل سفينة الركاب الإيطالية «أسبيريا»... وأن يلتقي بمن لا يعرفونه من الأعداء عند وصوله إلى نابولي...

نظر إلى الريس زكريا وكان هذا في انتظار سؤاله، تردد جمعة في السؤال فأجاب الريس زكريا:

«لما تحتاجني حاتلقاني جنبك!».

أشار الشوان بيده إلى بعيد، دار حول نفسه شأنه كلما ألمت به الحيرة. عاد الريس زكريا إلى الحديث:

«حتى ولو كنت في آخر بلاد الدنيا، لما تحتاجني حاتلاقيني جنبك!!»

قبل أن يغادر الشوان السيارة سأله الرجل:

«شنطتك جاهزة؟!»

هز الشوان رأسه إيجابًا، ومد الريس زكريا يده مصافحًا:

«في رعاية الله يا شوان!»

■ ■ ■

ولقد ظل في رعاية الله طوال خمس سنوات... وها هو الآن في قلب تل أبيب... يجفف جسده العاري بعد حمام لا يدري إن كان حمامه

الأخير أم لا... كانت النقيبة في انتظاره حتى غير ملابسه، لكنه لم يعرها اهتمامًا فلقد تداعت ذكرياته فأنهكته... انتهى من ارتداء ملابسه وتدثر بيلوفر صوف سميك وجلس في الأنتريه ومدد ساقيه فجلست قبالته:

«مرهق؟».

«جدًّا!!»

«تاكل؟!»

«بشرط... !»

«إيه هو!»

«تاكلي معايا»

«شبعانه»

«يبقى بلاش!!»

ابتسمت... أطالت النظر إليه... قالت:

«أوكي. تاكل إيه؟»

قال: «كبدة!!».

كان يعلم بالخبرة أنه ها هنا سوف يجد كل ما يطلبه حتى ولو كان لبن العصفور، نهضت الفتاة فراح يتابع ردفيها باهتمام... أحس بطعم المر في حلقه فلقد بعد به العهد عن الحب وبقي القلب مغموسًا في حسرة وكانت رائحة الشواء الآتية من المطبخ كرائحة الموت... عادت الفتاة بوجهها الصغير وجسدها الدقيق وكانت تحمل صينية عليها أطباق رقيقة

وجذابة، جاءت له بكأس من الكونياك ألقى به في جوفه دفعة واحدة... راح يأكل ولم يكن للطعام مذاق، نظر إليها... سألها كيف سيمارسان الحب معًا... ابتسمت، قالت:

«ممنوع!!»

كان يعرف أن التمنع مؤقت، وأنها جاءت خصيصًا من أجل هذا، وأنه إذا لم يطلب فلسوف تطلب هي، عافت نفسه كل شيء حتى الطعام، لكنه سألها عن موعد وصول الرئيس، قالت:

«مستر داني جاي دلوقت، مش حايتأخر كثير!»

«يبقى حاتباتي معايا هنا!!»

ضحكت، فأحس برغبة عارمة في القيء، همست:

«بشرط!»

«إيه هو؟!»

«إنك ما تقولش!»

قبل أن يرد، دق جرس الباب.

....

....

كان القادم هو مستر داني بالفعل... وهو ليس اسمه بالقطع، ولم يكن داني هذا هو «داني» الذي التقى به الشوان من قبل. كان داني آخر، كان نوعية مختلفة من ضباط المخابرات الإسرائيلية، كان... كان رجلًا

جذابًا قوي الشخصية ذا نظرات نفاذة وحديث منطقي وحضور يجبرك على احترامه... غير أن الذي أفزع جمعة الشوان لم يكن حضور داني بهذه السرعة، ولم تكن هي شخصيته، بل هذا الطابور من الرجال حاملي الحقائب الصامتين الذين جاءوا في ركابه... ولقد أيقن الشوان ساعتها، أن المذبحة قد بدأت.

■ ■ ■

كان جمعة الشوان يؤمن إيمانًا جازمًا بأن الله كان يقف دائمًا إلى جواره... ففي مثل تلك اللحظات العصيبة التي وجد نفسه فيها يجلس وسط ما لا يقل عن عشرة من ضباط وخبراء المخابرات الإسرائيلية الذين راحوا يمطرونه بالأسئلة ويفحصون بعيونهم كل حركة من حركاته، في تلك اللحظات التي شعر فيها دون لبس أو لف أو دوران أن كل واحد من الذين أحاطوا به وبمستر داني - الذي علم بعد أن عاد إلى القاهرة أنه رئيس قسم الشرق الأوسط بالمخابرات الإسرائيلية - أن كل واحد من هؤلاء كانت وظيفته عضوًا من أعضائه... في تلك اللحظات التي اجتاحه فيها التوتر اجتياحًا... كان ثمة إغراء غريب في اللجوء إلى الماضي، إلى حيث كانت البداية... وهو - على كل الأحوال - إغراء منطقي، فإذا كانت تلك اللحظة التي شعر فيها - دون مجاز - أنه ممدد فوق مائدة وأن كل واحد من هؤلاء الخبراء كان يحمل سكينًا يذبحه به، هي ذروة الرحلة المرهقة... فإن البداية كانت بالقطع تحمل من الخدع ما لم يجز عليه أبدًا...

لقد طارده الإسرائيليون بالنساء والمال، والأغرب من هذا أن الريس زكريا الذي لم يلتق به سوى مرات عديدة... كان ينبهه إلى هذا ويطلب منه أن يترك نفسه على راحتها وأن يقبل إذا أراد وأن يرفض إذا أراد... وهو بعد خمس سنوات من العمل السري المتصل لم يستطع بعد - رغم كل محاولاته - أن يصل إلى ما كان يهدف إليه الريس زكريا الذكي الوسيم هذا!!!

....

....

في رحلته الأولى إليهم، كان يجلس فوق ظهر الباخرة «أسبيريا» يرقب البحر ويتذكر أيام السفينة «آرتا»، عندما اقتربت منه امرأة قالت إنها يونانية، ثم طلبت منه بصوت هامس أن يسمح لها بالجلوس إلى جواره... اعتدل الشوان في جلسته وهو يرحب بها، عادت تهمس من جديد:

«إن هذا الرجل الإنجليزي الواقف هناك يطاردني!!»

«وما الذي أستطيع أن أفعله؟!»

«لا شيء سوى أن تبقيني إلى جوارك حتى يمضي!!»

تذكر الريس زكريا وهو يستمع إليه عندما كان يقص عليه قصة جوجو... تذكره وهو يقول:

«لا... هم حايلعبوا عليك بأساليب كثيرة يا جمعة... بس المهم أنك تخلي بالك!!».

ولقد «خلى باله» بالطبع وصديقته اليونانية تطلب منه أن يلعب الورق مع شلتها في المساء ولم يكن يملك سوى 11 دولارًا، لكنها كانت بجواره وجعلته يكسب مائة دولار في الليلة الأولى، والآن كان عليه ألا يترك شيئًا للصدفة، كان عليه أن يحذر، وصديقته اليونانية تقص عليه قصة هجرتها من اليونان إلى إيطاليا... قصة زواجها في جنوا، قصة الفندق الذي أصبحت تملكه مع زوجها هناك...

في داخله كان يبتسم... كانت اللعبة تبدأ «على خفيف»، وها هو يكتشف واحدة من عملائهم... لم يبتعد عنها ولم يجب على سؤال واحد وجهته إليه رغم أنها لازمته كظله تمامًا... على السفينة كانت معه في الفراش، وكانت معه في نابولي... طافت به معالم المدينة، قامت بدور الدليل، وعندما كانت السفينة تعود في خط سيرها إلى جنوا في أقصى الشمال الغربي لإيطاليا، كان الشوان يعلم علم اليقين أنهم تسلموه من الإسكندرية!!

في جنوا كان زوجها في انتظارها فوق الرصيف... لم تقدمه له ولم تقدم زوجها إليه وكان وجوده أمرًا طبيعيًّا، الغريب أن زوجها - حتى - لم يسألها عنه ولم يسألها من يكون، كل ما حدث أنه حملهما معه في السيارة إلى البنسيون الذي يملكانه... في البنسيون كان هناك خادم مصري اسمه عبده، فبدد وجود عبده إحساسه بالغربة... راح ينفذ التعليمات بدقة متناهية، فما إن وضع حقيبته في الفندق، حتى غادره كي يرسل برقية إلى لندن!!

في اليوم التالي راح يتجول في شارع الفساد، وفي كل موانئ العالم الكبيرة شارع طويل ضيق مليء بالمحلات والنساء والرجال والبارات و... و... وكل ما يحتاج إليه بحار آت من أي مكان في العالم، كان الوقت ظهرًا عندما التقى الشوان بمجموعة من البحارة المصريين الذين غادروا سفينتهم الراسية في الميناء متسكعين... وهو عندما خرج متسكعًا لم يكن يعرف أنه سوف يصل إلى هذا الشارع، بل إنه – حتى – عندما التقى برفاق البحر المصريين لم يكن يعرف أين موقعه من المدينة... لذلك، فلقد كانت دهشته شديدة عندما سمع من يناديه، التفت، وكان زوج اليونانية يلهث وراءه:

«هناك رجل جاء إلى البنسيون كي يسأل عنك!»

«ما اسمه؟!»

«لم يقل شيئًا سوى أنه سوف ينتظرك في بوفيه المحطة!!»

«وكيف سأعرفه!»

«سيعرفك هو فلا تشغل بالك!!»

نظر إليه الشوان وابتسم... غير أن الرجل كان في عجلة من أمره فراح يقول:

«لا بد أن تذهب له الآن... فورًا».

«سأذهب، لا تخش شيئًا... سوف أذهب!!»

اختفى اليوناني، وكان الشوان يشعر مع القلق بخيبة أمل... تمنى لو أن الأمر كان أكثر تعقيدًا، عندما قبل السير على الحبل المشدود فوق

جحيم وجحيم كان يمني النفس بالكثير من المغامرات ولكن ها هو أمام «فيلم عربي»... فكيف عرف صاحب البنسيون أنه في هذا الشارع ولا بد أنهم يراقبونه، بل يتبعونه أينما ذهب... وكيف عرف أن الرجل سوف يعرفه ولا بد أنه يعمل معهم... استأذن من الرفاق المصريين وعبر الطريق إلى الكورنيش وأشار إلى سيارة أجرة وطلب من السائق أن يقله إلى المحطة.

وقف به التاكسي في قلب جنوا القديمة. حيث الميدان تحيط به مبانٍ عتيقة ذات رائحة خاصة، فيما بعد عرف أن هذا الشارع المنحدر نحو البحر فيه بيت كريستوفر كولمبوس مكتشف أمريكا... كان الجو باردًا فأحكم ياقة المعطف حول عنقه وهو يدلف إلى كافتيريا المحطة، ما إن خطا إلى الداخل خطوات حتى تقدم منه شاب صغير السن رقيق الملامح:

«سنيور جمعة شوان؟!»

«أنا هو!»

«سنيور جاك يبلغك تحياته وأشواقه».

«شكرًا!!»

«هل أدعوك على فنجان من القهوة؟!».

«لا مانع لدي بالقطع!!»

ما إن جلسا إلى مائدة وطلب الشاب القهوة حتى أخرج مظروفًا به مائتا دولار، قدم له المظروف وهو يقول:

«عليك أن تركب القطار في الغد إلى ميلانو».

«أوكي!!»

قدم له الشاب ورقة صغيرة بها بضعة أسطر وهو يقول:

«هذا عنوان فندق هناك. انزل في هذا الفندق ولسوف نتصل بك فيه!!»

«هل هناك حجز باسمي أم باسم جاك؟!»

«الحجز في الفندق باسمك، غير أنه في تمام الثامنة من مساء الغد سيتصل بك شخص أو قد يأتي إليك رسول يبلغك أين يمكنك أن تلتقي بجاك... هذه مائة دولار أخرى ثمنًا لتذكرة القطار وأجر الفندق!!».

في اليوم التالي جمع الشوان ملابسه وأغلق حقيبته ودفع أجرة البنسيون وودع اليونانية وزوجها... ركب القطار من جنوا إلى ميلانو وكان طوال الطريق يجلس وحده صامتًا ويرقب الوجوه من حوله. في ميلانون توجه إلى الفندق وكانت هناك غرفة محجوزة باسمه... في الثامنة تمامًا دق جرس التليفون وكان المتحدث على الطرف الآخر هو جاك:

«جمعة صديقي... لقد افتقدتك كثيرًا؟»

صاح الشوان متصنعًا المرح:

«جاك؟... هل هذا معقول؟»

«كيف حالك؟ وكيف حال العائلة؟!»

«إنهم في انتظار عودتي بالوفير من المال!!»

ضحك جاك ضحكة عالية، قال له إنه سينتظره في اليوم التالي في أحد فنادق ميلانو الفخمة.

كان الشوان في ذلك الوقت ينزل في فندق من فنادق الدرجة الثانية. أما هم فلقد كانوا ينزلون بفنادق كبيرة ذات سمعة عالمية وزحام يتوه فيه عشرات رجال مثل الشوان.

ولقد قضى الشوان ليلة مؤرقة لم ينم فيها إلا لماما، كان قلقًا كتلميذ يستعد لدخول الامتحان، كان لا يزال في أول الطريق الذي بدا له غامضًا ومخيفًا... في صباح اليوم التالي كان في الموعد تمامًا، أمام باب غرفة جاك في الفندق، وعندما فتح هذا باب الغرفة... كانت ذراعاه مفتوحتين وكان الترحيب حارًّا... واللقاء فوق كل ما تصور.

سأله الشوان:

«أين إبراهام؟»

«في مهمة في الولايات المتحدة؟»

«وكيف حاله؟!»

«إنه يبلغك تحياته!»

هكذا قال جاك، وهكذا مضت الدقائق في الترحيب واجتلاب الذكريات... قدم له جاك شوبًا من البيرة وراحا يتجاذبان أطراف الحديث حتى، حتى إذا هدأت الخواطر وانتظمت الأنفاس، سأله جاك»

«ترى... ما أخبار العمل؟!»

وكانت دهشة جاك شديدة وكان ذهوله أشد.

وعلى مدى ساعة ونصف الساعة كان الشوان يدلي بتقرير واف عن عدد كبير من السفن الغارقة في ميناء السويس... كانت التفاصيل دقيقة في نواح وغير دقيقة في نواح أخرى... في تلك الأيام لم يكن الشوان يعلم كيف تتم الطبخة حتى يأكل الإسرائيليون الطعم... قال له الريس زكريا:

«اعمل اللي باقولك عليه حاتحقق نتائج باهرة!!»

بعد أن انتهى جمعة من سرد ما لديه من معلومات، ظل جاك صامتًا لثوان، كان حريصًا على ألا يقاطعه طوال الحديث، كان يرقبه بعين صقر ترقب كل خلجة من خلجات وجهه... فجأة، اعتدل جاك، وانهالت الأسئلة على الشوان كالسياط!

ظل جاك صامتًا لدقائق ثم سأل الشوان فجأة:

«كيف سافرت إلى السويس؟!»

«في سيارة!»

«هل هي سيارة خاصة؟!»

«لا... كانت سيارة أجرة!»

«وهل سمحوا لكم بالدخول؟!»

«كنا نحمل تصاريح دخول إلى السويس بالطبع!!»

«وهل استخرجت تصريح دخول رغم أنك من السويس؟!»

«بالطبع!!»

«من أين؟!»

«من مبنى محافظة السويس!!»

«أين يقع هذا المبنى؟!»

«في حي رابعة العدوية بمدينة نصر!!»

«ماذا قلت في طلب التصريح؟!»

«إني من السويس وأريد أن أنهي بعض الأشياء المتعلقة بي هناك!».

«وعند مدخل السويس... ماذا... »

هب جمعة واقفًا هاتفًا في ضيق:

«لم كل هذه الأسئلة؟»

«أليس من حقي الاطمئنان على سير العمل؟!»

«اسمع يا جاك... لقد طلبت مني أن آتيك ببعض المعلومات عن السفن. وقد جئت لك بالمعلومات التي كلفتني الكثير من الجهد والتعب والمال... وأنا الآن، وقبل كل شيء، أريد حقي!!»

«لم تتعجل الأمور يا صديقي؟!»

«ما الذي تريده أكثر مما أعطيت؟!»

«أثناء عودتك من السويس إلى القاهرة، ألم تلاحظ أن هناك قاعدة صواريخ في المنطقة ما بين... »

«حيلك حيلك... »

قالها الشوان مقاطعًا بالعربية فتوقف جاك باسمًا:

«ماذا هناك؟!»

«كانت المعلومات المطلوبة لشراء السفن عن السفن. ما دخل الصواريخ وقواعد الصواريخ الآن؟!»

«أنت تعلم أن لنا مكاتب في جميع أنحاء العالم»

«سمعت هذا من قبل مرات ومرات!!»

«نحن نجمع معلومات عن الدول التي في حالة حرب!!»

«هذه أول مرة أسمع فيها مثل هذا الكلام!»

«المعلومات عن الصواريخ تهمنا يا صديقي!»

«أتظن أني أبله؟!»

«ماذا تريد أن تقول؟!!»

تذكر الشوان ما قاله له الريس زكريا، تذكر تلك الجلسات التي حملت كل دقيقة فيها مفاجأة لم يكن يتوقعها، تذكر تلك الجملة بالذات التي اضطر أن يحفظها عن ظهر قلب، تذكرها بالحرف، قال:

«أتظن أنه يسعدني، إذا كانت المعلومات المطلوبة عن الجيش والصواريخ، أن أتعامل بها مع شركة؟!»

لزم جاك الصمت لثوان، راح يحملق في جمعة وكأنه فوجئ أو كأنه يستجمع أفكاره، أخيرًا قال:

«جمعة صديقي... لست أعتقد أني فهمتك!»

«لماذا أتعامل مع شركة إذا كانت المعلومات المطلوبة عن التسليح؟!»

«ولم لا؟!»

«لأن التعامل مع دولة... أكثر ربحًا يا صديقي!!»

كان هذا بالضبط ما يريد الريس زكريا أن يوصله إلى الإسرائيليين معه، وكان هذا ما فعله جمعة الشوان، بيسر وسهولة... إنه لم ينكر يومًا أنه يحب المال، بل إنه عندما سمع من الريس زكريا أنه لا بد وأن يتظاهر بحب المال، ضحك قائلًا:

«وأتظاهر ليه؟! هو فيه حد ما يحبش الفلوس؟!».

وضحكا معًا، وعاد إلى ما كانا فيه، وها هو جاك، ضابط المخابرات الإسرائيلي، يبتلع الطعم بسهولة، فما إن قال جمعة ما قال حتى مد يده في جيب سترته كي يخرج بطاقة صغيرة ويقدمها إلى جمعة:

«ما هذا؟!».

هكذا قال جمعة وهو يتناول البطاقة ويقلبها بين يديه:

«هذه بطاقتي؟!».

«وما هذه اللغة المكتوبة؟!».

«إنها العبرية جمعة!».

«وما الذي يعنيه هذا؟!».

«أنا ضابط في المخابرات الإسرائيلية، فهل تتعاون معنا؟!».

صاح الشوان، في أعماقه مصفقًا:

«حلاوتك يا ريس زكريا!!».

الفصل السابع عشر

كانت هذه هي بداية الطريق بينه وبين الريس زكريا... وهو عندما كان يجلس إليه في القاهرة ويستمع إلى حديثه الخافت الصوت كان يعجبه... فكيف يتأتى لهذا الرجل المصري أن يتنبأ بما يمكن أن يفعله رجل إسرائيلي في المستقبل؟! ولقد قال له زكريا إن المسألة ليست شطارة كما يظن، وإن للأمور في هذا العالم الرهيب قواعد تعطي لمن يتبعها حق التفوق والسبق، كان هذا في القاهرة كلامًا، غير أنه الآن أمام التجربة وجهًا لوجه، وها هو جاك يخرج بطاقته ويعترف بأنه ضابط مخابرات إسرائيلي وعليه الآن أن يتبع الطريق المرسوم بدقة، لزم الصمت لثوانٍ وكأنه يفكر في الأمر، استل سيجارة وكان عليه ألا يبدي لهفته، سار حتى النافذة المطلة على الطريق وأزاح الستار قليلًا وألقى ببصره إلى الخارج وهو في حقيقة الأمر كان ينظر إلى داخله أخيرًا، التفت نحو جاك وهو يقول:

«ليس لدي مانع من التعاون معكم ولكن بشرط!!».

سأله جاك وعلى شفتيه ابتسامة انتصار:

«ما هذا الشرط؟!».

«أن أقبض!!».

«هذا أكيد!».

«وأن أعرف كم سأقبض!!».

كانت هذه هي الخطة المرسومة، نظر إليه جاك طويلًا وكان يبتسم، مد يده في جيبه وأخرج رزمة من الدولارات راح يعد منها مبلغًا رأى جمعة أنه لا بأس به، قدم له المال قائلًا:

«هذه دفعة أولى!!».

تناول جمعة النقود لكن النظرة في عينيه كانت لا تزال متسائلة، فأردف جاك قائلًا:

«أما فيما بعد، فلسوف يكون هناك من يقدر خدماتك حق قدرها!».

«وأنا موافق!».

«والآن، اسمح لي أن أزف إليك تهاني البيت!».

«أي بيت هذا؟!».

«إسرائيل.. ولسوف تصبح إسرائيل من الآن هي بيتنا الكبير!!».

ولقد كان الاتفاق في حاجة إلى احتفال.. نسي جاك أسئلته وصحب الشوان إلى حيث أغرقه في الملذات بلا حساب.. قال له وهو يوصله بالسيارة إلى باب الفندق بعد ليلة لا تنسى:

«في الغد سوف نلتقي بمستر داني!!».

«ومن هو داني؟!».

«إنه زميل يتحدث العربية بطلاقة، ولسوف يكون التفاهم معه أيسر!!».

انطلق جاك بسيارته، وتأبط الشوان ذراع غادة كانت قد صحبتهما من الملهى الذي قضيا فيه الليلة.. وكان يريد في تلك اللحظة بالذات أن ينسى كل شيء...

في شقة شارع ديزنجوف في تل أبيب، كان جمعة الشوان يجلس الآن وهو ينظر إلى مستر داني الجديد، وشيء ما في أعماقه يتحرك... ليس داني هذا هو داني الذي التقى به أول مرة مع جاك، إن هذا نوع آخر من الرجال، هو رجل ذو جسد متناسق ووجه وقور وعينين تثقبان الرأس.. رجل هو عدوك لكنك لا تستطيع إلا احترامه. بسيط له ابتسامة ساحرة وصوت ذو رنين عميق:

«أهلًا».

تصبب الشوان عرقًا، كان الجميع قد جلسوا محيطين به، وكانوا صامتين. رد التحية فعاد الرجل يقول:

«كيفك يا شوان؟!».

«الحمد لله!!».

«كيف الست والعائلة؟!».

«نحمدوه!!».

«وكيف الحاجّة؟!».

ذهل الشوان، فقد كان هذا الرجل هو أول من يسأل عن أمه منهم..

«نورت إسرائيل يا جمعة... نورت بيتك وبلدك!!».

هكذا راح مستر داني يجفف عرق الشوان بكلماته، هكذا راح الحديث ينساب بينهما في رفق ورقة، وهكذا كان توتر الشوان يزداد دقيقة بعد أخرى.. كان الآخرون صامتين لا ينطقون، كانوا وكأنهم تحولوا بمقاعدهم وحقائبهم إلى تماثيل، كان الحوار خافتًا هادئًا ينساب دقيقة بعد دقيقة حتى قال مستر داني:

«باكر يا أستاذ جمعة إن شاء الله، نتعشى ونشرب نخب الأخوة والصداقة!!».

إذن فلسوف تكون المذبحة غدًا..

«بس قبل ما نلتقي بيجوا الإخوان هون من شان يدربوك على بعض الأشياء الحديثة!»

لم يستطع الشوان أن يسأل عن أي شيء سيدربونه...

«لأننا المرة هادي بنريد نعطيك جهاز إرسال!!».

«لأ».

لا يعلم إلا الله كيف انفجرت الكلمة في رأس الشوان وصدره ووجدانه جميعًا، لا أحد في هذه الدنيا يستطيع أن يتصور حجم الصخب الذي حدث في داخله.. كان قد جاء إلى إسرائيل هذه المرة من أجل هذا الجهاز بالذات.. كان قد وضع عنقه في كفة وإحضار الجهاز في كفة.. قال كلمة «لأ» منفذًا خطة محكمة حفظ تفاصيلها عن ظهر قلب.. تلك اللحظات لم يتذكر الريس زكريا، فكيف سيصل إليه وهو في قلب

إسرائيل.. الشيء المذهل هو أن الرجل تحدث إليه في أمر الجهاز من أول لقاء ودون تمهيد أو لف أو دوران وليس هذا هو الأسلوب الذي تعوده منهم... جاءت «لأ» التي قالها كطلقة رصاص صنعت دويًّا في وادٍ عميق الصمت، ران الصمت وبقي صدى الرد الحاسم فثقبت نظرات داني رأس الشوان الذي مال إلى الأمام وقد شله الرعب وهو يقول:

«سيادتك عارف الشقة اللي أنا أجرتها في شارع الفلكي دي قد إيه؟!».

«عارف طبعًا!».

«أنا رسمت لكم الخريطة بتاعتها.. دي كلها متر في متر والباب جنب الباب وأي صوت يطلع منها الجيران حيسمعوه مية المية!!».

ابتسم مستر داني وهو يقول:

«الجهاز هادا ما له صوت على الإطلاق!».

«هو مش جهاز لاسلكي؟!».

سؤال ينم عن جهل هو يتقن التظاهر به.

«أي نعم جهاز لاسلكي!».

«طب إزاي جهاز لاسلكي ولا تطلعش منه صفافير زي اللي بنسمعها في السينما والتلفزيون؟».

همَّ الرجل بالرد لكن جمعة عاجله:

«وزي اللي كنت باسمعها في المركب كمان!».

وتبدأ المعركة؛ معركة الجدل الذي تعودوه منه في كل مرة يطلبون منه شيئًا جديدًا، كان مستر داني غير الآخرين، كان هادئًا وواثقًا من نفسه، وكان مناورًا؛ لذلك كان الحوار معه بالغ الصعوبة.. ذات لحظة ضيق فيها الخناق على جمعة صاح هذا:

«طب افرض إنه مالوش صوت. إزاي حاشيله وأخرج بيه من الجمارك وهو أكبر من الشنطة!!».

ابتسم الرجل مرة أخرى وبدأ حديثًا لم يسمع جمعة منه كلمة، كان موقنًا أن حديث الرجل مقنع، كان واثقًا أنه لو استمع فلن يستطيع الرد... ذات لحظة قاطعه ناهضًا:

«أنا تحت أمركم في كل حاجة في اللاسلكي!!».

«كيف الكلام هادا؟!».

«هي كده... ثم إني ما عرفتش لاسلكي!».

«حانعلمك!!».

«مش حاتعلم.. أكتر من الحبر السري أنا آسف واللي أوله شرط آخره نور!!»

«شوف يا جمعة.. انت لا بد تعود إلى القاهرة في خلال أسبوعين.. ما في وقت للتمنع، لازم تتدرب على أشياء كتير قبل ما تسافر!».

«إيه فايدة التدريب إن كنت حاموت؟!».

«ليش تموت؟».

«حايمسكوني!!».

«حانعطيك الجهاز في القاهرة!!».

«حارميه في النيل!!!».

«هذا أمر!».

قالها مستر داني في صوت ثاقب لا يدع مجالًا للشك في نياته. عرف الشوان الآن أنه على شفا هاوية فاندفع بجنون مغامر:

«أنت تقدر تأمرني بأي حاجة إنما اللي يأمرني بالموت ربنا وبس!».

قال الشوان هذا وصمت، وكانت الابتسامة الرقيقة تتربع الآن على وجه مستر داني، فتساءل الشوان بينه وبين نفسه: كم من القسوة تختفي خلف هذه الابتسامة الرقيقة؟!

عندما صافحه مستر داني على موعد في اليوم التالي. أحس الشوان أن شيئًا ما لا بد أن يحدث؛ هكذا علمته الأيام.

■ ■ ■

في تلك الأيام البعيدة كان الشوان يخطو إلى الحلبة بجسد خفيف وعقل مفتوح.. عندما التقى بداني الأول كان كل شيء لا يزال بسيطًا. جلس إليه مع جاك، وكان سؤاله الأول عن الأصدقاء الذين التقى بهم منذ عاد إلى مصر حتى غادرها.. أجاب عن أسئلته وراح يستمع إلى الكلمات فتلتصق في مخيلته لا تبرحها حتى يعود إلى مصر ويقص على الريس زكريا كل شيء.. عن الجيش. كل ما يستطيع أن يصل إليه مهما كان تافهًا أو بسيطًا أو يبدو كأنه بلا قيمة؛ الأسلحة والتموين والإجازات والوحدات والمواقع وأسماء القادة.. كانوا... كانوا

يريدون منه أن ينقل إليهم مصر بكل ما فيها؛ رأي الناس في عبد الناصر، هل ما زالوا على حبهم له أم أن هذا الحب قد فتر وضعف ووهن؟! النكت المتداولة، البضائع المستوردة، جنسيات المعلبات التي تباع في السوق، احتياجات الناس من الأرز والكبريت، وعن الأخشاب والبويات والحدايد، الأسمنت والجير والطوب.. الناقص في السوق والمتوافر، الكباري والطرق الجديدة و... و... و...، وكان الشوان يستمع ودهشته تكبر وتكبر فكيف يتأتى للإنسان أن يلم بكل هذا عن كل هذا.. غير أن الأيام علمته الكثير؛ علمته أن للجاسوس ذاكرة لا بد أن تكون حديدية لا تفقد شيئًا ولا تنسى شيئًا، الشيء الوحيد الذي طلبه داني بإلحاح هو ألا يكتب كلمة لا في مصر ولا في خارج مصر، أن يرى فقط، أن يرصد وأن يستوعب.

«طب إزاي حافتكر الحاجات دي كلها؟!».

«مع الوقت والتدريب حاتفتكر كل شيء بسهولة شديدة!».

«واعمل إيه باللي حاشوفه وأعرفه؟!».

«لما تحس إنك لازم تيجي. بعد خمس شهور أو ستة. حاتيجي وتقول لينا. أمنك عندنا مهم جدًّا. وحياتك مهمة وغالية يا جمعة!!».

في تلك الأيام، رأى جمعة الشوان أول مخبأ سري في حياته، وضعوا له النقود في جيب خفي في حقيبة «هاندباج صغيرة»، سلموه تذاكر السفر وودعوه وعاد إلى مصر.

ما إن وصل الشوان إلى القاهرة حتى اتصل بالريس زكريا..

هذا كل ما يمكن لنا أن نعرفه عن الأشهر الستة التي تلت عودة الشوان من الخارج لأول مرة كجاسوس إسرائيلي متعاون مع مخابرات مصر... ولست أعتقد أنه من الممكن لمن كان مثلي أن يعرف كيف كانت علاقة العمل بين الريس زكريا وجمعة الشوان، ليس في الأمر «ارتكاريا» أمنية أو شيء من هذا القبيل. ذلك أن أسلوب التشغيل بالنسبة لأي جهاز من أجهزة الأمن في أي بلد على وجه الكرة الأرضية.. هو «عرض» هذا الجهاز الذي يحرص عليه حرصه على كيانه كله.. كل ما نستطيع أن نتخيله أو نقوله دون أن نخشى الوقوع في محظور ما: إن جمعة الشوان كان ينقل إلى الريس زكريا كل التفاصيل الهامة والتي تبدو أقل أهمية أو حتى تافهة، غير أنه في تلك الأيام لم يكن يعرف - يقينًا - أنه بدأ يسير على هذا الحبل المشدود فوق بحر من الجحيم وأنه - كعميل مزدوج - أصبح يتعامل مع الخطر ذاته. ولقد مرت ستة أشهر منذ عاد وهو لا يفكر في السفر.. كانت الأشياء تأخذ مجراها دون عناء ودون أن يفكر هو في أسلوب سيرها، وعندما جاءه الريس زكريا ذات يوم مداعبًا:

«إنت مش عاوز تتفسح؟!».

أحس أن عليه أن يجهز حقائبه وأن يسافر إلى الخارج!!

حتى أسلوب تعامله مع الإسرائيليين كان يختلف هو الآخر دون أن يشعر.. كانت المسائل تتعقد مرة بعد مرة. خطوة بعد خطوة. ولقد سافر في المرة الثانية إلى أثينا ونزل في فندق «ديانا» بميناء بيريه، وفي نفس يوم وصوله أرسل البرقية المعتادة: «وصلت إلى اليونان، فندق ديانا، ميناء بيريه. جمعة»... وفي صباح اليوم التالي كان يغادر الفندق عندما

اعترضه شاب أسمر الوجه رمادي الشعر صارم الملامح، نحيف... وكان الشاب يتحدث العربية:

«الأخ جمعة الشوان؟».

«أيوه!».

«أنا إبراهيم.. صديق جاك!!».

«أهلًا وسهلًا».

«أنا حاسلم عليك دلوقت وحاسيبك، لكن إنت خليك ماشي ورايا على طول!».

وتصافحا، وتركه إبراهيم وانطلق مغادرًا الفندق، وراح الشوان يسعى وراءه.. بعد مسيرة دامت لغشر دقائق أوقف إبراهيم سيارة أجرة ودلف إليها وترك الباب مفتوحًا فدلف الشوان وراءه.. في أحد المحلات المطلة على البحر في ميناء بيريه اليوناني. جلسا إلى مائدة.. كان إبراهيم هذا واحدًا من ضباط المخابرات الإسرائيلية القلائل الذين اكتسبوا احترام الشوان.

«لازم تسيب اللوكاندة دي!»

«أروح فين؟!»

«أي لوكاندة في وسط البلد. في أمونيا مثلًا!!».

«وبعدين؟».

«لما تلقى اللوكاندة كلمني في النمرة دي!!».

قبل أن ينتبه الشوان كان إبراهيم يدس في يده ورقة صغيرة وينهض... ثم، ثم يختفي!!

في اليوم التالي وجد الشوان غرفة في أحد فنادق أثينا، هو فندق «ليو» بشارع «قسطنطين»، وما إن استقر به المقام حتى اتصل بإبراهيم تليفونيًّا، ولقد سأله هذا عن رقم الغرفة، ثم طلب منه عدم مغادرتها حتى يواتيه فيها.

في غرفة الشوان بفندق ليو، جلس إبراهيم أمامه وهو يخرج من جيبه نقودًا قدمها إليه قائلًا:

«دول ميت دولار!».

تناول الشوان النقود متسائلًا:

«بتوع إيه دول؟!».

«تقطع تذكرة لروما!».

«يعني أسافر!».

«في أول فرصة.. وأول ما توصل روما تنزل في أوتيل (أريستون) اللي جنب محطة السكة الحديد!».

«وبعدين؟!».

«تنتظر في الأوتيل لحد جاك ما يتصل بيك!».

كانت الأحداث تتلاحق بسرعة غريبة، وكان على الشوان أن يسعى إلى القنصلية الإيطالية في بيريه ليحصل على تأشيرة دخول. ولقد حصل عليها دون عقبات وحجز مكانًا على إحدى الطائرات إلى روما.. وبعد يومين كان يحتل غرفة في فندق «أريستون» المجاور لمحطة السكة الحديدية.. بعد ساعات من وصوله دق جرس التليفون وجاءه صوت جاك من الطرف الآخر:

«هالو جمعة!».

«جاك.. كيف أنت؟!».

«أنا في انتظارك بفندق كونتننتال».

وضع الشوان السماعة وغادر الفندق، وبعد نصف ساعة كان يجلس أمام جاك في غرفة فاخرة بفندق كونتننتال بروما.

«اسمع يا صديقي.. لا بد أن تسافر غدًا إلى باريس!!».

نظر الشوان إلى جاك وكان يشعر وكأنه يعيش في عالم سحري، غير أن جاك لم يعطه الفرصة، أردف وكأن الأمر مفروغ منه:

«ما إن تهبط باريس حتى تتجه فورًا إلى محطة السكة الحديد. وتقطع تذكرة إلى مدينة (ليل)... ففي (ليل) فندق اسمه (منيرفا)، ستجد غرفة في الفندق محجوزة باسمك. عليك أن تأخذ حمامًا ساخنًا وأن تستلقي في انتظار من يتصل بك هناك!!».

أخرج جاك أوراقًا مالية ودسها في يد الشوان فنهض الشوان وغادر الفندق إلى السفارة الفرنسية. كان عليه أن يحصل على تأشيرة دخول وأن يحجز مكانًا على إحدى الطائرات.. وقد أقلعت الطائرة به من روما بعد الظهر فوصل باريس بعد الغروب.. استقل القطار وراح يرقب الريف الفرنسي من وراء النافذة وكان مسحورًا بجمال الطبيعة ونظافتها.. عندما توقف القطار في «ليل» كانت الساعة قد جاوزت الثانية بعد منتصف الليل.. ألقى بنفسه في أول سيارة أجرة صادفته هاتفًا:

«أوتيل منيرفا من فضلك!»

في فندق منيرفا بمدينة ليل كانت هناك غرفة باسم مسيو جمعة الشوان!

وكان أول ما فعله الشوان عندما دخل الغرفة هو الحمام الساخن.. خرج من الحمام واستلقى فوق الفراش فاستغرق في سبات عميق!!

لم يكن الشوان يدري وهو يغط في النوم أنه هنا، في هذه المدينة الفرنسية الصغيرة الساحرة، سوف يكرس كجاسوس.. وسوف يتعلم الكتابة بالحبر السري.. سوف يخطو خطواته الأولى في قناة الجحيم!!

الذي لا شك فيه أن جمعة الشوان في تلك الأيام كان مبهورًا بما يحدث له ومعه، كان مبهورًا بذلك التنقل من دولة إلى دولة، ومن مدينة إلى أخرى، ومن فندق إلى فندق.. كان يكفي أن يطرق باب أية سفارة حتى يحصل على تأشيرة دخول في ساعات، بدت له الدنيا وكأنها تدين له أخيرًا.. وبالرغم من أنه كان مدركًا للطريق الوعر والخطر الذي يخوضه، فإن قلبه كان ممتلئًا بالإحساس بالأمان، وكان... كلما التقى بضابط مخابرات إسرائيلي، استشعر الخطر على مصر وعرف مكامنه... غير... غير أنه الآن، وبعد خمس سنوات مفعمة بالعمل والذكريات، لا يطير من القاهرة إلى أثينا إلى روما إلى باريس ثم بالقطار إلى مدينة ليل في الجنوب الفرنسي؛ إنه يطير إلى قلب إسرائيل، إلى العاصمة، إلى أشهر شارع في العاصمة الإسرائيلية: شارع ديزنجوف!!

■ ■ ■

ولقد انصرف مستر داني بعد أن رفض الشوان استعمال اللاسلكي بإصرار، نهض الرجل مبتسمًا، مد يده نحو جمعة الذي ما إن استجاب مصافحًا حتى احتواه الرجل بين ذراعيه وهو يضمه في قوة قائلًا:

«أي شيء بتريده إحنا تحت أمرك أخ جمعة.. فقط اطلب!!».

«أيوه أنا عاوز حاجة مهمة!!».

«ايش بتريد أخي؟!».

«عاوز أشوفك تاني!!».

كانت مجاملة ذكية من جمعة دون شك، غير أن الرجل كان – بالطبع – أكثر ذكاء، فقد سأله عن السبب فأسقط في يد جمعة، ووقع في الحيرة!

«أصلي حبيتك قوي!».

«هيك يا جمعة؟!».

«أصلك شكل عمي!!».

حتى هذه اللحظة لا يدري الشوان كيف بدرت منه هذه الجملة، لم يكن يعرف ساعتها من هو مستر داني هذا غير أنه لا بد أن يكون شخصية هامة للغاية في «الموساد».. ولقد عرف عندما وصل إلى مصر ووصفه للريس زكريا أنه رئيس قسم الشرق الأوسط بالمخابرات الإسرائيلية، ولقد كان من الممكن أن يكون مستر داني شبيهًا بعمه لولا هذا الاختلاف البين بين بشرتيهما.. بدا الأمر وكأنه شيء من اثنين؛ إما أنه سخرية منه

وإما أنه نوع من البساطة البلهاء، و... و... ولم يفكر الشوان في هذا، ضحك مع الضاحكين، وودع الزائرين، وأغلقت الشقة فأصبح وحيدًا.

وحيدًا؟!

كلمة تبدو له الآن غريبة، ولقد مضى وقت طويل كأنه أزمنة سحيقة منذ استشعر الوحدة لآخر مرة... إنه حتى الآن في نومه وأحلامه، يعلم يقينًا أن هناك من يرقبه، قد يكون مصريًا وقد يكون إسرائيليًا. قد تكون قطعة معدنية في حجم القرش أو كرأس الدبوس، قد تكون في لوحة أو في مائدة أو في الفراش أو معلقة في السقف أو مدسوسة في أباچورة.. دس سيجارة بين شفتيه وهمَّ بإشعالها غير أنه توقف وراح يفحص الولاعة ومن يدريه أن معدن هذه الولاعة ليس حساسًا وأنه ينقل إلى مكان ما نبضات قلبه؟! إنها ولاعته حقًّا.. ولكن... من أين يعرف أنهم لم يبدلوها بولاعة هي صورة طبق الأصل منها وتركوها لديه لتتجسس عليه.

فتح باب الشقة فاستدار نحوه وقد فقدت الحياة كل طعم لها. بدت له النقيبة في زيها العسكري كغانية تخطر إلى ملهى ليلي كي تجتذب السكارى، كانت بسيطة وجميلة وكان الزي الذي ترتديه يضفي عليها نوعًا غريبًا من الجاذبية لا شك في هذا، ألقت إليه بابتسامة، وراحت تعد كل شيء لليلة ليلاء؛ الكئوس والزجاجة وأطباق الفستق والتفاح، لكن شيئًا في هذا العالم لم يعد له في فمه مذاق. قال له مستر داني وهو يومئ نحو الطابور الذي دخل وراءه: إن الإخوان سيدربونه منذ

الصباح؛ فلم جاءوا إليه اليوم ولما جلسوا صامتين! كان قلقه يتبدد لكن خوفه ظل مشتعلًا ومن يدريه أنهم يموهون عليه وهم يعرفون كل شيء، وإشمعنى الريس زكريا يعرف كل حاجة ما هم كمان ممكن يعرفوا إنه ضحك عليهم.. وهكذا يصبح الهدف من كل هذه التمثيلية التي أديرت من حوله أن يعرفوا عنه قبل أن يموت، كل ما يمكن معرفته منه!!

رفعت النقيبة كأسها إليه فتذكر سارة؛ أول إسرائيلية التقى بها في زيارته الأولى لإسرائيل، كان هذا في بئر سبع ولم يكن في تل أبيب، وغير سارة هناك تلك الهندية الرائعة الجمال التي أذاقته الحب ألوانًا وكان همسها بالإنجليزية في أذنه يشعل نار الرغبة في جسده فيتبدد القلق والخوف هباء!! نظرت إليه النقيبة في دهشة - وكان ساهمًا - فأخذ كأسه ودقها بكأسها ثم أفرغها في جوفه دفعة واحدة!!

كان يريد أن ينام؛ كان مجهدًا.. متعبًا... كان ممزقًا؛ تائهًا لكنه يريد أن ينام!!

وكان أيضًا يخاف النوم.. فما الذي يحدث لو أنه نام وانتابته الأحلام فتحدث أثناء نومه؟؟

يمزقه الصراع من جديد فيشرب مزيدًا من الخمر ويأكل مزيدًا من التفاح ويتعاطى مزيدًا من القبلات ولكن هيهات؛ فلا مذاق ولا طعم ولا إحساس.. وعندما دخل مستر داني الشقة لم يقدم له أحدًا من الذين جلسوا سوى ديفيد، وعرف الشوان مباشرة أن هذا هو ضابط الاتصال الذي سوف يرافقه طوال إقامته في إسرائيل!

«هو ديفيد حاييجي إمتى؟!».

«بكِّير.. الساعة تمانية!!».

كانت النقيبة تتحدث العربية بلكنة أجنبية وبلهجة لبنانية، وكانت الخمر تلعب برأسه فقرر أن يلقي بنفسه في الجحيم، ملأت له كأسًا فجرعها.. وصب لنفسه كأسًا أخرى ألقاها في جوفه.. مدت له يدًا رقيقة فاجتذبها إلى صدره كحيوان مهووس، أطبق على شفتيها وكأنه يريد أن يحطم فيها الجمال نفسه، أحاطته بذراعيها وتأوهت ألمًا فزمجر الشوان كحيوان حبيس، وكالأفعى كانت تتلوى بين ذراعيه، وكالسراب انفضت من بين يديه.. اكتشف الشوان أنه يلهث بالرغبة والجنون وكان جسده يتفجر غيظًا، أمسك بالزجاجة وراح يفرغها في فمه عندما كانت هي تسعى إليه عارية وقد سقطت عنها ملابس الضابط.. أكذب هو أم شيء آخر هذا الذي كان في عيني الفتاة؟ قبل أن تمتد إليها يده كانت هي قد أنشبت أظافرها في لحمه، كانت تخلع ملابسه، كانت تمزقها، كانت تمزقه، كانت تلتهمه فراح يلتهمها، وإذا الحقيقة خيال والخيال حقيقة وإذا الكذب حب وإذا العداء احتقار... وإذا... وإذا النور ظلام، وإذا الحركة تهدأ ثم تنساب كحلم، وإذا الوهم يطريه بجناحيه إلى حيث الصمت موتًا!!

....

....

عندما فتح الشوان عينيه في الصباح، كان يرقد عاريًا بجوار النقيبة وكانت هي قد ألقت بذراعها فوق صدره فلم يتحرك.. في رأسه كانت مطارق الصداع تدق عظامه بلا رحمة، وفي عينيه أطياف راحت تتحقق

أشياء تحويها غرفة النوم... وإذا الباب يفتح، وإذا رأس ديفيد يطل عليهما فجمدت الدماء في عروقه.

■ ■ ■

عندما أطلّ ديفيد عليهما من الباب لم يكن خوف الشوان آتيًا من فراغ، وإذا كانوا هم الذين دفعوا إليه بالنساء أشكالًا وألوانًا فهو لا ينسى يوم حكى لإبراهيم قصة اليهودية الأمريكية التي التقى بها في أثينا وقضى معها أيامًا..لا ينسى تلك النظرة الصارمة في عيني ضابط المخابرات الإسرائيلي وهو يأخذ منه صورة تلك المرأة.. يومها.. يومها أيقن أنهم كاذبون، أن إحساسهم بالتفوق والتعالي يسري في دمائهم كالدمار ذاته، ولقد كان الشوان في تلك الأيام يسعى إلى الحلبة مدعمًا بالثقة وعدم المعرفة بالكثير مما يجري معه وحوله.. وفي اليوم التالي لوصوله إلى «ليل» اتصل به جاك، ثم جاء مع داني وصحباه إلى فندق آخر لا يذكر اسمه.. كان الشوان قد لاحظ الآن أنه ينزل في فندق من فنادق الدرجة الثانية لكنه كان يلتقي ضباط المخابرات الإسرائيلية في الفنادق الفاخرة.. في تلك الأيام لم يكن مدربًا، ولم يكن يعرف خطورة ما يفعله، ولقد حذره الريس زكريا عشرات المرات أن يكتب كلمة، كلمة واحدة..كان التحذير هادئًا لكنه كان صارمًا: «اوعى تكتب حاجة أبدًا مهما كان الأمر!».. في فندق «ليل» جلس الشوان مع داني وجاك وراح يسرد عليهما التفاصيل؛ تفاصيل ما جمعه من معلومات، وعندما كان الريس زكريا يلقنه بما يجب أن يقول كان يتساءل: كيف السبيل إلى

حفظ هذا كله أو تذكره.. سيل من المعلومات كان يتدفق من فم الريس زكريا، وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح..

معلومات عن الجيش والوحدات والتسليح والدبابات والتموين والأخشاب.. معلومات، معلومات، معلومات.. وكان الريس زكريا يطلب منه أن يعيد فيعيد.. يغيب عنه ويعود إليه ويطلب منه أن يسرد فيسرد.. وها هو يجلس في مدينة «ليل» الفرنسية أمام ضابطين من ضباط المخابرات الإسرائيلية يسقيهما المعلومات سقيًا.. وعندما انتهى طلبا منه أن يكتب ما قاله لكنه رفض، وبدأ الجدال وبدأ النزال وبدأ الشجار وكان يهتف:

«على رقبتي!».

وإذا ما ألحَّا عليه صاح:

«طيب مانا قلت لكم على كل حاجة بالتفصيل!».

وإذا ما تحججا بأن المعلومات كثيرة سأل:

«إشمعنى أنا حفظتها، ما تحفظوها زيي!».

ويغرق في الأمر، فيتحدى:

«ما تكتبوا إنتم، ليه أنا اللي أكتب!».

أثناء الحوار كان يزداد عنادًا:

«افرض الطوبة جت في المعطوبة وورقة زي دي وقعت في إيد حد من المصريين، إزاي حاتنقذني من حبل المشنقة؟!».

حتى إذا صاح داني ذات لحظة قائلًا:

«دلوقتي إحنا عاوزين ندربك على الكتابة بالحبر السري!».

وهكذا وقعوا في الفخ، هكذا استدرجهم إلى ما يبغيه لا إلى ما يبغونه.. تساءل في دهشة:

«كربون سري ده إيه؟!».

كان يعرف الكربون السري. وكان الريس زكريا قد حدثه عنه وأخبره به وطلب منه إذا ما وصلا إلى هذه النقطة أن يلين عناده؛ أن يتصنع الدهشة؛ أن يسأل ويتساءل ويبهر؛ أن يطلب منهم أن يكتبوا به أمامه... أن...أن...أن... أن...

وفتح جاك حقيبته، وأخرج معدات الكتابة.. وبدأ التدريب!!

وعرف الشوان في تلك الأيام أن الكتابة بالكربون السري شيء غير الكتابة التي يعرفها، وأن التجسس علم ساقوه إليه خطوة بعد خطوة كان الكربون السري خطوة لكي يرسل لهم الخطابات بانتظام من القاهرة، وكان الاستماع إلى تعليماتهم خطوة أخرى تكمل هذه الخطوة، وكان لا بد من التدريب على الاستقبال اللاسلكي وليس الاستقبال صفارات تصدر من مكان ما لتنطلق في أجواء الأرض؛ فالاستقبال يحتاج إلى شفرة، والشفرة تحتاج إلى تدريب، والتدريب يحتاج إلى جهد، والجهد يبذل ليل نهار. ولقد كان يجب أن يعرف أن ما أتى به من معلومات ليس كافيًا، وليس كافيًا أن يراقب ويشاهد ويحفظ أو يكتب.. وإنما لا بد له أن يتعلم كيف يستفز الآخرين ليدلوا إليه بالمعلومات، كيف يسأل سؤالًا عن التموين فيأتيه الجواب عن التسليح، كيف يمهد الأرض أمام عشاق التباهي ليتباهوا بما لديهم من معلومات فيسقطوا في الشرك.

يا ولاد الكلب!!

غير أن الأمر لم يقتصر على هذا، إن للعدو احتياجات وإذا كانت النواحي الاقتصادية هامة فإن للنواحي العسكرية أهمية فائقة.. فكيف تكتب المعلومات العسكرية.. كيف ترسل.. أمَّا ما يريد الإسرائيليون معرفته عن الجيش هذه المرة فقد وقف الشوان أمامه مذهولًا!!

....

....

كانت خمسة عشر يومًا قد انقضت منذ وصل الشوان إلى مدينة «ليل» الفرنسية، خمسة عشر يومًا انقضت كومضة برق.. وعندما كان الشوان عائدًا إلى فندقه، في تلك الليلة، كان ذهنه يعمل بسرعة، فقد انقضت الليلة كلها وداني يلقنه بما يجب أن يرسله من معلومات عن الجيش المصري، كان التلقين حاذقًا غير أن الاحتياجات كانت مذهلة فهل يتذكر كل هذا ليقصه على الريس زكريا عند عودته إلى القاهرة!!

رغم كل شيء فقد خطر له خاطر، ومع الخاطر اتخذ قرارًا!

كان ما طلبوه منه خطيرًا لدرجة أن نسيان شيء فيه يمثل – من وجهة نظره – خطورة على أمن مصر، وإذا كان الريس زكريا قد حذره من كتابة شيء فقد قرر أن يكسر حاجز الأمن وأن يكتب ما طلبوه حتى لا ينسى منه شيئًا.. أغلق الباب بالمفتاح، أخرج القلم وجلس يكتب في ورقة. كتب كل شيء طُلب منه.. ثم طوى الورقة وجعل منها شريطًا دسه في حزام بنطلونه. فتح القماش ثم خاطه من جديد.. في اليوم التالي، كان مدعوًّا إلى سهرة مع داني وجاك، خاف أن يترك البنطلون في

الفندق فمن أين يعلم أنهم لا يفتشون غرفته كلما سنحت لهم الفرصة، ارتدى البنطلون فأحس أن الورقة تتلاعب كالثعبان حول وسطه.. أخذوه إلى أحد الملاهي في ضواحي «ليل» وجلس الثلاثة يحتسون الخمر، جاءتهم ثلاث نساء فقرروا أن يقضوا ليلة شديدة الاحمرار، صعدوا في المحل درجًا أفضى إلى ممر به حجرات. أمام إحدى الغرف وقف داني، دق جرسًا خافتًا وما إن فتح الباب حتى وجد الشوان نفسه في شقة واسعة حشدت فيها كل أنواع اللذة، ثلاث نساء وثلاثة رجال، وإذا بالأنوار تطفأ وإذا بضوء كالفسفور يشع في المكان، وإذا بالأجساد كأشباح وإذا الخيالات سحر لا يقاوم.. كانت هذه هي المرة الأولى التي يشعر فيها بالخوف، فقد قر قرار الجميع على أن يخلعوا ملابسهم.. سقط قلب الشوان في قدميه وأصبح لصوت الورقة حول وسطه صليل السلاسل، تمنَّع الشوان فألحوا عليه، اشتد تمنعه فهاجمته النسوة الثلاث ورحن يتقاذفنه وهن يضحكن.. خلعوا عنه الجاكيت والقميص والفانلة غير أن يديه تشبثتا بالبنطلون واستماتت عليه أصابعه. ألقين به أرضًا وكان يقاوم، كدن يفلحن فدفعهن بعنف ونهض صائحًا إنه لن يفعل ذلك.. أضاء داني النور وفي عينيه نظرة غريبة، تقدم من الشوان وكان الصمت يسود المكان.. مد داني يده حول حزام البنطلون حيث كانت الورقة المكتوبة تمامًا. قال:

«إنت مش عاوز تقلع ليه؟!».

الفصل الثامن عشر

كانت الأسابيع الثلاثة التي قضاها الشوان في مدينة «ليل» أغرب أيام العمر على الإطلاق.. ولقد تعلم الشوان في تلك الأيام الكثير؛ تعلم الكتابة بالحبر السري؛ وتعلم كيفية إظهارها؛ كما تعلم «الاستقبال» اللاسلكي؛ وتعلم الشفرة وحلها... وتعلم... وتعلم... تعلم الكثير وكان أهم ما تعلمه على الإطلاق هو ألا يعصي تعليمات الريس زكريا!!

وعندما أمسك داني بحزام البنطلون ترنح الشوان حقًا وكاد يسقط وانفلتت يد داني من فوق الورقة المميتة ليمسك به:

«مالك يا جمعة؟!».

نظر إليه الشوان نظرة شديدة الغضب، قال:

«أنا راجل شرقي، كل حاجة عندي مهما كانت لها أصولها...».

ولقد فهم داني فاعتذر وضحك جاك وتباسط معه وتهامست النسوة الثلاث وكان الحفل قد انفض قبل أن يبدأ.. قال الشوان:

«أنا عاوز أمشي من هنا...».

وافق داني على الفور وكانت تكفي نظرة منه إلى جاك لينفض كل شيء، وعندما ركب الشوان معهما في سيارة أجرة سأل كالغاضب:

«إحنا رايحين على فين؟!».

قال داني:

«حانشوف مكان نشرب فيه فنجان قهوة!!».

صمت الشوان وكان قلبه يخفق، كان يفكر فيما يمكن أن يحدث لو أن داني ضبط الورقة.. غير أنه صحا من تأملاته على جاك وهو يلتفت نحوه ملاطفًا:

«جمعة.. هل تذكر جوجو؟!».

ابتسم الشوان.. كان يكفي أن تأتي سيرة جوجو لكي يخفق قلبه بالذكريات، وحتى هذه اللحظة ورغم كل الشواهد ورغم تأكيدات الريس زكريا - كان الشوان يتمنى في أعماقه ألا تكون جوجو هي جوجو.. قال الشوان:

«نعم أذكر جوجو!!».

والتفت نحو جاك قائلًا:

«وهل تنسى الأيام الجميلة؟».

هتف داني به:

«تحب أبعت لها تيجيلك هنا؟!».

لحظتها لم يعد هناك شك في أن جوجو كانت تعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية، وقتها سالت الذكريات واختلطت وتبدد الأمل نهائيًا.. لم يرد الشوان على داني وتوقفت السيارة أمام كافتيريا اسمها «لوبك».

كان داني أمامه عندما دلف إلى الكافتيريا التي كانت مزدحمة بالرواد، وكان جاك خلفه، غير أنه ما إن خطا إلى الداخل خطوة حتى دق قلبه بعنف بالغ، دق حتى أوجع ضلوعه، فقد كان أول من وقعت عليه عيناه داخل الكافتيريا هو «الريس زكريا» بلحمه وشحمه.

■ ■ ■

ولقد كان ما حدث في ذلك الصباح في شقة شارع ديزنجوف في تل أبيب غريبًا كل الغرابة.. وعندما أطل ديفيد من باب الغرفة ووجد الشوان راقدًا والنقيبة بجواره، انسحب على الفور دون أن ينطق بكلمة.. لم يشعر الشوان بشيء، لم يشعر بالأسى أو الخوف أو الضيق أو التوتر أو حتى الخجل.. كان كل شيء الآن قد أصبح بلا معنى، ولا طعم.. أكثر ما كان يعنيه الآن هو ذلك الصداع الذي كان يجب أن يختفي بأسرع ما يمكن، وإذا كان هذا هو يومه الثاني في تل أبيب فإنه يعلم، بالتجربة، أن اليوم الثاني هو بداية العمل الشاق، ولقد مضت دقائق قبل أن ينهض من فراشه.. ترك الفتاة نائمة وراح يجوس في الشقة فلم يجد بها أحدًا، أيقن أن ديفيد تسلل مغادرًا الشقة فعاد إلى غرفة النوم وأيقظ الفتاة التي نهضت مسرعة، دخل الحمام وتناول قرصين من الأسبيرين ووضع نفسه تحت الدش، اغتسل وحلق ذقنه وارتدى ملابسه وكانت هي تعد

الإفطار.. راحت تخدمه وكأن شيئًا لم يكن بينهما بالأمس.. في نشاط بالغ كانت تنظف الشقة، وفي بطء شديد كان الصداع يغادره، وعندما كان يتناول فنجان القهوة الفرنسية القوية دق جرس الباب.. فتحت الفتاة وكانت الآن قد ارتدت ملابسها الرسمية.. كان ديفيد هو الطارق، عاد من جديد لكنه تظاهر بأنه لم يأت قبل الآن.. وضع أمام الشوان مجموعة من الجرائد اليومية، راح الشوان يدخن وهو يتصفح الجرائد، دق الجرس ودخل اثنان من حاملي الحقائب، بعد دقائق دخل اثنان آخران ثم ثلاثة، ثم واحد.. وعندما اكتمل العدد 11 شخصًا، كان موعد العمل قد بدأ.

كان الجميع يجلسون الآن في البهو الواسع، ووضعت آلة عرض سينمائي وعلقت على الحائط - في الصدر - شاشة صغيرة، وشرب القهوة من أراد ودخن من أراد، وكانت الفتاة في حالة حركة دائبة، تروح وتجيء وتلبي الطلبات و... و... وحين أزف موعد العمل، أطفئت الأنوار وبدأ عرض فيلم سينمائي عن الأسلحة.. كانت الصورة أمامه، ومن خلفه كان التعليق.. هذه طائرة ميراج، وهذه طائرة ميج و... وساعة بعد ساعة، ولم يعد الآن يعاني من كثرة المعلومات، أصبح ذهنه مدربًا على الاستيعاب وأصبحت عيناه مدربتين على الملاحظة، ساعة بعد ساعة والعمل المتواصل الشاق لا يتوقف.. همس ديفيد في أذنه:

«تحب تتغدَّى إيه؟».

قال: «كباب!!».

وعاد العمل من جديد.. وعندما حان موعد الغداء أعلنت النقيبة أن الطعام جاهز.. وعندما نهض الجميع إلى غرفة المائدة، دق جرس التليفون، وأعلن ديفيد أن مستر داني سيتناول معهم طعام الغداء..

لم يعد الشوان يهتم الآن بما يريده الإسرائيليون.. كان، مع الأيام والزمن، قد أدرك الكثير من الحقائق؛ كان قد أدرك أن هناك حربًا، وكان يعرف لحساب من مِن الطرفين يعمل، وها هو داني يجلس بجواره إلى مائدة الطعام ويقدم له الطعام بيديه شأنه شأن العرب في كرمهم الفطري... بدأت سلسلة المجاملات وكانت المائدة مفعمة بالطعام الشرقي.. سأله داني إن كان قد استفاد جديدًا من عمل اليوم فقال الشوان:

«كل اللي شفته النهاردة كان جديدًا؟»

«علشان كدة إحنا عاوزينك تشتغل بأساليب جديدة يا جمعة!!».

«وأنا تحت أمركم!».

«أنا كنت متأكد إنك حاتستجيب!!».

«لإيه؟!».

«الجهاز!».

«لأ!».

جاءت الكلمة حاسمة، ساد الصمت فقطعه الشوان قائلًا:

«ما تزعلش مني أنا أصلي خايف على رقبتي!!».

«ده جهاز في حجم علبة سجاير...».

«ولو».

«طب إنت خايف من إيه؟».

«خايف المصريين يظبطوني، انتوا مش عارفين إيه اللي بيحصل في مطار القاهرة، دول بيكشفوا الناس بشكل فظيع!!».

أمسك داني بكوب الماء أمامه ورفعه في وجه الشوان متسائلًا:

«وإذا خبيت لك الجهاز في كباية زي دي؟!».

«آخده!!».

جاءت كلمته وسط الصمت ذات وقع غريب، فقد قالها جمعة وكأنها أفلتت من لسانه دون قصد منه.. توقفت يدا داني عن تناول الطعام وتوقفت أسنانه عن المضغ والتقت عينا الشوان بعينين رماديتين ذواتي نظرات غريبة فتوقفت اللقمة في حلقه!

شيء غريب هذا الذي حدث في تلك اللحظة...

فقد كان صاحب العينين الرماديتين موجودًا منذ الصباح، وكان واحدًا من الذين جاءوا مع مستر داني بالأمس، لكنه، أبدًا، لم ينتبه إلى وجوده إلَّا في تلك اللحظة الغريبة، فكيف، رغم التدريب ورغم التجربة ورغم قرون الاستشعار المدربة، لم يلحظ وجوده.. كان رجلًا غريبًا له عينان رماديتان، وحاجبان كثيفان رماديان، كما كان شعره رماديًّا، حتى بشرته كانت رمادية.. وكان طبيعيًّا أن تكون ملابس الرجل هي الأخرى رمادية.. كان هذا الرجل مثل الدب أو الفهد مع الفارق الرهيب بين هذا وذاك، كان من هذا النوع من الناس الذي ما إن تره حتى تخشى بأسه..

لكنه في هذا اليوم بالذات، ورغم أنه رآه فهو لم يره. كانت قدرة الرجل على الاختفاء رغم وجوده فوق حدود قدرته على المراقبة.. عندما انتبه الشوان لوجوده كانت العينان الرماديتان ترسلان شعاعًا سريعًا من تحت حاجبين شديدي الكثافة.. وضع مستر داني الكوب فوق المائدة فالتفت إليه الشوان وهو يشعر وكأن مغناطيسًا يجذبه نحو الرجل الرمادي، أيقن أن في الأمر شيئًا فبرزت مخالبه.. سأله مستر داني: لم وافق على أخذ الجهاز؟ فقال الشوان:

«إنت مش بتقول لي إنك حاتخبيه في كباية؟!».

«إشمعنى الفلوس بتاخدها في وسائل إخفاء يا شوان؟!».

«الفلوس لو انظبطت ممكن يقولوا إني مهرب، حرامي، ودي بسيطة مفيهاش مشنقة!!».

«طيب شايف المقلمة بتاعة المكتب دي؟!».

«مالها ؟».

«حانحط لك الجهاز فيها!!».

«يفتح الله.. كذا مرة يظبطوا في مصر كلام زي ده...».

«عرفت منين؟».

«قريت في الجرايد!».

«الجرايد المصرية كدابة!!».

«ليكن.. لكن أنا حابقى قلقان!!».

عاد الشوان إلى الرفض من جديد وبإصرار، جاءت عليه لحظات لم يكن يدري ما الذي يريده بالضبط، كان يتساءل بينه وبين نفسه عن سر هذا الإصرار الرهيب على الرفض وهو الذي قطع هذه الرحلة من أجل الجهاز.. هل تختلط الأمور في ذهنه مرة أخرى أم سيصفو ذهنه ويدخل حلبة الملاكمة ويخرج منها فائزًا؟! توتر الموقف وانتهى الغداء وغادره مستر داني وتلفت الشوان حوله فلم يجد الرجل الرمادي.. أين ذهب؟ وكيف اختفى؟ ومن هذا الرجل الذي ظهر إلى وعيه فجأة واختفى من وعيه دون إرادة منه؟ حلم هذا أم حقيقة لا سبيل إلى انتظارها؟ بدأ العمل من جديد وكان هذه المرة التدريب على قراءة الميكروفيلم.. كان يعمل ويعمل فإذا ما قالوا له إنه أصبح مدربًا قال: لا .

«إزاي بتقول لأ... إنت بقيت كويس...».

«لازم أعيد وأزيد، أنا في مصر بابقى لوحدي...».

كان يريد أن يحفظ كافة التفاصيل، كل شيء، كل شيء من أجل مصر.. ولقد مضى مستر داني هذه المرة دون أن يحتضنه ودون أن يقبله فماذا لو أنهم نزلوا على إصراره ولم يأخذ معه الجهاز أو «البطة» التي ينتظرها الريس زكريا بشوق عارم؟!

بعد الغروب بساعة كان رأسه قد انتفخ بما فيه من معلومات.

«تحب تروح فين؟!».

«كل حتة.. عاوز أروح حيفا ويافا والقدس!!».

«خلي ده بعدين.. تحب تتعشى إيه النهاردة!».

«سمك...».

أخذه ديفيد إلى أحد محلات السمك على كورنيش تل أبيب، راح ينظر إلى البحر ويتذكر الإسكندرية والسويس، ويتساءل في عذاب: هل قدر له أن يعود ويرى مصر مرة أخرى أم أن القدر يخبئ له ما لا يعرف؟!

بعد العشاء حاول ديفيد أن يكمل معه السهرة لكنه رفض. عاد إلى شقة شارع ديزنجوف ولم تكن النقيبة هناك.. أكثر ما كان يعذبه ويخيفه أن ينام؛ أن يحلم أثناء نومه.. كان منهكًا وكان جسده متعبًا وفي أشد الحاجة إلى النوم، لكن المخاوف عاودته فجلس في البهو، وكان يعلم أنه من العبث أن يبحث في الشقة عن عين تلفزيونية أو جهاز إرسال في حجم القرش... ما الذي يحدث لو أنه نام فحلم فتحدث وقال ما لا يجب أن يسمعوه؟!

كاد رأسه يتفجر وعاوده الصداع من جديد وداعب النوم جفونه بعنف.. قاوم وقاوم وخلع ملابسه ودخل تحت الدش وخرج من الحمام عاريًا.....جلس في البهو وأشعل لفافة تبغ وراح ذهنه يرتب أفكاره، تسلل الهدوء إلى نفسه.. عندما دق جرس الباب انتفض، عاد الدق من جديد فنهض إلى الباب متسللًا وخطا دون صوت ونظر من العين السحرية وكان الظلام في الخارج سائدًا فلم ير شيئًا!!

«مين؟».

ولا جواب.. ويعود الدق من جديد!!

«مين؟»

ولا جواب.. ويدق الجرس في إلحاح!!

«هالو.. مين.. مين.. مين بيخبط على الباب؟!».

ولا شيء سوى الجرس يدق.. يدق.. يدق!

ولقد كانت لحظة غريبة تلك التي رأى فيها الشوان الريس زكريا في كافتيريا «لوبك» في مدينة «ليل» الفرنسية.. كان الريس زكريا يجلس وسط شِلة من الأصدقاء وكانت الضحكات تتصاعد من المائدة وكأنهم يلهون.. مزيج غريب من الفرح والسعادة والأمل والخوف والقلق والرهبة والتفوق معًا.. ولو أنه كان مدربًا كما هو الآن لاستطاع أن يتبادل الرسائل مع الريس زكريا تحت أعين العالم كله دون أن يشعر بهما أحد.. ولقد انقضت تلك الأسابيع الثلاثة في «ليل» كلمح البصر، وعندما طلب منه جاك أن يتدرب على الاستقبال اللاسلكي وحل الشفرة لم يمانع.. غير أنهما - جاك وداني - الأول عندما طلب منه أن يستقبل الرسائل بالراديو مرتين في الأسبوع رفض!!

«ليه يا جمعة؟!».

سأله داني وقد توتر الموقف:

«طب إزاي أدخل أوضتي في البيت مرتين كل أسبوع، يوم كذا ويوم كذا، والساعة أربعة بالظبط، وأقفل على نفسي الباب بالمفتاح، وأفتح الراديو، وأسمع صفير وأستقبل الرسالة والصفافير شغالة وبعد شوية أخرج من الأوضة وكأن مكانش فيه حاجة؟!».

«ممكن توطي الراديو».

«البيت مليان فيه مراتي وساعات بيبقى فيه ضيوف!».

«يعني إيه؟».

«لازم أأجر شقة طبعًا؟!».

ودائمًا ما كانت أفكار الريس زكريا رائعة، بسيطة إلى حد لا يصدق، مقنعة لدرجة أن أحدًا من ضباط المخابرات الإسرائيلية مهما قاوم في البداية فلا بد له في النهاية من تنفيذها!!

وكانت الشقة الصغيرة مصدرًا جديدًا للمال، فقد أصبح على المخابرات الإسرائيلية أن تدفع إيجارها وتكاليف صيانتها واستهلاك الكهرباء والنظافة و... و... ولقد كان الشوان تاجرًا معهم، وكان يتعمد أن يكون تاجرًا جشعًا يمتص منهم أكبر قدر من المال، وإذا كان إيجار الشقة التي استأجرها الشوان خمسين جنيهًا فإنه كان يقول إن إيجارها مائة جنيه.. ولقد انقضت أيام «ليل» بسرعة وعاد الشوان إلى مصر ليلتقي الريس زكريا ليقص عليه كل ما حدث.. ولقد كان سعيدًا أشد ما تكون السعادة وهو يخرج من جيبه ورقة مطوية مكتوبًا فيها كل ما طلبه داني وجاك من معلومات عن الجيش المصري ويقدمها للريس زكريا!!

■ ■ ■

كان الشوان في تلك الأيام الأولى لرحلته الطويلة يشعر بالفخر كلما حقق انتصارًا.. قدم الورقة إلى الرجل فنظر هذا فيها وسأله:

«إيه الورقة دي؟!».

ابتسم الشوان وقص عليه قصة الورقة، كان يحكي وقد انتفخ صدره بالحماس والفخر وها هو يعرض حياته للخطر من أجل مصر، غير أن المفاجأة كانت في تلك النظرة الصارمة المروعة التي أطلت من عيني الريس زكريا.. كانت نظرة غريبة كأنها السياط؛ كأنها فوهة مدفع يطلق صفعات كانت تنهال على وجهه:

«أنا مش قلتلك ما تكتبش حاجة أبدًا؟!»

«أنا خفت أنسى حاجة!!».

«مش مهم... انسى!!»

«والبلد؟».

«إنت حاتعرف مصلحة البلد أكتر مني يا جمعة؟!».

همَّ الشوان بالرد لكنَّ إعصارًا من التأنيب اجتاح كل شيء وليس من كلمة تقال ولكنه سلوك وفعل واقتناع، وليست مصر قطعة أرض تمتد حدودها إلى هنا وهناك ولكن مصر هي الشعب، وهو فرد من هذا الشعب، وأمنه مهم لمصر وإذا نسي اليوم فلن ينسى غدًا، غير أنه يجب أن يلتزم بما يتفقان عليه، لا من أجل مصر فقط ولكن من أجل حياته أيضًا!!

كان التأنيب عنيفًا عنفًا أغضب الشوان في البداية.. وكيف يسمح لمخلوق حتى ولو كان الريس زكريا أن يتحدث إليه وكأنه طفل صغير، ولم يهتم زكريا بغضبه، كل ما قاله أن عليه أن يبدأ من الغد في البحث عن شقة ليستقبل فيها رسائل الإسرائيليين!!

في تلك الأيام لم يكن الشوان يعلم خطورة ما فعل، لم يكن يعلم كم من المكاسب من الممكن أن تتحقق لمصر من خلاله، من خلال المعلومات المغلوطة التي دسها على الإسرائيليين، وقد فهم وتعلم وأحب الريس زكريا أكثر.

....

....

في تلك الأيام كان الشوان يعمل بسرعة شديدة ولقد استأجر شقة في حي متوسط في منتصف المدينة، ونفذ تعليمات الإسرائيليين، وأصبح سكان العمارة والبواب يرونه وهو صاعد إلى الدور العلوي يحمل الأطعمة وزجاجات الخمر، وفي بعض الأحيان معه عدد من الأصدقاء والصديقات، استأجر الشقة مفروشة ولم يضف لها شيئًا سوى جهاز راديو اشتراه في تلك الأيام من سوق غزة بالعتبة؛ ذلك السوق الذي كانت تباع فيه كل البضائع المهربة عن طريق غزة قبل الحرب، وعندما سقطت غزة في أيدي الإسرائيليين ضاعت.. واحتفظ السوق باسمها!

وكثيرًا ما كان هذا الجهاز يعلو صوته بالموسيقى والأغنيات، غير أن أحدًا من سكان العمارة لم يكن يعرف أنه في يومين معينين من كل أسبوع كان الشوان يجلس إلى جهاز الراديو ويضبط الموجة، ويستمع إلى إشارة لاسلكية آتية من تل أبيب عبر صفارات متقطعة، كان قد دُرِّب على فهم لغتها!

كم تحمل تلك الأيام من ذكريات.. ورغم أن استقبال الرسالة لم يكن يستغرق سوى دقائق قليلة، فإن هذه الدقائق كانت دائمًا مشحونة

بالقلق.. وإذا كنت تملك جرسونيرة تستقبل فيها بعض الصديقات والأصدقاء فإنك ستصبح دون شك معرضًا لأن يقتحم عليك خلوتك هذه، في لحظة حرجة وخطرة، ضيف غير مرغوب فيه!!

كان الريس زكريا يعرف مكان الشقة ويعرف كل شيء فيها، غير أن مقابلاته مع الشوان كانت تتم دائمًا من خلال تلك الطقوس الغريبة التي تجعل من المستحيل إذا ما تتبعك أحد أن يعرف اتجاهك أو يستمر في تتبع خطواتك!

ولقد كان الشوان ذات يوم يستعد لاستقبال الرسالة اللاسلكية في الموعد المحدد. صعد إلى السطح واطمأن على الإيريال وعاد إلى الشقة وأغلقها بالمفتاح وضبط الموجة وأخرج كتاب الشفرة وساد الصمت ونظر في الساعة ولم يكن باقيًا على الإرسال سوى دقيقة واحدة عندما دق جرس الباب.

كان شيئًا مثل هذا كفيلًا بأن يجعل الشوان في مأزق، وعندما دخل العمارة شاهده البواب كما شاهده بعض من أصحاب الدكاكين الذين مر بهم وتعودوا عليه وأصبح يحييهم ويحيونه.. مضت الثواني كدهر لكن الباب عاد يدق من جديد وفي إلحاح.. حسب الحسبة في رأسه ووجد أنه لا بد له أن يفتح.. نهض إلى الباب وفتحه وإذا به يقف أمام الريس زكريا.. أفسح الشوان الطريق مرحبًا.. لكنه أيقن أن شيئًا خطيرًا قد حدث.

عندما يصل القلق مداه، وعندما يصبح روتينيًا في حياة إنسان، فإن هذا الإنسان - في سبيل التخلص من قلقه الدائم - قد يُقدِم على أي شيء حتى ولو كان الموت نفسه لكي يتخلص من قلقه هذا.

وهذا ما فعله جمعة الشوان في تلك الليلة التي ظل الجرس يدق فيها دون رد في تلك الشقة التي استضافوه فيها في شارع ديزنجوف بتل أبيب.. كان عاريًا كما ولدته أمه، لكنه لم ينتبه إلى هذا.. تقدم إلى الباب وفتحه فإذا النقيبة تقف أمامه، جاءته بعد أن أصبح وحيدًا وبعد أن تيقنت من أنهم انصرفوا، أفسح لها الطريق إلى الداخل، وقد عافت نفسه كل شيء.. قالت إنها نسيت حقيبة يدها فلم يعر قولها اهتمامًا، دخل إلى الفراش وألقى بجسده تحت الأغطية وأغمض عينيه وقال إنه متعب وإنه في انتظار يوم حافل.. دس رأسه في الوسادة وراح في سبات عميق.

ولقد كان اليوم التالي يومًا شاقًا، جاء النجار لكي يعلم الشوان كيف يصنع مخبأ سريًا في دولاب أو في درج مكتب. الدق والنجارة وكان هناك مختص الخرائط من بعد النجار، في ساعة راحة اقترب منه ديفيد وهمس:

«إنت مزعل مستر داني ليه؟!».

قال الشوان إنه على استعداد لأن يصالحه لكنه ليس على استعداد لأن يدفع عنقه ثمنًا لرضاء مستر داني.. همس ديفيد في أذنه بأنه علم أنهم سيضاعفون مرتبه فضحك الشوان قائلًا: ما فائدة المال لجثة معلقة في حبل مشنقة؟!

قال ديفيد: إنه لو رأى الشوان جهاز الإرسال لأيقن أن الأمر أبسط وآمن مما يتصور!!

رد الشوان بأنه على استعداد لأن يأخذه لو أنهم أخفوه له في كوب من الماء كما قال مستر داني!!

جاء مستر داني في الواحدة ظهرًا وقد اطمأن الشوان تمامًا إلى أنهم يريدون إعطاءه جهاز الإرسال بأي ثمن كما قال الريس زكريا تمامًا.. كان التدريب على القراءة - قراءة الخرائط - قد انتهى، فجلس الشوان إليه مرحبًا.. انسحب الجميع فجأة وبقي مستر داني مع الشوان وحدهما، التفت نحوه رئيس قسم الشرق الأوسط بالمخابرات الإسرائيلية وكان واضحًا أنه حسم الأمر:

«اسمع يا جمعة.. إنت تعرف إحنا بنثق فيك قد إيه؟!».

ضحك الشوان في أعماقه وتساءل: ما الذي يفعلونه به لو عرفوا أنه يخدعهم في كل دقيقة؟!

«علشان كدة إحنا قررنا إننا نديك روح إسرائيل أمانة في إيدك...».

قال الشوان:

«في عينية الاتنين يا مستر داني وإنت عارف أنا باحبكم قد إيه؟!».

«يعني إنت مستعد تعمل أي حاجة علشان إسرائيل؟!».

«أنا تحت أمركم!!».

«إحنا محتاجين جدًّا إننا نديك جهاز إنذاري!».

«إنذاري يعني إيه؟!».

«ده جهاز في منتهى السرية، محدش في الدنيا يعرف عنه حاجة على الإطلاق إلا إحنا وإنت يا شوان فاهم ده معناه إيه!!».

«طب إيه الفرق بين الجهاز الإنذاري وجهاز الإرسال العادي؟!».

قال مستر داني:

«الجهاز الإنذاري ممكن يبعث ورقة فلوسكاب كاملة في 16 ثانية بس!!».

صفق قلب الشوان طربًا فها هي «البطة» تسعى إليه!!

أشار مستر داني إلى ديفيد الذي كان يقف بعيدًا فجاءه هذا بحقيبة سوداء فتحها مستر داني وأخرج منها جهازًا في حجم كف اليد.

«آدي الجهاز يا جمعة!».

وضعه مستر داني أمام الشوان، أمام عينيه، وكان سعيدًا سعيدًا سعيدًا، كانت سعادته فوق قدرته على الاحتمال، اجتاز قناة الجحيم الآن وأصبح وجهًا لوجه أمام الهدف.. نظر إلى الجهاز طويلًا، ثم التفت نحو رجل المخابرات العنيد الجالس أمامه والذي كان يقول بصوت رقيق:

«إنت حاتبدأ التدريب عليه دلوقتي وبالليل حاجيلك وحانتفق على كل حاجة!!».

....

....

ومضت الأيام، طويلة شاقة، تدرب الشوان على الجهاز وأتقن العمل عليه.. ظل ثلاثة أيام يتدرب على الإرسال، كان الجهاز معقدًا

ومركبًا.. كان جهازين خطيرين في حجم كف اليد وكلما دربوه طلب المزيد منهم!

في بعض الأحيان كان الملل يقتله قتلًا، لكنه كان يطلب المزيد حتى لا تفوته كبيرة ولا صغيرة.. كان يريد أن يحمل «البطة» إلى الريس زكريا ومعها كل التفاصيل مهما كانت صغيرة، كان يريد الانتصار في كل يوم، كان الرجل الرمادي يخرج إلى وعيه ثم يختفي عن وعيه، وكان موجودًا ولم يكن موجودًا.. في اليوم التاسع، كتب رسالة طويلة ثم حولها إلى رسالة شفرية ثم استعمل الجهاز وجاءه الرد باللاسلكي أنها وصلت..

كان الشوان الآن قد أصبح مدرَّبًا على العديد من الأشياء.. كان قد أصبح جاسوسًا متكامل القدرات، وكان التعب قد أضناه تمامًا!!

وعندما جاءه مستر داني ذات يوم عند الغروب، كان أصحاب الحقائب يجلسون من حوله، وهناك في أحد الأركان كان الرجل الرمادي يجلس صامتًا، لا كلمة واحدة طوال تلك الأيام التي رآه فيها.. سأله مستر داني:

«اقتنعت بالجهاز يا جمعة؟!».

«ومين ما يقتنعش بحاجة زي دي؟!».

كان الوقت بعد الغروب بدقائق وكان الجميع صامتين عندما قال مستر داني:

«إحنا جهزنا لك وسيلة إخفاء ممتازة».

«أشوفها قبل ما آخده، أقتنع بيها زي ما اقتنعت بيه!».

«أنا موافق!».

قالها مستر داني وعاد الصمت من جديد، دق قلب الشوان وهو ينظر إلى الرجل الرمادي.. همَّ بسؤاله عمن يكون لكنه أحجم، عاد مستر داني إلى الحديث:

«دلوقتي إيه طلباتك؟».

وعندما تأتي سيرة المال يسيل لعابه وتتحفز كل حواسه!

«عاوز لنش!».

«وده بكام؟!».

«بعشرين ألف جنيه!!».

وبدأ الحوار، الشد والجذب، القط والفار، وقال مستر داني:

«أنا حاجيبلك باخرة.. مش لنش.. بس المهم تستعمل الجهاز بكفاءة!».

في تلك الليلة، ظن الشوان أن الرحلة قد انتهت، قالوا له إن لديه أربعة أيام إجازة.. دعاه مستر داني إلى العشاء في مطعم قريب؛ مطعم على البحر صنع من الخشب، حتى الجدران والأرض والأطباق من الخشب!

همس ديفيد في أذنه قبل مغادرة الشقة أن العشاء سيكون احتفالًا به.. ركب سيارة سوداء وكان مستر داني على يمينه، نظر إلى يساره فوجد الرجل الرمادي ينظر إليه بعينين كعيني الصقر.. توقفت السيارة أمام المطعم الخشبي وكان الجرسون من الإسكندرية فتحدث مع الشوان بالعربية.. مُد السماط، والأطعمة وشرب الجميع وأكلوا، بعد الطعام ملئت الكئوس، وقال داني:

«يوم ما تبعت لينا أول رسالة بالجهاز، حضر جنبك قزازة شمبانيا على حسابي.. وأنا حاكون قاعد هنا في تل أبيب وجنبي قزازة شمبانيا برضه، أول ما نبعت الرسالة ونقول لك أوكيه.. تشرب معانا نخب النجاح!!».

هز الشوان رأسه موافقًا، ونهض مستر داني وهو يتناول صندوقًا فاخرًا.. نهض الجميع بنهوضه فطلب داني منهم أن يشربوا نخب جمعة الشوان، رفعوا الكئوس وشربوا النخب، فتح الصندوق وأخرج منه ساعة سايكو، قدمها إلى الشوان قائلًا:

«الساعة دي هدية من إسرائيل لواحد من رجال إسرائيل...».

تناول الشوان الساعة وهو يكاد ينشق من الغيظ، أيعطونه جهازًا ثمنه مئات الألوف من الدولارات ويقدمون له هدية ثمنها لا يزيد على مائة وخمسين جنيهًا!!

قال مستر داني:

«بناءً عليه حايكون اسمك الحركي من النهاردة چورچ سايكو!!».

وضع الشوان الساعة في معصمه، وأصبح اسمه «چورچ سايكو».

وكان عليه أن يبدأ إجازته في صباح اليوم التالي ليزور حيفا ويافا والقدس، لكنه لم يكن يعلم أن ما كان ينتظره بعد الإجازة سوف يصيبه برعب قاتل.. لم يكن يعلم أنه سيواجه أخطر موقف تعرض له طوال تلك السنوات الخمس التي انقضت.

الفصل الأخير

ها هي الأيام الأربعة توشك على الانتهاء، تحمله السيارة إلى يافا وحيفا وتهبط به إلى القدس وهو وسط الأعداء يجول مكرمًا معززًا، يقدمون له كل ما يطلب وقد استقرت الآن نفسه وذهب عنه القلق، وها هو الجهاز أصبح بين يديه غنيمة يقدمها لمصر كي تنتصر وتبقى مرفوعة الرأس.. في الطريق إلى تل أبيب، إلى شارع ديزنجوف، في اليوم الرابع.. كان ذهنه قد أصبح وكأنه آلة تعمل بلا توقف.. ولا يدري لم هاجمته الذكريات بعنف عما مر به طوال خمس سنوات مضت.. كم عانى وكم كابد وكيف تعب وكم أحس بالخوف وانتابه القلق.. كم تقلب في بلاد الدنيا وكم تقلبت به الأحوال، الريس زكريا وعديد من ضباط المخابرات الإسرائيلية، المعلومات والفحص والبحث والممنوع والمسموح به وذلك الحبل المشدود فوق نار ونار.. فمتى يأتي الوقت الذي يكف فيه، يتوقف، يصرخ في الناس أنه كان ذات يوم جاسوسًا، وكيف كان عميلًا مزدوجًا.. أصبح اسمه الحركي «چورچ سايكو» لكنه سيظل دائمًا جمعة الشوان، السويسي البمبوطي، الباحث عن لقمة العيش أينما كان العيش، وحيثما أراد له الله.. انتهت الأيام الأربعة وآن له أن يخلد إلى الراحة.. وإن كان قلقه الآن سببه تلك الرغبةِ العارمة في

العودة إلى مصر وهو يحمل «البطة» الثمينة، فلم تبق سوى أيام.. دلف إلى شقة شارع ديزنجوف وأغلق الباب وارتمى فوق مقعد وانتابته رغبة شديدة في النوم.. دلف إلى الحمام وأغرق جسده في الماء ولم يعد الآن خائفًا من الأحلام.. لم تأتِ النقيبة وإن أتت فلن يوليها سوى ظهره فقد أصبح الآن راغبًا عن كل شيء سوى العودة إلى الوطن.. أغمض عينيه وراح في سبات عميق.. وعندما استيقظ في الصباح أدهشته تلك الراحة الغامرة التي راحت تسري في أوصاله.. كالذي تسلق جبلًا شاهقًا وعرًا إذا ما وصل إلى قمته تنفس ملء صدره.

في التاسعة، كان يجلس في البهو الأنيق وأمامه فنجان القهوة وهو يتصفح الجرائد التي وضعوها بجوار المقعد الذي تعود الجلوس عليه. سيسلمونه الجهاز اليوم أم ما زالت في الجعبة ألعاب؟ مضت الأيام ورجل المخابرات كالساحر لا يكشف أوراقه إلا في اللحظة الأخيرة التي تبهرك وتربكك وتقنعك بما يريده منك، زحف القلق إلى نفسه فطرد القلق عن نفسه ومهما كان الذي هو آت فإن عليه أن يصمد حتى النهاية:

«فاضل شيء بسيط يا أخ جمعة!!»

كان ديفيد يجلس الآن أمامه، وكانت النقيبة قد رفعت بقايا طعام الإفطار وفنجان القهوة الفارغ، أما مستر داني فكان يجلس إلى جواره بنفس الأسلوب، بنفس النظام، بنفس الوجوه.. حتى ذو العينين الرماديتين كان هناك ينظر إليه ولا يتحدث.

«إيه اللي فاضل يا مستر داني؟!».

«عاوزينك تزور الإدارة!».

«إدارة إيه؟».

«الموساد!!».

«المخابرات الإسرائيلية يعني؟!».

«تمام كده!!».

ثم ساد الصمت.....صمت قصير لكنه بدا له بطول دهر كامل، لم ينطق الشوان وراح ينظر إلى مستر داني والأشياء والرجال المحيطين به..

جاءه صوت مستر داني من بعيد:

«فيه إجراء بسيط كده لازم نعمله هناك!!».

كان الحديث اليوم له طعم آخر.. يعرض عليه الرجل أن يبقى معه اليوم كله.. سنتناول طعام الغداء في مطعم وستقضي يومًا هادئًا، ثم نذهب إلى هناك للكشف على أعصابك.

«أعصابي؟!».

«إنت عارف الجهاز ده ثمين قد إيه؟ عارف قيمته، وأنا قلت لك إني حاديك شرف إسرائيل نفسها في إيديك!!».

صمت الشوان ولم يرد، فقد كانت كلمات الريس زكريا تطن في أذنيه:

«لازم يحطوك تحت جهاز كشف الكذب يا شوان!!».

يومها – في القاهرة – ذعر الشوان:

«يا نهار أسود.. طب وأنا حاعمل إيه لو عملوا معايا كده؟!».

كالعادة هز الريس زكريا كتفيه في استهانة وهو يقول:

«أنا حاقول لك تعمل إيه؟!».

في القاهرة كان التدريب شاقًّا، والتلقين شاقًّا.. في القاهرة كان ذهنه متفتحًا واعيًا.. في القاهرة أخبره الريس زكريا بكل ما يمكن أن يفعله.. في القاهرة قال له:

«كل دي حاجات بسيطة!» فضحك وقال: «بيتهيأ لي يا ريس زكريا إني لو مت في يوم حاتبص لي وتقول لي بسيطة!!».

يومها ضحك الريس زكريا ضحكة خافتة، وغمغم:

«كلنا حانموت يا شوان، كلنا حانموت!».

مال الشوان نحو مستر داني وهو يقول:

«بس أنا أعصابي كويسة!».

كاد الرعب أن يشل أوصاله شلًّا، خفق قلبه في عنف وتساءل: كيف نسي في غمرة الأحداث هذا الجهاز اللعين وقد حذره منه الريس زكريا ودربه ولقنه كيف يمكنه الانتصار عليه.. سرت في جسد الشوان رعدة وتساءل عما يمكن أن يحدث له لو أن هذا الجهاز استطاع أن يشي به إلى هؤلاء الناس وهو في قلب بيتهم؛ في الموساد!!

كان أكثر ما يخشاه أن يلحظ عليه الآخرون شيئًا من ارتباك.. وكعادته، ألقى بنفسه في لجة المياه كي يسبح، إن المقدر سوف يقع، والحذر لن

يمنع القدر، فلم لا يسلم أمره لله ويتسلح بإيمانه وقدراته؟! صحبوه إلى مطعم تناولوا فيه طعام الغداء فشرب مع الغداء ما استطاع من زجاجات البيرة الفاخرة.. سكينةٌ تلك التي تسللت إلى نفسه أم إحساس غامر باليأس؟! من باب ما دخلت به السيارة إلى جهاز الموساد، هنا قلعة أسرار العدو، عيناه تريان ولا تريان، الوجوه والأشياء والدنيا أصبحت رمادية ولا شيء هناك سوى اللون الرمادي، لا لون ولا وجود إلا لهذا اللون..

الابتسامات والترحيب والأحاديث تأتيه كالأحلام.. حلم هذا أم حقيقة أم أنه في عالم آخر.. المثلجات والتحيات وكان عليه أن يحول عينيه إلى كاميرا تلتقط كل شيء، ويحول ذهنه إلى شريط لا تفوته شاردة.. غير أن كل شيء كان يضيع، كان يختلط، كان يذوب، كان يسيل، كان ينصهر، كان يصعد، كان يهبط، كان يرقص، كان يلعب، كان يسير وكأنه يسبح.. من باب إلى باب ومن ممر إلى ممر، وإذا الساعات دقائق، وإذا الدقائق ثوانٍ، وإذا الثواني ومضات خاطفة، وإذا هو في غرفة كل من فيها يرتدي الملابس البيضاء، وإذا الصمت هو اللغة السائدة، وإذا الجدران أجهزة، وإذا الأجهزة تبرق، تلمع تضوي، تتناثر، وإذا هو جالس فوق مقعد، وإذا جسده تمتد منه وإليه عشرات من الأسلاك، وإذا سكينة من لدن الله تهبط عليه فكأنه في غيبوبة قدسية، عيناه.. آهٍ من عينيه وما رأته، كم تعذبت تلكما العينان الضعيفتان المرهقتان وهما تريان الأجهزة والمؤشرات والكاميرات والميكروفونات وشاشات التلفزيون وأشرطة التسجيل والحيطان الزجاجية والصمت السائد، كحلم، كمنام، كشيء بلا وجود!!

وإذا هو أمام اثنين يرتديان الملابس البيضاء، واحد أمامه وواحد يقف من خلفه، وإذا الأسئلة تترَى كالطوفان، سؤال من أمام وآخر من خلف. السؤال قد يعاد مرة ومرتين وثلاثًا، عشرات، لا مئات بل آلاف الأسئلة، أسئلة عن كل شيء، عن أمه، عن فاطمة، عن مصطفى، عن... عن السويس، عن الجيش، عن الناس، عن المعلومات، عن الطعام، عن الشراب، عن جوجو، عن... عن كل شيء يخطر ولا يخطر بالبال.. هل كان يلهث؟!

هل كان خائفًا؟!

هل كان قلقًا ...؟!

هل... هل... هل؟!!

أبدًا، لا شيء سوى السكينة، لا شيء سوى الهدوء، كان التدريب، كان التلقين وكأنهما يسريان في دمه، كان صوت الريس زكريا الرصين الهادئ يطمئنه، كان الله وحده هو القادر على مساعدته فساعده!!

عندما جلس في هذا المقعد الذي ذكره بمقعد طبيب الأسنان، فعل نفس الشيء؛ نفس الشيء الذي فعله يوم أن كان مسافرًا من القاهرة.. طاف ذهنه وعبر خياله البحر والصحراء، وهبط هناك، عند ضريح الحسين!!

«يا حسين!!».

هكذا نادى ولم يقل شيئًا.

وطار به الخيال، أخذه أخذًا، سرى به فوق القاهرة في لمح البصر ليهبط عند ضريح السيدة زينب:

«يا سيدة!!».

هكذا نادى صوته في داخله.. ولم يقل شيئًا أكثر من النداء!

وطار به الخيال؛ طار إلى حيث لم يذهب ولم ير، إلى المدينة حيث قبر الرسول:

«يا نبي!!!».

هكذا تضرع ولم يقل شيئًا.. لكنه كان يرد على الأسئلة ولا خطأ، لا خطأ واحد.. فكيف؟

كيف وجد الابتسامات تتسع، كيف رأى الترحيب يشتد، كيف قادوه، كيف سار، وكيف وجد نفسه في غرفة ملحقة، غرفة صغيرة، بضعة مقاعد ومكتب وصمت كالعدم، نظر في الساعة وكان قد أشعل سيجارة، استكان، استسلم، وكان يعرف أن الله وحده هو الذي قاد صوته إلى الإجابة:

بعد عشرين دقيقة فتح الباب وظهر داني ومعه الرجل الرمادي، صافحاه وقدما له التهاني وأمرا له بفنجان من القهوة الفرنسية وسمع صوت الرجل الرمادي لأول مرة.. لأول مرة منذ ثلاثة أسابيع كان يراه فيها كل يوم:

«إنت عندك أولاد؟!».

هكذا سأل الرجل الرمادي، وهكذا جلس داني لأول مرة صامتًا، وهكذا وجد السؤال غريبًا فلقد كانوا يعرفون عنه كل شيء، فما الذي وراء هذا السؤال. هل شكوا في أمره؟... هل كشف جهاز الكذب كذبة؟

«لأ ما عنديش!».

«عندك اخوات؟!».

«طبعًا عندي!».

«كام أخ وكام أخت!».

«أخ واحد!».

«اسمه إيه!».

«مصطفى!».

«أكبر منك؟!».

«لأ أصغر!».

«اتعلِّم؟!».

«طبعًا!».

«شفت كتبه لما كان في المدرسة!».

«مش كلها!».

«كتب المدارس فيها إيه عن إسرائيل؟!».

«إنها عدوتهم!!».

«يعني مصطفى بيكره إسرائيل؟!».

«مش مصطفى بس!».

«ولما بيتكلم معاك.. بتقول له إيه؟!».

ضحك الشوان ودق عينيه في العينين الرماديتين وقال:

«إنت عاوزني أقول له بحب إسرائيل؟!».

«إيه حالتك الاجتماعية؟».

«مش فاهم».

«بتسهر؟!».

«باسهر!!».

«ما بتروحش البيت كتير؟!».

«علشان الشغل، هو انتو مخليني أنام؟!».

«بتخرج مع المدام؟».

«قليل!!».

«ليه؟!».

«ظروفي وظروفها!!».

«كده مش كويس!».

«ليه؟».

«إحنا عاوزينك تروح البيت دايمًا وعاوزينك تخرج مع المدام باستمرار!!».

«مفيش مانع!!».

«عاوزين مصطفى يبقى صاحبك!».

«وإذا جت سيرة إسرائيل؟!».

«اشتم فيها ما يهمكش!!».

ما الذي يريده هذا الرجل الرمادي ذو الشعر الرمادي والحاجبين الرماديين والعينين الرماديتين والملابس الرمادية، الصامت دائمًا، المستمع دائمًا، المراقب لكل حركة وسكنة.. يجلس داني إلى جواره صامتًا ولأول مرة يراه فيها مستمعًا لا يتدخل، وما زال الرجل يدق عينيه الغريبتين في عينيه، في رأسه، في جبهته، في أحشاء تفكيره.

«تقدر تعرف حبة الطماطم فيها كام بذرة؟!».

ولو أنه ترك العنان لنفسه لصرخ في الرجل: ما علاقة بذرة الطماطم بزوجته وبيته وسعادته، كان السؤال مفاجئًا وغريبًا فقال:

«نعم يا خويا».

ابتلع الرجل الرمادي قوله الساخر هذا، وعاد يسأل:

«تقدر تعرف حبة الطماطم فيها كام بذرة؟!».

«ولا الفلاح اللي بيزرعها يقدر يعرف!!».

«لأ ممكن!».

«تعرف إنت؟».

«ممكن!!».

«جايز!».

«طب لو إحنا جبنالك برتقالة تقدر تعرف فيها كام بذرة؟».

«برتقالة؟».

ما الذي يريده هذا الرجل؟! يسري إليه القلق من جديد فما علاقة الطماطم والبرتقال بجهاز الموساد الإسرائيلي الذي يجلس الآن في إحدى غرفه؟ بدا على الشوان وكأنه يفكر فلاحقه الرجل قائلًا:

«مش لازم عدد البذر بالظبط، مش مهم فرق اتنين فوق أو اتنين تحت!!».

«أي نوع من البرتقال؟!».

هكذا سأله الشوان، فقال الرجل:

«إنت بتسأل ليه السؤال ده؟!».

«لأن البرتقال البلدي -مثلًا - فيه بذر أكتر من السكري!!».

«طب والطماطم؟!».

«فيه طماطم بيزرعوها من غير بذر دلوقتي!!».

«طيب.. طيب.. طيب!».

عاد السكون وظل الرجل الرمادي يردد هذه الكلمة، التفت نحو داني والتقت عيونهما معًا وساد الصمت ولم يجد الشوان ما يمكن أن يقوله،

طال الصمت لدقائق وبدا القلق ينقر أعصاب الشوان فجأة، هوى سؤال جديد فوق رأسه:

«إيه أخبار دكان البقالة؟!».

عادت الأفكار تختلط في ذهن الشوان، أي دكان وأية بقالة ومتى كان هذا.. منذ عام أو عامين وربما ثلاثة أعوام، قبل الشقة أو بعدها؟! ولو أن أحدًا قال له وهو يذرع ميناء السويس بفلوكته في تلك الأيام الخوالي إنه سيصبح صاحب محل بقالة لاستلقى على قفاه من الضحك.. غير أنهم جاءوا إليه ذات مرة وطلبوا منه أن يفتح دكان بقالة ليكون ساترًا له.. «يختبئ وراءه». ولكي يعرفوا منه حركة البيع والشراء، حركة السوق في مصر والمواد المتوافرة والمواد التي لا تتوافر..

وفتح دكان البقالة بأموال الإسرائيليين، بدولاراتهم.. وأصبح ضليعًا في سوق المسلي والمربى والحلاوة والجبن بأنواعه.. وإذا كانت نقوده تجري في قناة مجهولة، فهو خلفها حتى يصبح واحدًا من أعلامها...

وعندما سأله الرجل الرمادي عن البقالة توجس الشوان خيفةً، هنا بدأ الرجل يبتعد عن الطماطم والبرتقال والبذور ليدخل في صُلب الموضوع!!

سأله الرجل الرمادي:

«إيه أخبار دكان البقالة؟».

رد الشوان فورًا:

«بتخسر؟!».

وبدأ التوتر يغزو العينين الهادئتين:

«أنا عارف إنها بتخسر.. بس اللي أنا عاوز أعرفه هي بتشتغل إزاي؟!».

«مش قد كدة!!».

«أنا فاهم إنها بتشتغل مش قد كدة... إنما إزاي؟!».

«إنت عارف العمال بقى واللي بيعملوه».

زفر الرجل الرمادي ومال نحو الشوان وقد نفد صبره:

«أنا ما يهمنيش إنك تكسب وأنا ممكن أديك اللي إنت عاوزه، بس أعرف الدكان بيشتغل إزاي يا جمعة؟!».

كان الشوان يعرف هدف الرجل، كان يعرف أنه يستهدف معرفة حركة البيع والشراء.. هكذا تعلم خلال السنوات الماضية لكنه لا يريد أن يدلي بشيء، ولا سبيل إلى الهروب.

«أصل أنا حاقول لك بقى الحقيقة، أنا بابيع أرخص من السوق. علشان كدة باخسر!».

«بتبيع أرخص من السوق ليه؟».

«خايف من بتوع التموين.. ماهو لو أخدوني حايكشفوني!!».

«مش مهم يا مستر چورچ إني أعرف دخلك كام.. المهم تعرف حركة التجارة في الحي وفي الدكان!».

«إنت تعرف أنا عندي مصاريف قد إيه. مش فيه نور وإيجار وعمال ومصاريف.. طب تصدق بإيه.. إن أنا عندي مصروف شهري في الدكان الصغير ده ما يقلش عن تمانين جنيه!!».

صاح الرجل الرمادي:

«يا سيدي خد تمنميت جنيه بس قول لي!!».

«والنبي بتخسر... الدكان بيخسر صدقني!!».

«بصراحة يا مستر چورچ سايكو، إحنا عاوزين نعرف معلومات عن حركة البلد الاقتصادية؟!».

«عاوزني أتكلم بصراحة يعني!».

«طبعًا».

«أنا باكسب خمستاشر جنيه كل شهر!!».

كتم الرجل انفعاله، أشعل سيجارة، استرخى على مقعده، نظر إلى الشوان طويلًا، ثم جاء صوته باردًا كحد سكين، قال:

«إنت عاوز تفهمني إن دكان زي ده في حي زي اللي إنت فاتحه فيه مفيش بقالين حواليك على بعد تلاتة كيلو، فيه تلاجة تمنها ألفين جنيه، وبضاعة بعشرين ألف جنيه بتكسب خمستاشر جنيه في الشهر بس؟!».

«إذا كان دا هو اللي حاصل أعمل إيه؟!».

كاد الرجل الرمادي يقفز من مقعده:

«أنا مش باحاسبك. أنا ماليش دعوة بالحساب، أنا عاوز أعرف معلومات!».

«طب مانا بأقولك آهو!!».

«بتبيع سجاير بكام في اليوم؟!».

«اتنين جنيه!!».

نظر إليه الرجل الرمادي نظرة شك، صاح الشوان:

«أنا ما بكدبش!!».

فقال له:

«خصوصًا في الفلوس!!».

«دي تبقى تريقة بقى!!».

«طب والمكتب اللي في الإيموبيليا؟».

صاح الشوان:

«الله يخرب بيته، دا أنا لازم أقفله!».

«ليه؟!».

«بيخسر؟».

صرخ الرجل الرمادي:

«بتاجر في البويات والنقل والعربيات الأجرة والعربيات الملاكي وبتخسر؟!».

«آهو ده اللي حاصل!».

«أنت إيه.. يهودي؟!».

هكذا صرخ الرجل الرمادي معلنًا عن يأسه.. وهكذا انفجر الشوان في الضحك.. كان يضحك حقًّا.. من أعماقه يضحك.. لقد استطاع أن يهزمه عندما اقترب من ملعب المال والنقود.. بدأت الراحة تسري في الجو وتحل محل التوتر، فقد ضحك مستر داني وضحك الرجل الرمادي وهو ينظر إلى داني وكأنه يعطيه أمرًا:

«خلاص يا مستر داني، لازم نقفل دكان البقالة ومكتب الإيموبيليا».

وساد الصمت!

ظن الشوان في لحظة أنه انتصر عليهما، ظن أنه أفحمهما وأعياهما... وإذا بالضربة تأتيه من حيث لم يحتسب:

«ليه؟ عاوزين تقفلوا الدكان والمكتب ليه؟».

«ولازم نبيع العربية كمان!!».

«إشمعنى؟».

«أولًا لإنك بتخسر، وإذا فرضنا إن العربية...».

قاطعه الشوان:

«دي قديمة!».

«بتكلفك كام في اليوم؟!».

«اتنين جنيه!!».

«يعني ستين جنيه في الشهر، غير إيجار المكتب، وغير مصاريف الدكان.. مش كده؟!».

ضحك الشوان.. ضحك حقًّا وهو يسأل الرجل الرمادي:

«إنت عاوز تعرف إيه بالظبط؟!».

«عاوز أعرف إذا كنت بتخسر في كل حاجة.. تبقى بتجيب الفلوس اللي بتعيش منها منين؟!».

«ومين اللي حايسأل سؤال زي ده؟!».

«الحكومة!!».

«والحكومة تعرف منين؟».

«من حساباتك!!».

«إذا كان أنا معنديش أصلًا محاسب!!».

وكان رد الشوان بمثابة «النوك أوت».. التفت الرجل الرمادي نحو مستر داني وقال:

«مستر داني، أنا خلصت مع مستر چورچ سايكو!!».

لم تنته اللعبة عند هذا الحد، خرج الشوان من غرفة إلى غرفة.. وتسلمه رجل آخر عصب عينيه وراح يلقي عليه عشرات الأسئلة فراح يجيب، ويجيب ويجيب ويجيب. حتى أصبحت الساعة الثامنة مساءً.

كان الليل قد أرخى سدوله على تل أبيب عندما غادر الشوان مبنى جهاز المخابرات الإسرائيلي المسمى الموساد.. وكان عليه بعد يوم أو يومين أن يطير إلى أوربا.

■ ■ ■

ولقد طار الشوان إلى أوربا وتسلم هناك جهاز الإرسال الثمين... وعندما ركب الطائرة من مطار روما في طريقه إلى القاهرة، اصطدم وهو يبحث لنفسه عن مقعد براكب مصري؛ واحد من هؤلاء الناس الذين يزاحمون الناس للحصول على مقعد أفضل.. نظر إليه الشوان في ضيق.. فابتسم الراكب متأسفًا:

«آسف يا أستاذ!».

ولم يرد الشوان.. أفسح له الطريق، فرفض الرجل، شأن كل مصري طيب، أن يتقدمه:

«لا والله!».

«والله لتتفضل!».

«مش ممكن!».

«سيادتك الأول!».

و... ولقد كان المشهد في الطائرة وعلى مسمع من الجميع، غير أن الرجلين في النهاية جلسا متجاورين.

ولقد كانت هناك مصادفة غريبة؛ أن كلًّا من الرجلين كان يحمل في يده صندوقًا صغيرًا عليه صورة نوع معين من «التوستر» من نفس الماركة

ومن نفس النوع، ومن نفس اللون أيضًا و... و... وعندما كانا يغادران الطائرة في مطار القاهرة لم يكن من الممكن أن يلحظ أشد الناس قدرة على الرقابة أن كلًّا منهما قد أخذ معه جهاز الآخر.

ولم يكن أحد يتصور أن هذا الراكب هو الريس زكريا الذي حمل التوستر بالجهاز الثمين من مطار القاهرة إلى جهاز المخابرات المصري.

(انتهت)

فهـرس

من مؤلفات

الأستاذ

صالح مرسي

بنهضة مصر

- زقاق السيد البلطي، رواية.
- دموع في عيون وقحة
  رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- الصعود إلى الهاوية
  رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- السجين، رواية.

